

علم الدين

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

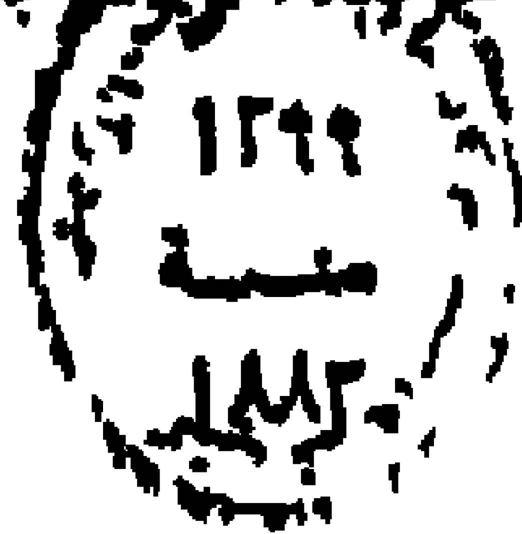
ناظر الاشغال العمومية المصرية



الجزء الرابع



طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية





بسم الله الرحمن الرحيم

المسامرة السابعة والتسعون

الجمعية المشرقية

ثم ان الخواجا فتح الصندوق واطلع على ما فيه ثم اقفله وقال لابن الشيخ وعدتك بنظارة ونحن بالمركب فها هي فخذها واحفظها وهيئ نفسك فانك متوجه معنا فاخذها ووضعها في غرفته وغير ثيابه ورجع وكانت العربة حاضرة فركبوا جميعاً الى المدرسة المشرقية ليلقي الشيخ فيها درسا فساروا قليلا فوجدوا رئيس الجمعية على بابها فتلقاهم وحياهم واخذ بيد الشيخ بغاية ما يليق من التعظيم والوقار وما ينبغي من الاحترام والاعتبار وكان على الشيخ يومئذٍ حلة مصرية مما يلبسه العلماء فشخصت العيون اليه وكان لا يمر

باحد الا قام له ونظر اليه وتامله وما زال ذلك الرئيس آخذاً بيد الشيخ الى ان ادخله محل الدرس فوجد به جمعا لا يشق له غبار وجميع الطلبة في الانتظار فلما قدم عليهم قاموا جميعا تعظيما له واجلالا وتلقوه بما يليق بمثله فشق الشيخ صف الحلقة ودخل معه الرئيس والخواجا وابنه حتى اجلسوه على كرسي قد هيئ له في وسط الحلقة فكان الشيخ وحده مرتفعا على جميع الحاضرين فاطرق راسه مليا خاشعا لله تعالى ولما جلس الجميع واستقر كل في مكانه افتتح الشيخ الدرس فقال بعد التعوذ والبسملة نحمدك اللهم على ما اوليتنا من النعم التي لا نعد والمنن التي لا تحد خلقت الارض والسماوات واسكنت فيهما انواع المخلوقات الفرد الصمد لا شريك لك في الملك يا مدبر الفلك ومجري الفلك انت الاول الاخر الباطن الظاهر فاليك المرجع والمستند وعليك التوكل والمعتمد اللهم وفقنا لما يرضيك يا رحيم واهدنا الصراط المستقيم اما بعد فقد سألني حضرة الرئيس المعظم والاستاذ المفخم ان اشرح له بعض مسائل علمية وفنون ازهرية عقلية ونقلية فلم يسعني مخالفته بل وجبت علي طاعته ومخالفته مع اني اعلم من نفسي التحرز عن الخوض في هذا المشرع وعدم القدرة على ان احوم حول هذا المرتع فارجوكم ايها السادة الاساتذة والاحبار الجهابذة ان تغضوا الطرف عن الهفوات وتصفحوا عما يقع من الزلات فان من الواضح الغني عن البيان ان الانسان محل النسيان كما قيل

وما سمي الانسان الا لنسيه

ولا القلب الا انه يتقلبُ

واسئل الجميع ان ينظروا الى الفقير بعين الرضى والقبول في كل ما يفعل او يقول ثمد قبل

وعين الرضى عن كل عيب كليلةٌ .

كما ان عين السخط تبدي المساويا

والله تعالى يوفقني واياكم الى اقوم طريق ويهدينا معالم التحقيق بجاه سيدنا محمد خير الانام عليه وعلى سائر الانبياء افضل الصلاة والسلام ثم قال اعلموا ان الله تعالى لما خلق الانسان علمه البيان فخلق آدم وعلمه الاسماء كلها وكان يتكلم بالسريانية فالسريانية هي اول اللغات ثم نوّع اللغات الى انواع فجعل افصحها وافضلها اللغة العربية فنريد التكلم في طرف مما نتعلق بها فنقول ان اول من تكلم باللغة العربية نبي الله اسماعيل بن نبي الله ابرهيم الخليل عليهما السلام ثم ما زالت تتسع جيلا بعد جيل الى ان صارت لا يحيط بها من ائمة اللغة الا القليل وقد طلبتم مني لحسن ظنكم بي ان املي عليكم منها . دروس تكون لنياهب غوامضها كالشموس فما وجدت اقرب من الدواوين التي تشتمل على ما كانت تستعمله العرب في نزلاتهم وما كانوا يتداولونه في حلولهم وتنقلاتهم ورأيت من احسن ما صنف في هذا المعنى ديوان حامل لواء الشعراء وامام كل شاعر فوق الغبراء وهو امرء القيس المشهور الذي ورد فيه الاثر

المأثور وإسمه جندح بن حجر بن عمرو وجندح بضم اوله وثالثه وسكون ثانيه على وزن قنفذ ومعناه في الاصل رملة طيبة تنبت الوانًا وامه فاطمة بنت ربيعة اخت كليب ومهلهل وامرء القيس لقبه وكنيته ابو وهب وابو الحارث ويلقب ايضا بذي القروح لقوله في بعض قصائده

وبدلت قرحا داميًا بعد صحة

لعل منايانا تحولنَ ابؤسا

ويلقب ايضا بالذائد لقوله في بعض قصائده

(اذود القوافيَ عني ذيادا)

ومعنى امرءُ القيس في الاصل رجل الشدة لان القيس في اللغة الشدة وقيل ان القيس كان اسما لصنم فنسب اليه ولهذا كان الاصمعي يكره ان يروي قوله الاتي

عقرتَ بعيري يا امرءَ القيس فانزلِ

فكان يقول يا امرءَ الله وكان ابوه حجر طرده في صغره من اجل عنيزة التي كان يتشبب بها فلما طرده صار يتقلب في احياء العرب ويتتبع صعاليكهم وهم اللصوص وكان ابوه ملكا على بني اسد فعسفهم عسفا شديدا فتمالأوا على قتله فقتلوه فلما بلغه قتل ابيه وكان يشرب الخمر قال اليوم خمر وغدا امر ضيعني صغيرًا وحملني ثقل الثار كبيرا وقام في اخذ ثار ابيه في خبر طويل سنتكلم عليه اذا دعا الحال اليه وما زال في طلب ثار ابيه الى ان وصل

انقرة فطعن في ابطه فنزل هناك بجانب جبل يقال له عسيب وتفرق عنه اصحابه وكان بجانب الجبل قبر لبعض بنات الملوك وفيها يقول

احارتنا ان الخطوب تنوبُ * واني مقيم ما اقام عسيبُ
اجارتنا انا غريبان ههنا * وكل غريب للغريب نسيبُ
فان تصليني تسعدي بمودتي * وان تقطعيني فالغريب غريبُ

فلما مات دفن بجانبها وكان اخر ما تكلم به (رب طعنة متعنجرة وخطبة مستحضرة وجفنة مدعثرة وقصيدة محبرة تبقى غداً بانقرة (المثعنجرة) في الاصل الجفنة التي يسيل ودكها فشبه الطعنة بالجفنة التي يسيل منها الودك وهو الدهن والجفنة القصعة الصغيرة والمدعثرة المكسورة والمحبرة المحسنة وانقرة بفتح الهمزة وسكون النون وكسر القاف معرب انكوريه وهي عمودية التي مات بها امرء القيس ثم شرع يلقي عليهم من حفظه ويتأنق في تعبيره ولفظه ويجمل ويوضح ويكني ويصرح ويطنب فلا يمل ويوجز فلا يخل وكان من جملة ما القاه عليهم عند الكلام على قول امريء القيس

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بسقط اللوا بين الدخول فحوملِ

ان قال ان الالف في قفا يحتمل ان تكون للتثنية لان العادة ان اعوان الرجل في الغالب اثنان راعي ابله وراعي غنمه

وكذلك الرفقة ادنى ما تكون ثلاثة ويحتمل ان يكون الخطاب لواحد وانما جرى خطاب الاثنين على الواحد لمرور السنتهم عليه كقوله

فان تزجراني يا ابن عفان ازدجر

وان ترعياني احمِ عرضا ممنعا

وان تكون مبدلة من نون التوكيد والاصل قفن فابدلها ألفا في الوصل قياسا على ابدالها في الوقف ويحتمل ان المراد تكرير الامر مرتين والاصل قف قف فالحق الالف امارة دالة على ان المراد ذلك كما قالوه في قوله تعالى حكاية عن اهل النار قال رب ارجعون ان المراد منه ارجعني ارجعني ارجعني ثلاثا فجعلت الواو علامة مشعرة بان المعنى تكرير الفعل مرارًا والدخول بفتح الدال اسم مكان وهو مفرد ولفظ بين يقتضي الاشتراك فلا يدخل الا على مثنى او مجموع كقولك المال بينهما والدار بين الاخوة وكقوله

شوقي اليك نفى لديك هجوعي

فارقتني فاقام بين ضلوعي

فان وقع بعدها مفرد فلا بد من العطف عليه بحرف مشرك وهو الواو نحو المال بين زيد وعمرو وقد وقع بعدها هنا مفرد وهو الدخول وعطف عليه بالفاء ثم اجاب بان الدخول اسم واقع على عدة امكنة فهي وان دخلت على مفرد لفظا فهي داخلة على متعدد معنى فلذلك عطف عليه بالفاء الموضوعة للتعقيب لا

للاشتراك فقال له بعض من بالمجلس اذا اشترطنا في لفظة بين
ان لا تدخل الا على متعدد فما تصنع في قول القرآن في صفة
المنافقين مذبذبين بين ذلك فان لفظ ذا لا يشار به الا الى مفرد
فقال له الشيخ لو دققت النظر لوجدت الجواب واضحًا وذلك
ان اسم الاشارة وان كان مفردا لفظا لكنه متعدد معنى لانه ادى
تأدية شيئين وناب مناب لفظين وقد كشف سبحانه هذا التأويل
بقوله بعد لا الى هولاء ولا الى هولاء وكان تقدير الكلام في الآية
بين ذينك الفريقين ونظيره لفظة احد في قوله تعالى لا نفرق بين
احد من رسله فان هذه اللفظة وان كانت مفردة الاّ انها
تستغرق الجنس الواقع على المفرد والمثنى والجمع ومما يدل على ان
اسم الاشارة هنا نائب عن شيئين نيابته في باب ظن عن المفعولين
نحو ظننت ذلك فتلخص من هذا ان بين لا يقع بعدها الا متعدد
اوما يؤدي تأدية المتعدد فقال له اخر اذا كان كذلك فحينئذٍ
لا يصح ان يقال المال بين زيد وبين عمرو
فقال الشيخ وهو كذلك بل الصواب في مثله حذف بين
الثانية كقوله تعالى يخرج من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا
للشاربين
فقال ذلك السائل فما تقول في قوله تعالى حكاية عن قول
فرعون لموسى فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه فان بين الثانية
مضافة لضمير المخاطب وهو مفرد وقول موسى لشعيب ذلك بيني

وبينك ايما الاجلين قضيت فلا عدوان عليّ وقوله هذا فراق بيني وبينك فان بين في الموضعين مضافة لمفرد الاول ضمير المتكلم والثاني ضمير المخاطب فلمَ جاز ذلك ولم يجز ان يقال المال بين زيد وبين اخيه فقال الفرق بين الموضعين ان المعطوف في الايات قد عطف على المضمر المجرور وقد شرط جمهور النحويين في العطف عليه تكرير الجار فيقولون مررت بك وبزيد ولا يجيزون مررت بك وزيد ولهذا لحنوا من جر الارحام في قوله تعالى واتقوا الله الذي تسألون به والارحام عطفا على الضمير المجرور حتى قال بعضهم لو أني صليت خلف امام فقرأ بها لقطعت صلاتي وبعضهم وجه الجرّ بان الواو للقسم فيكون الباري سبحانه قد اقسم بالارحام تنويها بفضلها وتنبيها على تاكد حقها ووجوب رعايتها ثم سمع الشيخ رجلا من وسط الحلقة يقول

وبينما المرء في الاحياء مغتبط
اذ صار في الرمس تعفوه الاعاصيرُ

كانه يعرض بالاعتراض على الشيخ في اشتراطه في لفظ بين أن تضاف الى متعدد

فقال الشيخ ليس ببدع ان يتغير حكم كلمة بتغيير ما تضم اليه لان التركيب يزيل الاشياء عن اصولها ويحيلها عن اوضاعها ألا ترى ان ربّ الجارّة لا يليها الا الاسم كقولك رُبّ اخ لم تلده امك فاذا اتصلت بها ما غيرت حكمها ووليها الفعل كقوله تعالى ربما

يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وكذلك لم الجازمة فانها حرف فاذا زيد عليها ما وهي حرف ايضاً صارت اسماً في بعض المواطن بمعنى حين ونظير ذلك في الافعال قلّ وطال فانها فعلان لا يستغنيان عن الفاعل كما هو حكم جميع الافعال فان كل فعل لا بد له من فاعل فلا يلي الافعال الا الاسماء لفظاً او تقديراً وهذان الفعلان لما دخلت عليها ما الزائدة وتركبت معها استغنيا عن الفاعل وجاز ان يليها الفعل نحو قولك طال ما زرتك وقلّ ما هجرتك وكذلك لهم اشياء تختلف اسماؤها باختلاف اوصافها فانهم لا يقولون للقدح كأس الاّ اذا كان فيه شراب ولا للبئر ركية الاّ اذا كان فيها ماء ولا للدلو سجل الا اذا كان فيه ماء ولو قل ولا يقال له ذنوب الا اذا كان ملآناً ولا يقال للبستان حديقة الا اذا كان عليه حائط ولا للاناء كوز الا اذا كانت عليه عروة والا فهو كوب ولا للمجلس نادٍ الا وفيه اهله ولا للمرأة ظعينة الا وهي في الهودج ولا للستر خدر الا اذا اشتمل على امرأة ولا للقدح سهم الا اذا كان فيه نصل وريش ولا للسرب نفق الا اذا كان نافذاً ولا للخيط سمط الا اذا كان فيه نظم ولا لماء الفم رضاب الا ما دام في الفم ولا لما يتخذ لتقديم الطعام عليه مائدة الا اذا كان عليه الطعام والا فهو خوان ومثل ذلك كثير في كلامهم وهذا من اسرار اللغة العربية التي لم يطلع عليها الا من تتبع مواقع استعمالهم وتضلع من موارد كلامهم

ثم قال له اخر لماذا لقبوا امرء القيس بذي القروح وبالذائد مع ان له كلاماً كثيرًا غيرها

فقال الشيخ لا بدع في ذلك فان الانسان قد ينسب الى ما اخترعه وقد ينسب الشاعر نفسه الى بعض كلامه ومن ذلك قول دعبل الخزاعي انا ابن قولي

لا تعجبي يا سلم من رجل * لعب المشيب برأسه فبكى

وقول ابي تميم انا ابن قولي

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب الا للحبيب الاولِ

كم منزلٍ في الارض يألفه الفتى

وحنينه ابدًا لاول منزل

وقول محمد بن وهيب انا ابن قولي

ما لمن تمت محاسنه * ان يعادي طرف من رمقا

لك ان تبدي لنا حسنا * ولنا ان نعمل الحدقا

فقال له اخر وكان له اطلاع على دواوين الشعراء اظن ان دعبلا سرق معنى بيته السابق يعني قوله لا تعجبي الخ من قول مسلم بن الوليد

مستعبر يبكي على دمنة * ورأسه يضحك منه المشيب

فقال له الشيخ نعم الا ان دعبلا جاء به اجود فصار احق به منه وقد تفنن الشعراء من بعده في نظم هذا المعنى فمنه قول بعضهم

تبسم الشيب بذقن الفتى * يوجب سح الدمع من جفنه
حسب الفتى بعد الصبا ذلة * ان يضحك الشيب على ذقنه

ولما علم الشيخ ان لم يفن البديع بعض المام قال وفي هذه الابيات عند علماء البديع من الجناس ايهام التضاد وهو الجمع بين معنيين غير متقابلين بلفظين يوهمان ذلك وذلك لان المراد من ضحك المشيب وتبسمه ظهوره وهو بهذا المعنى لا يقابل البكاء ولا سح الدمع وانما يقابله بلفظه فلذلك سمي بايهام التضاد وكلما كثر عدد المتقابلات كان الكلام ابلغ فقد تكون المقابلة بين شيئين كالابيات المتقدمة وقد تكون بين ثلاثة كقوله

ما احسن الدين والدنيا اذا اجتمعا
واقبح الكفر والافلاس بالرجل

وكقوله

فلا الجود يفني المال والجدّ مقبلٌ
ولا البخل يبقي المال والجد مدبرُ

وقد تكون بين اربعة كقوله

قابلتهم بالرضى والبشر متشرحا
ولوا غضابا فيا حزني لغيظهم

وقد تكون بين خمسة وخمسة كقوله

ازورهم وسواد الليل يشفع لي
وانثني وبياض الصبح يغري بي

وكقوله

راحت تحب دجى شباب مظلم

وغدت تعاف ضحى مشيبٍ نيرِ

وقد تكون بين ستة وستة كقوله

على رأس عبد تاج عزٍ يزينه

وفي رجل حرٍ قيد ذل يشينه

فقال له بعض القوم نسمع ان هذه القصيدة وهي قفا نبكِ الخ يقال لها احدى المعلقات السبع فما المعلقات وما سبب تسميتها بذلك

فقال الشيخ كانت العرب في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في اقصى الارض فلا يعبأ به ولا ينشده احد حتى يأتي به مكة فيعرضه على اندية قريش فان استحسنوه روي عنه وكان فخرًا لقائله وان لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به فكانت العرب في الجاهلية تجتمع في كل عام بمكة وتعرض اشعارها على هذا الحي من قريش واول شعر علق على الكعبة شعر امرىء القيس هذا فعلقه على ركن من اركانها ايام الموسم حتى نظر اليه اهل الموسم فتبعه الشعراء وعلقوا قصائدهم من بعده ولما كانت ايام بني امية اختار بعض امرائهم منها سبعًا فسميت المعلقات السبع فهذه احداها وهي من البحر الطويل وعدتها ثمانون بيتًا الا بيتا والثانية لطرفة ابن العبد وهي من الطويل ايضًا ومطلعها

ربه اطلالٌ ببرقة ثهمدِ   تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ
وقوفًا بها صحبي عليَّ مطيهم   يقولون لا تهلك اسىً وتجلدِ

وهي مائة بيت وبيتان

والثالثة لزهير بن ابي سلمى المزني وهي من الطويل ومطلعها

أمن ام اوفى دمنة لم تكلمِ   بحومانة الدَّراج فالمتثلمِ
ودار لها بالرقمتين كانها   مراجيع وشم في نواشر معصمِ

وهي اثنان وستون بيتا

والرابعة للبيد ابن ربيعة العامري من الكامل ومطلعها

عفت الديار محلها فمقامها   بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى سمها   خلقا كما ضمن الوحي سلامها

وهي سبعة وثمانون بيتًا

والخامسة لعمرو بن كلثوم من الوافر ومطلعها

الا هبي بصحنك فاصبحينا   ولا تبقي خمور الاندرينا
مشعشعة كأن الحص فيها   اذا ما الماء خالطها سخينا

وهي مائة بيت وواحد

والسادسة لعنترة بن شداد من الكامل ومطلعها

هل غادر الشعراء من متردمِ   ام هل عرفت الدار بعد توهمِ
يا دار عبلة بالجواء تكلمي   وعمي صباحًا دار عبلة واسلمي

وهي خمسة وسبعون بيتًا

والسابعة للحارث بن حلزة اليشكري من الخفيف ومطلعها

أذنتنا ببينها اسماء ... رب ثاوٍ يمل منه الثواء
بعد عهد لنا ببرقة شمآ ... ء فادنى ديارها الخلصاء

وهي ثمانون بيتًا

وكان سبب انشاء امرئ القيس لقصيدته هذه أنه كان يعشق عنيزة ابنة شرحبيل وكان لا يحظى بلقائها ووصالها فانتظر ظعن الحي وتخلف عن الرجال حتى اذا ظعنت النسآ فسبقهنَ الى الغدير المسمى دارة جلجل واستخفى هناك اذ علم انهن اذا وردنَ هذا الماء اغتسلن فيه فلما وردت عنيزة والعذارى اللواتي كنّ معها ونضونَ ثيابهن وشرعن في الماء ظهر امرؤ القيس وجمع ثيابهنّ وجلس عليها فلما رأينه اكبرنَ هذا الامر وشق ذلك عليهن وناشدنَه ان يخلي سبيلهن فحلف ان لا يدفع اليهنّ ثيابهن الا بعد ان يخرجن اليه عواري فخاصمنه زمنًا طويلاً من النهار فأبى الا ابرار قسمه فخرجت اليه اوقحهنّ فرمى بثيابها اليها ثم تتابعن حتى بقيت عنيزة واقسمت عليه فقال لها يا ابنة الكرام لا بد لك من ان تفعلي مثل ما فعلن فخرجت اليه فرآها مقبلة ومدبرة فلما لبسنَ ثيابهنّ اخذن في عذلِهِ وقلنَ له قد جوعتنا واخرتنا عن الحيّ فقال لهنّ لو عقرت راحلتي لكنّ أتاكلنَ فقلن نعم فعقر راحلته ونحرها وجمعت الاماء الحطب وجعلنَ يشوينَ اللحم ويأكلنَ الى ان شبعنَ وكان معه ركوة خمر فسقاهن منها فلما ارتحلن اقتسمن امتعته فبقي هو فقال لعنيزة يا ابنة الكرام لا بد لك

من ان تحمليني والحت عليها صواحبها ان تحمله على مقدم هودجها فحملته فجعل يدخل رأسه في الهودج ويقبلها وهو يشبر الى ذلك كله في قصيدته ومع علو منزلة امرئ القيس في البلاغة وشهادة الاولين والاخرين له بذلك فهو قائد الشعرآ الى النار يوم القيامة لان اىا مرة اغراه على قبائح صارت سنة عنه وصار قدوة فيها وان كان من اهل الفترة وقد قال الله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً فتعذيبه من بين اهل الفترة لحكَم يعلمها الباري سبحانــه

واستمر الشيخ يتحفهم بمجه الى ان جاء الوقت المقدر للقيام وكاد من كثرة ما القى عليهم ان يخرج عن المقام وقد بهرت عقولهم جلالته وملأت قلوبهم مهابته لرقة تعبيره ودقة تقريره واتساع فهمه وغزارة علمه فلما ختم الدرس وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم قام اليه صاحبه الانكليزي ورئيس الجمعية ونائبه ووضعوا ايديهم في يديه ومشوا ومعظم اهل المجلس حافون بهِ الى ان وصلوا محلاً قد اعد الاستراحة فخصوا الشيخ بصدر المجلس وكان قد بقي في نفس بعض الطلبة بعض مسائل هاب ان يسأل عنها في اثناء الدرس فلما شربوا القهوة قال قد ذكرت لنا ايها الاستاذ ان العرب كانوا في ابتداء امرهم لا يلتفت الى نظمهم ونثرهم الا بعد شهادة قريش لهم فمن قريش وما قدر ما حازوه من فنون الادب حتى اذعن لهم جميع العرب

فقال الشيخ قد سألت عمن علا صيتهم وشاع وانتشر فخرهم في البقاع خلاصة ولد قحطان وصفوة سلالة عدنان ومن بلسانهم نزل القران قوم كانت البلاغة شعارهم والفصاحة دثارهم حازوا الفضائل تفصيلاً وجملا واحتسبوها نهلا وعللا قوم قد تباعدوا عن عنعنة تميم وتلتلة بهراء وكشكشة ربيعة وكسكسة بكر وطمطمانية حمير وغمغمة قضاعة فقال ما ذاك ايها الحبر لقد زدتني تشوقًا لبيانك وتطلعا لتبيانك

فقال اما عنعنة تميم فانهم يبدلون من الهمزة عينًا ومنه قوله

اعن توسمت من خرقاء منزلة

مـاء الصبابة من عينيك مسجومُ

يريد أئن توسمت

واما كشكشة ربيعة فانهم يبدلون كاف المخاطبة شينًا فيقولون ما بش وما لش يريدون ما بك وما لك ومن ذلك قوله

فعيناش عيناها وجيدش جيدها

ولكن عظمْ الساق منش دقيقُ

ومنهم من يقلب الباء ميما والميم باء اذا كانا في اول الاسم فيقولون في نحو بكر وبحر وبدر مكر ومحر ومدر وفي نحو مسجد ومعبد بسجد وبعبد ومن ذلك ما يحكى عن ابي عثمان المازني وكان يتكلم بتلك اللغة قال دخلت على الواثق فقال لي ممن الرجل فقلت من مازن فقال من ابي الموازن مازن تميم ام قيس ام ربيعة

فقلت له من مازن ربيعة فكلمني بلغة قومي وقال لي بسمك وكان اسم الشيخ بكر قال فكرهت ان اجيبه بلغة قومي كراهة ان اواجهه بالمكر فقلت له بكر يا امير المؤمنين ففطن لما قصدته وكان من الفطنة بمكان ومن فطنته ما حكي انه كان بحضرته جارية تغنيه قول القائل

أظلوم ان مصابكم رجلا   اهدى السلام تحية ظلمُ

فاختلف من بالحضرة في رجل فمنهم من نصبه على انه اسم انَّ ومنهم من رفعه على انه خبرها والجارية مصرة على ان شيخها ابا عثمان المازني لقنها اياه بالنصب فسأله عنه فقال الوجه النصب فقال ولمَ ذلك فقال لان مصابكم مصدر بمعنى اصابتكم فعارضه بعض من بالمجلس فقال له المازني هو بمنزلة قولك ان ضربك زيداً ظلم فرجلا مفعول مصابكم والدليل عليه ان الكلام معلق الى ان تقول ظلم فيتم الكلام فاستحسن الواثق الجواب وامر للمازني بالف دينار واما كسكسة بكر فانهم يزيدون على كاف المؤنثة سينًا عند الوقف ليبينوا حركة الكاف فيقولون للمرأة مررت بكس واكرمتكس

واما غمغمة قضاعة فصوت لا يفهم تقطيع حروفه

واما طمطمانية حمير فهي ما في لغتهم من الكلمات المستنكرة فمنهم من يجعل اداة التعريف ام بابدال اللام ميما فيقولون طاب ام شراب يريدون طاب الشراب ومنه ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله سائل وكان حميريًا امن امبرّامصيام في ام

سفر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم وكان يكلم كل قوم بلغتهم ليس من امبرّ امصيام في امسفر واما تلتلة بهرآء فانهم يكسرون حرف المضارعة فيقولون انت تعلم بكسر التاء ونحن نعلم بكسر النون وهو يعلم بكسر الياء

ثم قام في المجلس سائل فقال للشيخ ولمَ سميت قريش قريشاً فقال له لان القرش في اللغة يطلق على دابة من دواب البحر تغلب ولا تُغلب فسمي احد اجدادهم قريشاً تشبيهاً بتلك الدابة وكل من كان ينتهي نسبه اليه يسمى قرشياً

وقد اختلف المورخون في ذلك الجد الذي لقب بقريش فقيل هو فهر بن مالك بن النضر وقيل هو النضر بن كنانة كما قال صاحب السيرة

اما قريش فالاصح فهرُ جماعها والاكثرون النضرُ

فقال السائل وحيث كان هذا الجد عظيما فلمَ صغر اسمه فقال الشيخ تصغيره ليس للتحقير بل للتعظيم على حد قول القائل

ما قلت حبيبيّ من التحقيرِ

بل يعظم اسم الشيء بالتصغيرِ

فقال السائل وهل ورد عن العرب التصغير لغير التحقير قال نعم من سنن العرب تصغير الشيء اما لتحقيره كقولهم في رجل رجيل وفي دار دويرة واما لتكبيره وتهويله كقول لبيد

وكل اناس سوف تدخل بينهم

دويهية تصفر منهـــا الاناملُ

واما لتنقيصه كما يقال لم يبقَ من بيت المال الا دُنَيْنيرات واما لتقريبه كـقول امرئ القيس يصف فرسه بطول الذيل

وانت اذا استدبرته سدّ فرجه

بضافٍ فويق الارض ليس باعزلِ

اي بذيل طويل فضاف صفة لموصوف محذوف وكقولك أزورك بُعيد العيد وجاءني فلان قبيل الظهر لان التصغير في الظروف بمعنى التقريب

واما لاكرامه والشفقة عليه كقولك يابنيّ ويا اخيّ وكقول لقمان لابنه وهو يعظه يابنيّ لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم

واما لتشريفه وتعظيمه كما هنا وكفى اولئك القوم شرفًا على سائر الانام قول نبينا عليه الصلاة والسلام ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفاني من قريش فانا خيار من خيار من خيار فقال لهُ كيف يحفظ نسبهم الى اسماعيل وقد مضى لهُ من الزمن اجيال فقال لهُ ان العرب عمومًا من عادتهم المحافظة على انسابهم فكيف نسب من كان منهم سيد العالمين وصفوة الله من الخلق اجمعين فهو محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤيّ بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة

بن خزيمة بن مدركة بن الياس ابن مضر بن نذار بن معد بن عدنان بن اُدّ بن ادد بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حم بن قيذار ابن اساعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام لكن النسب الصحيح تفصيلاً ينتهي الى عدنان وهو الجد المتم عشرين وما زاد على ذلك الى اساعيل فلم يرد فيه حديث صحيح وقد جمع بعضهم اباءه صلى الله عليه وسلم في بيتين من الشعر على طريق الرمز الى كل اب باول حرف من حروف كلماتها وهما

علقت شفيعاً هال عقلي قرانهُ

كتاب مبين كسب لبي غرائبه

فدى معشر نفسي كرام خبيرة　　مدا الفهم مذ نيل مجد عواقبه

فالعين في علقت اشارة الى ابيه عبدالله والشين في شفيعاً اشارة الى جده شيبة الحمد وهو عبد المطلب والهاء في هال اشارة لهاشم وهكذا

وكان من عادة الشيخ اذا فتح لهُ باب في الكلام يطنب فيه ولا يخرج منه حتى يستوفيه فلذلك قال وكان اسماعيل حين اسكنه ابرهيم بمكة كما هو مذكور في القرآن وجد بها قبائل من جرهم بن قحطان وهم العرب العاربة فلما كبر اساعيل تزوج منهم امرأة فولد له منها اثنى عشر ولدًا ذكرًا فقيل لهم ولذريتهم العرب المستعربة وانما قيل لهم ذلك لان لغة اساعيل كانت عبرانية فلما تزوج من جرهم تكلم بالعربية فمعنى المستعربة اي المكتسبة للعربية

بخلاف العاربة فمعناه المتأصلة في العربية وكان قبل جرهم بن قحطان عرب يقال لهم طسم وجديس وكانت مساكنهم باليمامة من جزيرة العرب ولكنهم انقرضوا عن اخرهم ولم يبق لهم اثر ولم ينقل عنهم بعد ذلك خبر وذلك ان الملك كان في طسم فاستمروا على ذلك مدة من الزمن حتى انتقل الملك الى رجل منهم غشوم ظلوم جعل سنته ان لا تزف عروس بكر من جديس الى بعلها حتى يدخل هو عليها فأنفت جديس من ذلك ودبروا في قتله ودفنوا سيوفهم في الرمل وعملوا له ولخواصه طعاماً دعوه اليه فلما حضر في خواصه من طسم عمدت جديس الى سيوفهم فقتلوا الملك ومن لحقوه من خواصه فهرب رجل من طسم الى تبع ملك اليمن وشكا اليه ما فعلته جديس بملكهم واستنصر به فسار ملك اليمن الى جديس واوقع بهم حتى افناهم عن اخرهم فلم يبقَ لطسم ولا لجديس بعد ذلك ذكر فلذلك سميت العرب البائدة ولذلك جعل المؤرخون العرب ثلاثة اقسام بائدة وعاربة ومستعربة فالبائدة هم العرب الاول الذين ذهبت عنا تفاصيل اخبارهم لتقادم عهدهم وهم عاد وثمود وجرهم الاولى وكانت على عهد عاد

فلما اطنب الشيخ في وصف العرب ونسبتهم وتفضيل عنصرهم ولغتهم قال له بعضهم ايها الاستاذ قد اجمع اهل الملل واصحاب النحل من المتاخرين والمتقدمين على ان القران عربي مع اننا نجد

فيه الفاظا منها ما هو فارسي وما هو سرياني وما هو عبراني وما هو باللغة الحبشية وما هو بالعجمية كالارائك في قوله تعالى على الارائك ينظرون فانها حبشية ومعناها السرر وكالجبت فانه اسم للشيطان او الساحر وهي حبشية ايضًا ومعناها بها كذلك وكالدري فان معناه المضيء وهي حبشية ايضا ومعناها بها كذلك وكالاباريق فانها فارسية ومعناها طريق الماء او صبه على هينة ونحو سرادق فانها سريانية ايضا واصلها سرادر ومعناها الدهليز او سرا برده ومعناها ستر الدار ونحو حصب في قوله تعالى للكفار انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم فانها زنجية ومعناها حطب ونحو سري في قوله تعالى لمريم قد جعل ربك تحتك سريا فانها زنجية ومعناها النهر ونحو غساق فانها تركية بل طارية ومعناها البارد المنتن ونحو الفوم فانها عبرية ومعناها الحنطة ونحو القسطاس فانها رومية ومعناها الميزان او العدل ونحو اليم في قوله تعالى لام موسى فاذا خفت عليه فالقيه في اليم فانه سرياني ومعناه البحر وهكذا فما من لغة الا ونجد منها في القرآن الفاظًا

فقال الشيخ لا يخفى ان لغة العرب متسعة جدا حتى قال بعض ائمتنا انه لا يحيط بها الا نبي ومع ذلك فلا مانع من وجود بعض كلمات في القرآن بغير لغة العرب وقد ورد في الخبر الصحيح ان في القران من كل لسان على انها الفاظ محصورة يمكن عدها وهذا لا يخرج القران عن كونه عربيًا فان وجود كلمات

يسيرة غير عربية في خلال كلام عربي لا يخرجه عن كونه عربياً ألا ترى ان القصيدة او الرسالة الفارسية مثلاً لا تخرج عن كونها فارسية بوجود لفظ او بعض الفاظ فيها غير فارسية ولعل حكمة وقوع مثل هذه الكلمات في القران وان كان كل كتاب انما نزل بلغة القوم الذين انزل عليهم انه حوى علوم الاولين والاخرين ونبأ كل شيء ومن لازم ذلك ان يكون فيه الاشارة الى انواع اللغات والالسنة لتتم احاطته بكل شيء وايضا فان النبي صلى الله عليه وسلم مرسل الى سائر الامم فلا بد ان يكون في كتابه طرف من لغة كل قوم وان كان اصله بلغة قومه فاختير له من كل لغة اعذبها واخفها واكثرها استعمالاً للعرب وبعد ذلك كله فلا مانع من كون هذه الكلمات كانت في الاصل غير عربية ثم وقعت للعرب قبل نزول القرآن فعربتها بالسنتها وحولتها عن الفاظها الاصلية الى لغتها فصارت عربية ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الكلمات بكلامهم فما نزل القران الا بلغتهم فقال السائل قد وقع في كلامك ذكر الشعار والدثار والعلل والنهل فما معنى ذلك فقال الشيخ الشعار هو الثوب الذي يلي جسد الانسان لانه ملاصق لشعره والدثار الثوب الذي لا يلي الجسد بل يلبس فوق الشعار والنهل الشرب الاول للابل والعلل الشرب الثاني لان الابل تشرب مرتين في العرضة الواحدة الاولى نهل والثانية علل وهذه الالفاظ من جملة الفاظ

مزدوجة من كلام العرب منها الهياط والمياط والعطيط والاطيط والحي واللي والملتخ والماتخ والسانح والبارح ومنها شذر ومذر والشاطح والباطح والصادح والصائح وشاع وذاع وعزوبز والعجر والبجر والطارف والتليد والصادر والوارد والهمزة واللمزة والقصم والفصم والخضم والقضم والثامور والجامور وكظ وبظ والعامر والغامر والهدير والهرير والفرح والمرح وحيص وبيص والعج والثج الى غير ذلك فعجب السائل من كمال استحضار الشيخ وقال لولا خوفي من ملالك لسألت عن كل ما يخطر ببالي مما سبقت الاشارة اليه فقال الشيخ اني لا امل من ذلك بل هو عين البغية فقال قد عبرت عن ابليس اللعين فيما مضى بأبي مرة فهل له ابن يسمى مرة فقال الشيخ هذه كنيته ولا يلزم ان يكون له ولد يسمى بذلك بل يحتمل ويحتمل لان العرب عندهم في الاعلام اسم ولقب وكنية فالاسم ما وضع على الشيء اولاً واللقب ما اشعر بمدح كزين العابدين او ذم كانق الناقة والكنية ما صدرت بأب او ام كابي الفضل وام الخير ولو لم يكن للمسمى ولد يسمى الفضل او الخير وهذا القسم وهو الكنية كثير في كلام العرب حتى لغير الادميين وكما يكنى الشيطان بابي مرة يكنى ايضاً بابي كردوس وان شئت سردت لك جملة من كنى الحيوانات فقال السائل اني اريد ذلك

فقال الشيخ ان كنية الاسد ابو الحارث وابو فراس وابو

حفص وابو الابطال وابو الزعفران وابو العباس وابو شبل وكنية الافعوان ابو حيان وابو يحيي وكنية ابن آوي ابو دئب وابو كعب وابو وائل وكنية البرذون ابو الاخطل وكنية البرغوث ابو طامر وابو الوثاب وابو عدي وكنية البغل ابو الاشج وابو الحرون وابو الصقر وابو كعب وابو قموص وابو مختار وابو ملعون وكنية البومة ام خراب وام الصبيان وكنية التنين ابو مرداس وكنية الثعلب ابو الحصين وابو النجم وابو نوفل وكنية الثور ابو عجل وكنية الجرادة ام عوف وكنية الحداة ابو الخطاف وكنية الحرباء ابو قادم وابو الزنديق وكنية الحرام ابو صابر وابو زياد وكنية الخنزير ابو زرعة وابو عتبة وكنية الخنفسا ام الاسود وام مخرج وام الفسو وكنية الدب ابو جهينة وكنية الدجاجة ام الوليد وام احدى وعشرين وكنية الديك ابو حسان وابو اليقظان وكنية الذباب ابو جعفر وكنية الذئب ابو جعدة وابو حدقة وابو كاسب وكنية الرخمة ام قيس وام جعران وكنية الزرافة ام عيسي وكنية السرطان ابو بحر وكنية السنور ابو خداش وكنية الصقر ابو منهال وابو شجاع وكنية الظبي ابو الخشف وكنية الضبع ابو عامر وكنية الضفدع ابو المسيح وكنية الطاووس ابو الحسن وكنية النعام ابو البيض وكنية العصفور ابو محرز وابو يعقوب وكنية العقاب ابو الحجاج وكنية العقرب ام عريط وام ساهر وكنية العنكبوت ابو خيثمة وابو قشعم وكنية ابن عرس ابو الوثاب وكنية

الغراب ابو حاتم وابو الجراح وكنية الفار ابو خراب وكنية الفرس ابو مضاء وابو مدرك وكنية الفيل ابو الحجاج وابو كلثوم وكنية القرد ابو خالد وابو حبيب وكنية القطا ام ثلاث وكنية القمري ابو ذكري وكمية القنفد ابو سفيان وابو الشوك وكنة الكركي ابو عريان وابو نعيم وكنية النسر ابو الاصبع وكنية الناقة ام مسعود وام حوار وكنية النعجة ام الاموال وام فروة وكنية النمر ابو الاسود وابو جهل وكنية النمل ابو مشغول وكنية الهدهد ابو الاخيار الى غير ذلك وقد يكون للواحد كنى كثيرة

فقال الحاضرون ايدك الله ايها الشيخ قد انعشت ارواحنا وازلت اتراحنا وجلبت افراحنا ثم قام الشيخ وقاموا ليودعوه فكان من جملتهم الطلياني الذي كان اجتمع به في مرسيليا فقال للشيخ اريد ان تشرفني غدًا انت وصاحبك الانكليزي ومن تحب فقال لهُ الشيخ يكون ذلك ان شاء الله ثم مضى مع الانكليزي الى المنزل وكان الشيخ لم يصلِّ الفرض الذي عليه فلما انصرف الانكليزي الى النوم قام الشيخ فتوضأ وصلى ثم التفت الى ولده وقال كيف كان الدرس فقال ما رأيتك في جلالة مثل ما رايتك في هذا اليوم ولقد كان قلبي في هذا الامر يخفق ولساني من هيبة المجلس يكاد ان لا ينطق الى ان افتتح الدرس فانجلى ما لي وذهب اضطرابي فكانت كل كلمة نطقت بها تسري في بدني كسريان الماء او الدواء اذا وافق الداء ولقد رأيتك تارة تتأنق في الكلام

وتطنب في توضيح المرام وتميط عن مخدرات المسائل الحجاب وتكشف عن وجوه مشكلاتها النقاب ولعمري لقد سررت في هذا اليوم اكثر من فرح الاطفال بعيد الصوم سيما وقد رأيت اهل الجمع كلهم يثنون وبفضلك يعترفون فما اجدلك مثلا الا كما قال القائل

غموض الشيء حين تذب عنه ... تقلل ناصر الخصم المحقق
تضيق عقول مستمعيه عنه ... فيقضي للمجل على المدقق

فضمه والده اليه وقبله بين عينيه وانشد

ما ابيض وجه المرء في طلب العلا ... حتى تسوّد وجهه في المبداه

ثم قال وانا اخبرك بما حصل لي وهو اني كنت قبل قدومي عليهم احسب مجلسهم لا يعتريني منه ادنى خجل ولا يمر بفكري منه وجل فلما قدمت اليهم واجلسوني على الكرسي مرتفعًا اعتراني بعض فتور وخشيت أن يفرط مني بعض هفوات فيتوهموا في القصور فلما استعذت با لله واستعنت به وفقني للصواب واتسع لي ميدان الخطاب وقد استغربت مهابتي لهذا المحضر مع اني كثيرًا ما قرأت دروسًا في جمع اعظم من هذا بالازهر وقد تم المجلس بفضل ذي الجلال والحمد لله على كل حال واريد الان ان اريح بدني لان الخواجا في انتظاري لنخرج الليلة للنزهة فان كان لك غرض في الخروج معنا فقم ادِّ فرضك وارح بدنك

المسامرة الثامنة والتسعون

الدركة في الحركة

فخرج ابن الشيخ من عند ابيه وأدى ما وجب عليه ثم ذهب الى يعقوب في غرفته فالح عليه يعقوب ان يدخل فأبى وقال انما جئت لاخبرك بان والدي عازم على الخروج هذه الليلة مع الخواجا للنزهة وقد اذن لي في الخروج معه وان حضرة الخواجا في انتظاره فهل انت ذاهب معه فقال يعقوب ذلك غاية رغبتي لولا العذر

وكان ابن الشيخ حريصاً على صحبة يعقوب لما كان ليعقوب من العلم بالامور لكثرة تغربه واسفاره فكان دائماً يستفيد منه معلومات تحسن بها آدابه وكان كل منهما يأنس بالاخر فلذا قال ابن الشيخ ان لم تكن معنا فلست بتوجه معهم

فقال يعقوب لا يليق بك ذلك واظن انهم عازمون على

التوجه الى التياترفتوجه انت معهم لتنظر ما هناك وفي غد نستأذن ونتوجه نحو العين التي كنا بها سابقًا واتم لك هناك ما كنا شرعنا فيه ثم سمع نداء والده عليه فذهب اليه فوجده متهيئًا للخروج فمشى خلفه فوجد الخواجا في انتظارهما والعربة حاضرة مهيأة للركوب فقال الشيخ اظن ان المشي انفع لنا واكثر فائدة لما فيه من التمكن من الاطلاع على كل ما نمر به فنستفيد منه علمًا فقال الانكليزي هذا صواب ولكني اخشى عليك التعب وما اريد ان اشق عليك

فقال الشيخ جزاك الله عني خيرًا فان لكبر السن حكمًا وللعادة احكامًا وقد صدق القائل لكل امرء من دهره ما تعود فاني كنت وانا صغير في بلدي كثير الحركة والتنقل فكنت صحيح الجسم سليم البنية قوي الحواس لا يقاومني في النشاط وخفة الحركة احد من اترابي فلما جاورت بالازهر رأيت حركاتهم قليلة بسبب طول الجلوس في المطالعة وليس عندهم وقت للفسحة فلاجل تحصيل العلم سلكت مسلكهم ولازمت السكون مع علمي بان هذه عادة سيئة بالنسبة للصحة خصوصا مع برودة البلاط وعدم الحائل الكثيف الذي يمنع برده عنهم ولقد صدق المثل من عاشر القوم اربعين يوما صار منهم فكنت اخرج من منزلي اول النهار الى الازهر فلا اعود اليه ولا اخرج من الجامع الاّ ليلاً بل لا اتحوّل من مكاني الاّ لأزالة ضرورة او اداء عبادة وكذلك في الليل

اجلس مجلساً واحداً للمطالعة حتى ينتصف الليل فانام مكاني وصار هذا ديدني مدة اقامتي بالازهر فتولدت لي بذلك الامراض وتسلطت على جسمي الاسقام حتى آل بي الامر الى ان كنت اصلي بعض الصلوات من جلوس لانه قد اعتراني تقاعد يشبه العجز فان الجلوس يحبس الدم عن الجريان في العروق والاعصاب ولقد صدق المثل ان في الحركة بركة ولما قدر الله لي السياحة واجتمعت بحضرتكم داخلني النشاط ودبّت الصحة في جسمي بسبب كثرة الحركة والانتقال وازدادت قوتي مع كبر سني فانا اليوم اكره عدم الحركة حتى اذا كنت منفرداً في غرفتي ارأني احب القيام والمشي فاقوم لانظر من الشبابيك واطلع على الاحوال فانا احمد الله واشكره كثيراً على الاجتماع بحضرتكم وقد ادركت للسياحة فوائد كثيرة جمة غير الحركة الداعية الى الصحة فمنها كثرة الاطلاع وتحصيل الفوائد الدنيوية والاخروية ولقد صدق من قال

لو كان في شرف المأوى بلوغ منىً

لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

ومنها زيادة البركة في العمر فان كثرة الاطلاع بمنزلة زيادة العمر وقلة الاطلاع بمنزلة قصر العمر كما قيل

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله

فاجسامهم قبل القبور قبور

وقد قالوا ان الماء الراكد عرضة للتغير فكرهوا الاغتسال فيه

بخلاف الماء الجاري فهو بعيد عن التغير ولا يكره استعماله بحال فهو اكثر نفعا ثم مشيا وابن الشيخ خلفهما واستمرا في الكلام على الحركة

فقال الخواجا لا شك ان الانتقال يبلغ الامال والقعود يفيت المقصود والتعوّد على الحركة مما يقوي البدن ويبرئ كثيرًا من الامراض ولذلك مدحها الحكماء وحث عليها الاطباء واما كثرة السكون فيتولد عنها الكسل وخيبة الامل وبرودة الدم وكثرة العلل ومما يدل على وجوب الحركة ان الخالق سبحانه وتعالى حكم بها على جميع الموجودات حتى على الشمس والقمر وسائر الكواكب التي في السماوات فان القمر يدور حول الارض والارض تدور حول الشمس وبالجملة فلا شيء من العالم بثابت مطلقًا فالكون وما حواه من حيوان ونبات وجماد وشموس واقمار وغيرها مما لا يعلم كنهه الاّ مكونه يتحرك بجملته فضلا عن حركة اجزائه صغيرًا وكبيرًا وما ذلك الا لحكمة بالغة اقتضتها ارادة مدبر الكون ومديره فالزلازل التي يظهر اثرها على الكرة الارضية تنبئ عن حركة عظمى في باطنها وسر بليغ اودع في جوفها وكذلك الحوادث الجوية كالعواصف والصواعق فانها تدل على ان السماوات دائمًا في حركة فليس الحكم بالحركة خاصا بالاجسام الحيوانية والنباتية بل هو شامل لها ولغيرها حتى الجبال والبحار وقد قيل ان جبال الجهة القطبية الشمالية تشققت في قديم الزمان

وتهددت وإنتقلت صخورها الى الجهات القطبية الجنوبية وبعد ان مزقت حرارة الجهات التي مرت بها طبقاتها الثلجية فمنها ما رسب في قاع البحر ومنها ما استقر في صحاري اسيا وإفريقا فكل من مر بها وتأمل هيأتها ونظر الى تركيبها علم انها ليست من جنس الارض التي هي بها بل انتقلت اليها من جهات بعيدة لحوادث عنيفة وإسباب قوية ولم تزل مثل هذه الامور تحصل الى الان فاحيانا ياخذ البحر صخوراً من جهة ويسير بها الى جهة اخرى وتارة ينضم بعضها الى بعض فتقف بالشواطئ فتكون سواحل وتارة تتراكم في جهة من قاع البحر فتكون جزائر فيكسوها مرور الدهر اتساعاً ويكسوها تداول الايام عمراناً وإرتفاعاً فسبحان القادر على كل شيء وهو الفعال لكل شيء وكما فعل سبحانه وتعالى فيما نراه فكذلك يفعل فيما لا نراه فمن ذلك ظهور الجبال في ارض لم يكن بها منها شيء وكذلك ما يظهر وسط البحار من الشعاب والجزائر والجبال التي لم تكن من قبل وما ذاك الاّ للحكم بالحركة التي دبر الله بها الاكوان ورزق بها الحيوان وإغرب من ذلك دقيق الرمل والحصى فان اصلها صخور ضخمة تكون على قمم الجبال الشاهقة عرضة لتأثير حوادث الجوّ من الحرارة والبرودة والامطار والثلوج والرياح فتتفتت وينقلها السيل وتنسفها الرياح فتارة تلقى في اغوار الارض فيرتفع بها ما كان منخفضا ويخصب ما كان مجدبا وتارة تلقى في البحر فتتراكم فيه وتعظم حتى تحوله عن

موضعه فانظر صنع الصانع كيف سلط على الجبال ما اثر فيها ففتتها رمالاً وحصىً ثم ارسل عليها ما قذف بها الى البحار حتى حولتها عن مواضعها فسبحان الحكيم العليم فمن تأمل في مجاري الانهر والخلجان ومصابها رأى ان كل ما يحدث فيها من الجزائر انما هو من الاجزاء الدقيقة التي جرت بجريانها ومن امعن النظر وتتبع كتب التاريخ والاثر وجد هذه الانهار قد تحولت عن مجاريها الاصلية حتى صارت مواضعها الاولى ارضًا ذات مزارع وبساتين ومساكن ونحو ذلك ومن ذلك اقاليم مصر البحرية فقد قالوا انها انما تكونت مما تخلف عن نهر النيل من الطمي كما ان ما يجلبه نهر الطونة والرين من تلك المواد الدقيقة كل عام يسد مصبها وكذلك نهر المسيسيبي بامريقا فانه لضعف جريانه لا يقوى على دفع ما فيه من الزبد والرمل فيحدث من ذلك في كل سنة ارض جديدة بخلاف نهر الكنج الذي هو احد انهار الهند فانه لقوة دفعه وسرعة جريانه لا يبقي في قراره شيئًا مما يأتي به بل يأخذه معه حتى يلقيه على شاطىء البحر الملح فمن مصادمة الصخور والشعوب ونحوها لما يقذفه على مدا الازمان تكوّنت عنه ارض تبلغ مائتي ميل وهناك اسباب اخرى لا ندركها تحدث احيانًا بظاهر الكرة الارضية فانا نجد في بعض الجهات ارضًا قد ارتفعت شيئًا فشيئًا واخرى قد انخفضت كذلك ولا نشعر بها ولا ندركها لطول الزمن الذي مرّ عليها فلو اطلعنا على حال الارض في الازمان السابقة وحالها

في الازمان اللاحقة لجزمنا بان الكرة الارضية وما فيها من اول خلقها الى الان دائمًا في حركة وتموّج كتموّج المياه فينخفض ما كان مرتفعًا ويرتفع ما كان منخفضا وقد استدلوا على ذلك بانحطاط ما بين مدينة صور وثغر اسكندرية عما كان عليه ايام الرومان وبارتفاع ارض الروسية الشمالية عما كانت عليه فانها كانت غامرة بالماء ثم انجلى عنها فظهرت وبني بها مدائن وقد وجد في ارضها بعد انحسار الماء عنها كثير من العاج متخلفا عن الحيوانات التي غشيتها تلك الحادثة حتى ابتلعتها الارض

وقد استفيد من التواريخ ان كثيرًا من المدن القديمة صارت الان ارضا قارة وان كثيراً من المدن صارت في قاع البحار فهذا ايضا مما يدل على ان كرة الارض دائمًا في حركة ومن ذلك تأثير الشمس في البحر فيرتفع منه بخار فينعقد سحابا ثم يسير الى الجهة التي يسوقه الله اليها فيسقط على الارض اما مائعــا او متجمدًا ثم يماع لتاخذ منه ما يكفيها ويكفي ساكنيها جميع السنة ومن ذلك الرياح فانها هي التي تسير السحاب من جهة الى جهة على مقتضى ارادته سبحانه وتعالى وان كنا لا نعلم من اين تأتي ولا الى اين تذهب وبالجملة فلم يخلق الله شيئًا الاّ وفيه سرّ ولهُ حركة اما على انفراده واما بامتزاجه مع غيره ولو اراد العارف استقصاء الكلام على ادنى شيء من المخلوقات لاستغرق فيهِ العمر ولافضى بهِ الحال الى تفويض العلم بالحقيقة الى من لهُ الخلق والامر

فقال الشيخ وقع لي كتاب قد مسحته يد الزمان والحقته في النسخ بخبر كان فتصفحته فوجدت فيه ما يقرب من ذلك وهو ان الله تعالى لما خلق الكون بقدرته ودبره بحكمته جعل الافلاك العلوية والكواكب السماوية بمنزلة الآباء وجعل الاركان الاربعة وهي التراب والماء والنار والهواء بمنزلة الامهات فاقتضت حكمته تعالى انه اذا تصلت اشعة الكواكب التي هي بمنزلة الآباء بالاركان الاربعة التي هي بمنزلة الامهات حدثت المواليد الثلاثة التي هي المعدن والحيوان والنبات فما وجدت المواليد الثلاثة الا بحركة اتصال الاباء بالامهات وهذه الاركان الاربعة وان كانت كالامهات بالنسبة للمواليد الثلاثة الا انها متولدة عن غيرها ايضا لانهم يقولون ان الحرارة اتصلت باليبوسة فانتجنا ركن النار ثم اتصلت بالرطوبة فانتجنا ركن الهواء ثم اتصلت البرودة بالرطوبة فانتجنا ركن الماء ثم اتصلت باليبوسة فانتجنا ركن التراب فحصل في الابناء حقائق الآباء والامهات فكانت النار حارة يابسة فحرارتها من جهة الاب ويبوستها من جهة الام وهكذا فانظر كيف جعل المولى كل صفة من صفات الاشياء مكتسبة وراجعة الى اصلها

وفي اثناء ذلك الكلام وصلوا الى باب بستان يسمى لوكسانبور وهو من الاماكن المشهورة المعدة للنزهة فدخلوه فوجدوا به خلقا كثيرًا على عادتهم في اوقات نزهتهم فطافوا فيه برهه وتخيروا للجلوس ناحية منه قد راق منظرها وخضرتها وحلت في اعينهم نضرتها

اغصانها دانية وعينهـــا هامية فمالوا الى ذلك الموضع فكانوا بحيث يرون كل من يمر عليه فعجب الشيخ من كثرة المارين واختلاف هيآتهم

فقال الانكليزي لو تاملنا في هؤلاء الخلق واختلاف السنتهم واجناسهم والوانهم وسالنا كل واحد منهم على حدته عن قطره وبلدتهِ واصل منشئه ومنبته لوجدنا فيهم من جميع الجهات من هندي وصيني وتركي وشامي وغير ذلك وها هو حضرتكم مصري والحقير انكليزي قد فارقنا الاوطان وجمعنا هذا المكان فلولا الحركة في طلب المعاش ما خرج احد عن بلده ولو عاش الى ان يرى ولد ولد ولده وليست هذه الحركة خاصة بنوع الانسان بل كذلك انواع النبات والحيوان فانها تنتقل من جهة الى جهة ومن قطر الى قطر انما النبات لا ينتقل حالة كونه نباتاً بل بذره هو الذي ينتقل فقد يأخذ الريح بذرا من ارض فيلقيه في ارض غير ارضه وقد يكون البذر في اجواف الحيوانات وحواصل الطير فاءذا انتقلت من ارض الى اخرى القته فيها فينبت ولعل هذا معنى ما قيل ان ربع ما على الكرة الارضية من النبات لبذره اجنحة او شبه الاجنحة فيطير بمعونة الهوآ حتى اذا سكن وقع فينبت حيثما استقر ومن اسباب انتقال الحبوب والنباتات ايضاً السيل والخلجان والبحار فكثيرا ما يأخذ البحر المحيط من جزائره انواعا من الفاكهة والنول واغصان الشجر ويسير بها حتي يلقيها في مواضع غير

مواضعها فتنبت فلذلك نجد في بعض الاحيان نبات ارض قد ظهر فجأة بارض اخرى لم يعهد بها من قبل

وتواريخ الامم والاثار القديمة منبئة بان النبات يتبع في حركته حركة الشمس في مدارها من المشرق الى المغرب فجميع ما نراه في ارضنا هذه كان اصله في جهة الشرق ثم انتقل منها الينا وكذلك جميع ما بالاخرى فمن ذلك شجر البن والشاي وقصب السكر والموز والقطن والكتان والنيل والفول والقثاء جميعها اصل منبتها ببلاد المشرق ثم انتقلت غير ان الاثنين الاخيرين لم يدخلا بلاد اليونان الا بعد ايام اسكندر المقدوني وقد خلق الله سبحانه وتعالى شجر الخبز وجوز الهند وشجر التمر وجعل فيها خاصة الاقتيات وقيام منبت الانسان وتعيشه لكن لما اقتضت ارادته انها لاتثمر الا في جهات خاصة جعل لحكمته الباهرة وقدرته البالغة نباتات اخرى تثمر في كل ارض ولا تختص بجهة دون جهة وذلك كالحنطة والشعير والقطاني ونحوها فان انواع النبات عموماً تبلغ نحو اربعة الاف نوع منها عشرون نوعا صالحة للغذا وصالحة لان تزرع في كل ارض فتكون في الارض المحترقة بحرارة الشمس كما تكون في الارض المغطاة بطبقات الثلج

فقال الشيخ اظن ان اول ظهور جميع الاقوات بل ما على وجه الارض من الحيوان والنبات كان بالهند ثم انتشرت منه الى سائر الجهات لما روي من ان ادم لما اكل من الشجرة التي نهي عن

قربانهـا واهبط الى الارض كان نزوله بتلك الجهة فعلم صنعة الحديد وامر بالحرث فحرث وسقى وحصد ودرس وذرى وطحن وعجن وخبز واكـل فلما حضرته الوفاة احاطت بهِ الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم فقال لها ادم خلي ملائكة ربي فانه ما اصابني ما اصابني الا من قبلك فلما توفي غسلته الملائكة وحنطته وكفنته في وتر من الثياب وحفروا له ولحدوا ودفنوه بسرنديب بارض الهند وقالوا لبنيه هذه سنتكم من بعده فهذا الاثر يدل على ان اصل الاقوات بل والمعادن والحيوان كان موجوداً قبل نزول ادم في هذا المكان ثم ما زال ينتشر من مكان الى مكان الى ان اتى الطوفان وقسم نوح الارض بين اولاده فاخذ كل واحد منهم من ذلك ماتيسر وذهب به الى بلاده

فقال الانكليزي هذا كلام معقول ولذلك يقول اهل الهند ان مقدسهم ابراهمة نزل من السماء وعلمهم صنعة الزراعة واستعمال الحيوان فيها والمصريون ينسبون ذلك الى ايزيس واليونان ينسبونه الى سيرابيس ووافقهم على ذلك سكان البيرو من امريقا في الذرة خاصة ولذلك يزرعونها عندهم حول معبد الشمس في الارض المقدسة وهي ارض مرتفعة عن سطح البحر اثنى عشر الف قدم

والمستفاد من كتب التاريخ ان استنبات نباتات الغذاء ما وصل الى المغرب الاَّ من جهة المشرق وان اول ظهورها كان باسيا وانا وان كنا نجزم بان بعض النبات نزل من الجنة لكنا لا

ندري متى نزل ولا في أي بقعة نزل

ويقال ان الامة الشركسية من بين جميع الامم هي التي وسعت دائرة انتشار انواع الزراعة وان ما باوروبا من النباتات منقول اليها فنحو الخوخ والبرقوق والبندق اصله من بلاد العجم ونحو البرتقان من بلاد الصين ونحو البطاطس والذرة من الامريقا وينسب ايضا اليهم زرع الارز والقطن في ساحل البحر المتوسط

ثم صاروا كل ما نجح بارضهم شيئ زرعوه فيما استولوا عليه من الاقطار ولذلك لا تجد في اوروبا شيأ من الحبوب والفواكه الا وفي امريقا نظيره وهم الذين غرسوا شجر الكرم بجزيرتي مدير وكناريا وسائر البلاد القبلية من افريقا وامريكا وكذلك القطن والارز بجهات بربزيليا والايتازوني (الولايات المتحدة) وجوز الطيب والقرنفل بجزيرة موريس وجزيرة بوربون وجزائر الهند وكذا الشاي ببريزيليا والهند وجاوى وساعدتهم العرب في نقل شجر البن وقصب السكر والنخل والقطن من بلاد الهند الى بلادهم ولم ينقل ذلك الى الديار المصرية الا فيما بعد واما الصينيون فاخذوا زرع القطن من بلاد الهند ستان كما تعلم اهل يابونيا زرع الشاي من الصينيين واما البرّ والشعير فوجودها باوروبا قديم

وفي كلام بعض قدماء المؤرخين والشعرآ ما يدل على ذلك

وقال بعضهم ان اصلها من الهند وان الذي نقلها الى افريقا اهل الاندلس

واما البر الاسود باوروبا فحادث فيها ويقال انه منقول اليها من افريقا وان نقله الى جرمانية كان في القرن السابع من الميلاد على يد الملك شارلماين وقد كثر بها الان حتى صار كافيا لاقتيات ثلث الاهالي

واما الارز فهو وان كان حادثًا في اوروبا فالعرب هم الذين زرعوه في الجهات الجنوبية منها وكان قديمًا في بلاد المشرق وكان اغلب القوت منه ولم يزرعه الامريقانيون الا في القرن السابع عشر من الميلاد وقد كثر الان زرعه عندهم حتى صار يرسل منه الى الجهات والامريقيون يقولون ان اصل ظهور الذرة كان بارضهم ولكن لم يظهر لصحة ذلك دليل بل الظاهر ان اصلها من المشرق بدليل تسمية الاوروباويين لها بقمح الترك وتسمية اليونان لها بقمح العرب وقد شوهد من النبات مثل الشوك ونحوه كثير نابتًا في خلال النبات النافع في الارض التي نقل اليها نبات الحنطة ونحوها وذلك يدل على ان جميع ما هو في بلادنا من هذا النوع قد ورد اليها مع الحنطة وغيرها وقد يعلق حب بعض تلك النباتات بالانسان في ثوبه او متاعه فيسافر ولا يشعر به فينبت حول مسكنه او مبيته

ومن الغريب ما قالوه ان كل نوع من النبات له ارتباط

وأئتلاف بنوع من الانسان بحيث لو وجد نوع منه في بقعة لاستدل العارف بذلك على من كان ساكنا بها مشرقيا كان او مغربيا وانه باختبار النبات وتفقد احواله وتنقلاته يمكن معرفة تنقلات الامم فان من النبات ما يتبع العبيد ومنها ما يتبع عرب البادية والهنود ونحو ذلك ومن النبات ما ينتشر بنفسه حتى يملأ الارض التي انتقل اليها ويعطل ما كان قبله من النبات الطبيعي وغيره وذلك كالخرفوش والخوخ فانهما لما انتقلا الى الجهات الجنوبية من امريقا كثرا بها ومنعا ما عداهما حتى ضاقت المراعي على ماشيتهم وكذلك لما نقل بعض النبات الى جزيرة سنت هيلين انتشر فيها حتى اذهب نباتها الاصلي وحشائشها الطبيعية وكذا في بلاد الصين ارض يقولون ان جميع مابها من النبات منقول اليها ولم يبقَ بها شيء من نباتها الاصلي وقد ورد الى بلادنا من المشرق انواع كثيرة من الفاكهة منها العنب والرمان والخوخ والسريز (الكرز) والذي نقل البرتقان والليمون الى اوروبا هم العرب ثم ان الثمار بعد نقلها لا تبقى على حالتها الاصلية بل تتغير وتكسب خواص غير خواصها التي كانت لها في قطرها الاول فتجدها باوروبا كبيرة الحجم شديدة الحلاوة لذيذة الطعم بعد ان كانت دون ذلك ولو نقلت الى قطر اخر لتغيرت ايضا وهكذا لان الغالب ان كل شيء انتقل الى مكان غلب طبعه عليه فاذا رجع الى مكانه

يعود طبعه الاصلي اليه ومن الامثال الصادقة ان للبقاع تأثيرًا في الطباع

وقال بعض المؤرخين ان لكل ارض نباتاً ينسب اليها فينسبون الدخان والبطاطس الى امريقا ولكن هذه النسبة ناشئة عن عدم الاطلاع فان كتب التواريخ ناطقة بان الاندلسيين ايام تملكهم وجدوه مستعملا في التحضيرات الكيماوية عند اهل مكسيك وكان قبل ذلك معلوما بين اهالي الصين وجاوى ولم يدخل اوروبا الا سنة الف وخمسمائة وخمسة وتسعين وادخله البرتغاليون في بلادهم فكان مستعملاً باجزاخاناتهم فقط فلا بد انه كان معروفاً ببلاد اسيا قبل استكشاف امريقا بزمن طويل

وقد تبين لك ما مر ان انتقال النبات من ارض الى ارض لابد ان يغير حالة الارض كما تتغير بذلك طبيعة النبات وتبين ان تنقلات الحيوان والنبات تابعة في الغالب لمن سكن الارض لما بينها وبين الانسان من الارتباط التام اذ بهما بقاء بنيته وقضاء اوطاره وستر عورته وقد وقف كثير من الناس عند ظواهر الاشيا فزعموا ان الحيوان لا ينتقل من الارض التي خلق بها وليس هذا الزعم بصواب ولو سلم ذلك بالنسبة للحيوان الاهلي لا يسلم بالنسبة للحيوان الوحشي وان كنا لا نعلم كيف كان انتقاله في الازمان الماضية لسكوت المؤرخين عن الكلام في ذلك كما سكتوا عن تنقلات الآدميين في تلك الازمان

وعلى ما مر من ان اول عمارة بني آدم الارض كانت بالمشرق يمكن ان يقال ان وجود جميع الحيوانات كان بالمشرق ثم انتقلت الى المغرب

وقد قال المؤرخون ان الخلق كانوا اول امرهم عشائر رعاة ثم تفرقوا فلا مانع من ان تكون الحيوانات قد تبعتهم في ذلك وبالجملة فالحيوان والنبات كل منهما ينتقل باسباب ووسائط دبرها الخالق جلت قدرته ومن تلك الوسائط المياه العظيمة فكل نهر او خليج ينقل في سيره الى البحر كمية عظيمة من ذوات الروح وكثيرًا ما شوهد في وسط البحر جمل من بعض الحيوانات متراكمة بعضها فوق بعض تعوم فوق الماء وعلى سطحها المحار والقوقع الذي لا يعوم وحده فتكون له كالرّومس الذي يركب عليه في البحر كما يركب على السفينة وقد وجد كثير من هوام الارض والحشرات والافاعي والدود والسمك والطيور والقوقع ونحو ذلك راكبة فوق الاعشاب وغصون الاشجار العائمة في البحار فتنتقل بواسطتها من جهة الى جهة وكذا الهواء قد ينقل منها الوفا مؤلفة ويسير بها الى حيث شاء الله وقد امتحن ذلك بعضهم بوضع لوحين من زجاج خلف مصراعي شباك فوجد في التراب الذي اجتمع بينهما في مدة ستة اشهر بذر ثمانية انواع من النبات واحد عشر نوعا من ثقاوي عش الغراب واربع بيضات من بيض حيوانات صغيرة

مع جملة من تلك الحيوانات بل قد ياخذ الهوآ ما هو اكبر من ذلك كالفارة والعرسة والسمك ونحو ذلك

وقد وقع في بعض السنين مطر ببلاد فرنسا فكان كله سمكا وكثيرًا ما امطرت السماء ضفادع ومن الهوام الصغيرة ما يمد لنفسه فوق البحر خيطًا دقيقًا ثم يسير عليه مسافة ثم يمد غيره وينتقل وهكذا الى حيث اراد وقد اتفق انه سقط على بعض الملاحين في سفنهم وكان بينهم وبين البر نحو ثلثمائة ميل ولكون تلك الحشرات لا تظهر الاَّ في اوقات سقوط الندى ظن بعضهم ان تلك الخيوط تتصل بذرات الماء وبعضهم يزعم ان لهذا الحيوان معرفة بالكهرباء فان كانت كهربة الخيط سالبة طردتها كهربة الطبقات السفلى من الجو وجذبتها كهربة الطبقات العليا منه وكل هذا ظنون غير ثابتة والله اعلم بالحقيقة

واكبر داع لمفارقة الحيوان لوطنه ان يفقد قوته او الفه فترى الحمُر الوحشية تترك بلاد التتار وتجاوز صحاري اسيا في فصل الشتاء الى الجهات الشمالية لاجل المراعي التي بشاطئ بحر عنال وقد تجتمع الوفا كثيرة وتسير الى شمال الهند وارض العجم لاجل المرعى وبعض الحيوانات لجوعها تخرج من جهة القطب الشمالي وتسافر الى الجنوب كارنب بلاد السيبري وفأر بلاد النروج ونحوهما والدويبات الصغيرة جدًا تسيح عادة مجتمعة طوائف طوائف حتى يرى البحر متغير اللون من كثرتها فيه وفي بعض الجهات

تظهر انواع من الحشرات لا يعلم من اين اتت ولم يسبق لاهل تلك الجهات رويتها وعادة تأتي سائحة فوق الماء او دابة على الارض وكثيرًا ما شوهدت الديدان تقطع البحار العظيمة والفيافي الواسعة الشاسعة لطلب القوت لا يعوقها عن طريقها شيء وقد اقتضت الحكم الازلية ان ما يؤلف يعز وجوده وما يكره يكثر موجوده وبعض ذلك كان مفقودا من اوروبا الى القرن الحادي عشر ثم امتلأت منه مثل دود القز فانه يميل الى الاماكن التي اعتادها فلا تفارق مغارس التوت وهي موجودة في الهند والصين قبل ان توجد باوروبا وغيرها بزمن مديد واول ظهوره بالقسطنطينية كان في القرن السادس جلبه اليها احد القسيسين ثم نقل منها الى اليونان والذي ادخله ارض صقلية الملك روجير ثم منها الى باقي الارض والنحل تهوى الجهات الغربية ولكن الان صارت لاتوجد في جهات جبل اورال وقد بذلوا كل جهدهم فلم يمكنهم ان يعودوها على ارض السيبيري مع انها كانت غير معلومة في الامريكا الى القرن السابع عشر من الميلاد والان بعد استقرارها فيها اخذت في الازدياد حتى ملأت جميع البلاد والهنود تسميها بالذبابة الانكليزية ولهم فيها كراهة عظيمة لانهم يستدلون بها على دخول الناس بيض الوجوه في بلادهم وهم لا يحبون ذلك فهم يستدلون بها على مسير المهاجرين الى الجهات الغربية

وللنمل تنقلات عجيبة وهي وان كانت تظهر لغير المتأمل انها

في سيرها متفرقة غير مؤتلفة ولا منتظمة الاَّ انها جيوش متتابعة ولا تضل عن طريقها اصلا بل تهتدي الى مقصدها مع الانتظام وهي انواع

منها الاسود وهو كثير جدًا واذا ظهر في مكان يكاد يستر وجه الارض ويأكل في سيره ما مر عليه من النبات ويدخل المنازل ويملأها حتى لا يترك منها موضعا الاَّ ويتلف ما به فلا يسع اهل المنزل حينئذٍ الاَّ فراقه

فقال الشيخ الجراد في تنقلاته اكثر ضررًا واشد اذىً لانه لا يبقي من الزرع ولا يذر ويقال انها تحفر لبيضها في الرمل ومن حرارة الشمس يفرخ ويكبر في اقرب وقت ويكون اولا بغير جناح فاذا هب النسيم سار به الى حيث يريد وكثيرًا ما يملأ الفضا فيغطي الارض ويحول بيننا وبين السماء

فقال الخواجا انها كذلك وسيرها من الشرق الى الغرب وتقطع البحار والفيافي وتقع في بقاعٍ مختلفة فتكون في افريقية وبلاد الانكليز وارض جرمانيا وكثيرًا ما حل القحط في الجهات التي تحل بها لانها تهلك جميع النبات والشجر وكثيرًا ما يجيء عقب ذلك الطاعون بسبب العفونة التي تنشأ عن رممها وكذلك السمك وسائر الحيوانات المائية لها انتقالات كثيرة ولا تحتاج الى اماكن تستريح فيها حين عبورها كما يستريح الطير على صواري السفن وكثيرًا ما شوهد كلب البحر ملازما للسفن السائحة في البحار

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ان معاش بعض الامم يتوقف على سياحة انواع من السمك فينتظرونه في زمن معين ويصيدونه وينتفعون به وذلك كالبوري والثوبار وغيره وهو الذي يصنع منه الفسيخ في بلادكم وهناك نوع من السمك يسمونه اسكمري وتسميه الفرنج مكرو

ومن غريب امره انه في فصل الشتاء يدفن نصفه المقدم في الطين ويظهر نصفه المؤخر فاذا خرج الشتا خرج من الطين فينتقل الى الماء القليل الحركة ويبيض فيه واغرب منه ثعبان السمك فانه يقضي اكثر حياته في البر وتجده زمن الصيف ايام جفاف البرك يخرج ليلاً ويمشي في خلال النبات الى ان يصل بركة او ارضًا فيها ماء فينزل فيه واكبر سبب في وقوعه في ايدي الناس حبه لنوع من النبات يعرفونه فتكون شهوته سببًا في هلاكه وكثير من الاسماك لا يسير الا ليلاً على وجه الارض ويخرج منه مادة لزجة يلتصق بها فى نوع من الشجر ليصيد نوعا من المحار يهواه وكثيرا ما شوهدت السمكة والمحارة معًا فوق الشجر

واما الورل والثعبان والتمساح فلا تفارق مكان اقامتها بخلاف النوع المعروف بالبني الذي يوجد في بحار الهند الغربي وامريكا الجنوبية وهو المسمى عند الفرنج بكراب فانه يكون في بعض اوقات السنة بالمغارات بعيدًا عن البحر مغشيًا عليه وفي فصل الصيف يخرج منها في هيئة جيش منتظم فتخرج الذكور ثم الاناث

ويأخذ سعة عظيمة من الارض نحو مأية متر ومتى اشتدت حرارة
الشمس عليه استظل بالاشجار فاذا جاء الليل سار طوائف ويكون
لها دبيب تحس به الناس وسط النبات فاذا قربت من البحر
الملح دخلت فيه جميعاً فتسبح فيه وتقطع في سياحتها بلاداً بعيدة
فاذا تعرض لها احد دافعت عن أنفسها ويسمع منها قرض اسنانها
في مدافعتها فان لم تتخلص بذلك تفرقت الى جهات مختلفة ثم
تنضم وقد يموت أكثرها في سياحته والطير كالسمك في التنقل
بل اقوى منه حركة فتراه عند اشتداد البرد يترك الجهات الباردة
الشمالية ويذهب الى الجهات الحارة الجنوبية ويقطع في سيره الآف
اميال ومنه ما يعيش في الاقطار الباردة والحارة كالغراب فانه
يكون باوروبا على شاطىء البحر الاسود وبحر الخزر وينعق ببلاد
الهند والعجم كما ينعق بامركا وجزائر البحر الباردة والحارة ومع هذا
فلكل نوع من الطير وطن يألفه لكن يفارقه احيانا التماساً لمواد
الغذاء او فراراً من العوارض الجوية ومن عجيب امرها انها لاتخطىء
اوان مفارقة وطنها ولا وقت عودها وتشاهد هذه الغريزة في
المحبوس منها سواء كان مقتنصاً او متولداً في البيوت فانه اذا
احس بصوت ابناء جنسه حنّ اليه ولو خلّي سبيله لسار معهـا
وغالب الطير اللطيف لا يكترث بالبرد والحر ولا بالقرب والبعد
بل متى جاء الوقت المعلوم لمهاجرته الى الامكنة المعهودة له خرج
الي تلك الجهات واقام بها فيفرح به اهلها وتميل اليه طباعهم

فيتلذذون بسماع تغريده ويأنسون برؤيته ولكل نوع منها كيفية يكون عليها ومنهاج ينهجه في هجرته وتعديته البحر وقطعه للمفازات فالبعض يكون منفردًا والبعض يكون مجتمعا ومنها ما يسير بالنهار ويسكن بالليل ومنها ما يسير بالليل ويستريح بالنهار فالاوزّ يسافر مجتمعا معترضا والعصفور يسير متسلسلاً والبجع يسير على هيئة شكل مثلث واذا صادفها في سياحتها بحر قطعته طيرانا فاذا هزلت وسقطت فيه قطعته سباحة ومن المستغرب جدًّا طريقة سياحة الطير المعروف بالسماني فانه اذا اراد مفارقة اوروبا الى افريقية صبر حتى تهب ريح شديدة من الشمال الغربي فاذا هبّت رفع احد جناحيه كالقلع وحرّك الآخر كالمجذاف وترك نفسه مع الريح الى ان يقطع البحر المتوسط الاسكندري ويصل الى افريقية واماكن استراحته في الجزائر معلومة فلذلك تجد اهل تلك الارض يعرفون وقت وجوده بارضهم فيتهيئون لصيده ومثله اللقلق المسمى عند الفرنج سيجوني فمصيفه الجهات الشمالية الباردة من اوروبا ومشتاه وطنه الاصلي من افريقا فيسمع صوته بجهة الاهرام وغيرها وحمام امريكا الشمالية ينتقل في اوقات معلومة في عدة بقاع لا يعلم سكانها من اين اتى وينتشر احيانًا في نواحي امريكا الشمالية والجنوبية معا واذا آن اوان بيضه اجتمع وبحث عن المواضع التي تناسب ذلك فيبيض فيها فاذا افرخ رجع الى وطنه ولا يضل في طريقه ولو نقل بواسطة كالسكة الحديدية فانه يهتدي

الى وطنه ونوع البلبل ينتقل في فصل الخريف من الشمال الى الجنوب كل عائلة على حدتها لكن اناثه تسبق ذكوره باسابيع فتذهب وحدها من مصر والشام وتقصد البلاد الشمالية ومنه نوع تهاجر اناثه فقط في فصل الشتاء وتبقى ذكوره واما الحيوانات ذوات الثدي فلا تنتقل من بقاعها المعدة لها الاّ اذا جاعت او تعدى عليها احد في ارضها ومنها ما ينقله الانسان معه كالخيل والحمُر الوحشية الى حيث يستوطن من البقاع وهي التي تناسلت في التانّس وعمرت منها البلاد بامريقا فانها ترحل في فصل الشتاء الى الجهات الحارة وكذلك الظباء والفيَلة مع غلظ جثتها تترك مواضعها لطلب مراعيها والجاموس الامريكاني المتوحش ينتقل من السهل الى الجبل وبالعكس على حسب الفصول فيتتبع مجاري الانهار والسيول لالتماس المرعى بغريزة وضعها الله فيه فيتبع المرعى حيث كان ولا نعلم احد طريق اهتدائه اليه

وللقرَدة طرق عجيبة في قطع كبار الانهر والخلجان المتسعة

واما الحيوانات الاهلية فتنتقل تبعًا لانتقال الانسان فخيل اسيا وبلاد العرب الان كثيرة بامريكا ولم تكن موجودة بها قبل اختلاطهم بالاندلسيين وكذا النعم منها هناك كثير ضأنًا ومعزًا وذلك بسبب تنقل الناس كما ان الانسان هو الواسطة في وجود بعض الحشرات والهوام في جهات لم يكن لها بها وجود كما تقدم

وذلك كالفأر بامريكا فانه قبل دخول الاوروباويين هذه البلاد لم يكن له بها وجود اصلاً

وقد تقدم ان اول بقعة وجد بها الآدمي هي ارض الهند وهناك علامات تدل على ذلك فانها كانت في اول الزمن كثيرة النبات والخير ثم اخذت ارضها ترتفع شيئاً فشيئاً حتى قل خيرها فهاجر منها اكثر ساكنيها باسباب وحوادث لا نعلمها واستمرت آخذة في العلوّ والامحال حتى صارت جبالاً لا تنبت فلم يبق بها ساكن ولم يزل ينتقل الانسان من جهة الى اخرى بحوادث داعية الى ذلك حتى امتلأت منه الارض وعمّرت جوانبها

فقال الشيخ هذا كله يدل على عظمة الله وقدرته حيث اودع في كل نوع من المخلوقات قوى غريزية وطبائع مختلفة يقدر بها على تحصيل قوته ويأمن بها على نفسه مدة حياته وفيما ذكرتموه دلالة على ان الحركة اساس بديع لعمار الاكوان وقيامها وقانون جليل عليه مدار انتظامها فكل مخلوق لا يستغني عن الحركة في كل حاجاته ولكنها تكون على انواع بحسب انواع الحيوان وطبائع البقاع فتكون كثيرة عند بعض وقليلة عند بعض اخر لانه سبحانه كما نوّع احوال البقاع نوع ما لساكنيها من الطباع فليست طبيعة من يسكن الهواء كطبيعة من يسكن الماء ولا من يسكن الارض الحارة كمن يسكن الباردة

وحيث كان السعي في طلب القوت والمحافظة على حياة

النفس من اهم الامور كان ذلك ايضاً يختلف باختلاف البقاع فيكون في الارض السهلة سهلا وفي الصعبة صعبا وكلما سهلت طرق الاكتساب في جهة تساهلت سكانها في الكد والاجتهاد فيه وكلما صعبت ازداد الكد والنصب فبين سكان الجبال ونحوها من الجهات الصعبة الحرث والغرس و(بين) سكان الارض الخصبة ذات الانهار والخلجان بون بعيد وتباين في الطباع والاوضاع وكذلك طرق التحفظ مختلفة باختلاف البقاع ففي البلاد الباردة تجمع البرودة اطراف الالياف الظاهرة من بدن الانسان فتزيد بذلك قوتها ويسرع رجوع الدم الى القلب وينشأ عن ذلك للانسان من النشاط ما يساعده على الكد والعمل بخلاف البلاد الحارة فان حرارتها تمدد الالياف المذكورة فتتلاشى قوتها وتضعف بذلك قوة الانسان ويداخله الفتور ولا يقوى على العمل ولذلك تجد سكان البلاد الباردة اقوى من غيرهم فانه متى انتظمت حركة القلب والالياف فقد انتظمت السوائل في انحاء الجسم وتكون حركة الدم نحو القلب اتم فيقوى فعله وتزيد قوته ولقوته فوائد كثيرة منها شدة البأس وقوة الجاش وملك النفس عن سرعة الانتقام وعدم الخوف على النفس ومتى قل خوف الشخص على نفسه كثر حبه للحق والتماسه له واتباعه اياه اينما كان ويكون بعيدًا عن الظنون والاوهام عاليًا عن الكذب والنفاق والخداع والمكر ونحوها فلا ريب في ان هؤلاء الناس يكون عندهم من

الاخلاق والطباع ما يغاير طباع غيرهم من سكان البلاد الحارة مثلاً لو حبسنا رجلا في مكان شديد الحرارة لتألم وهمدت قواه بحيث لو طلب منه فعل امر يحتاج في الاقدام عليه الى الجراة لم يفعل اذ ضعف قوته يورثه ضعفاً في قلبه وثقلاً في حركته ولذلك تجد سكان البلاد الحارة في القوة اشبه بالشيوخ وسكان البلاد الباردة بضدهم ولو انتقلت سكان البقاع الباردة الى البقاع الحارة او بالعكس لتغيرت طباع كل الى ما يناسب الجهة التي انتقل اليها لكن بعد زمن وفي البقاع الشمالية التي ينزل بها الثلج دائما يكون الانسان ضخم الجثة قليل الهمة والنشاط وسببه ان قوة الالياف ينشأ عنها استجلاب العصارة الرديئة من الغذاء فيحدث امران الاول ان جواهر الكيموس تصير صالحة لان تكسو الالياف وتغذيها فتكبر الجثة والثاني انه ينشأ من قلة جودة العصارة المستجلبة قلة اللطافة في العصارة العصبية فيقل النشاط وتكون الاحساسات في البلاد الباردة ضعيفة بخلاف الحارة فانها فيها قوية جدا وفي المعتدلة تكون معتدلة وكذا تختلف درجة الاحساس عند الناس باختلاف الاقطار والعوارض وذلك ان اختلاف الاحساس ناشئ من كون جميع الاعصاب الواردة الى المنسوج الجلدي يتكون من كل منها مجموع عصبي ففي الجهات الحارة يكون المنسوج الجلدي رقيقاً جداً واطراف الاعصاب مفتحة فتحس باقل شيء ورد عليها من الخارج وفي الباردة بخلاف ذلك لانضمام المنسوج الجلدي وتجمع

اطراف الاعصاب فلا يصل الى المخ الا الاحساسات العظيمة الحاصلة من مجموع العصب ولا يخفى ان القوى العقلية جميعها حاصلة من احساسات صغيرة فمن هنا يكون الاحساس كثيراً في البلاد الحارة قليلا في غيرها والا لم كذلك فانه يحصل من تمزيق بعض اعصاب الجلد او تفريقه فكلما كثر كثر الالم وبالعكس ففي الباردة التي جثة اهلها ضخمة واعصابهم غليظة يصعب ذلك التمزيق لغلظ جلودهم بخلاف اهل البلاد الحارة لرقة اعصابهم وجلودهم ولهذا كان الم سكان الاقطار الباردة اقل من الم سكان الاقطار الحارة ومن هذا التباين في الطباع الناشئ عن اختلاف البقاع تكون اهل البلاد الحارة كثيرة الميل الى النساء ومنهم من يرى الميل اليهن من اعظم النعم بخلاف سكان البلاد الباردة فان ميلهم اليهن قليل اما اهل المناطق المعتدلة فمعتدلوا الأحوال مطلقا

فقال الخواجا ما ذكرتموه مسلم ولذلك نجد البلاد الجنوبية مثل ايطاليا وما جاورها من البلاد انفة رجالها لنسائها ليست كالفة رجال البلاد الشمالية الباردة بنسائها فانهم لا حظ لهم الا في الحركة كالصيد والسفر والحرب والشرب وسبب ذلك ضخامة اجسامهم وثقلها وتمام الصحة ولهذا كان اكثر اهل تلك البقاع يميل الى المشروبات الروحية وكلما بعدوا عن القطبين وقربوا الى خط الاستوآ نقص هذا الميل واظنه تابعا لما يقذفه البدن من العرق ففي الجهات

الحارة يعوض ما خرج من الجسم بشرب الماء وفي الباردة يعوض بالمشروبات الروحية كالنبيذ ونحوه للانعاش وبث الحرارة لتنبعث الحركة خيفة جمود الدم ألا ترى ان الماء هو الشراب المألوف عند اهل المشرق من يوم خلق الله الدنيا بخلاف النبيذ ونحوه فهو المألوف عند اهل البلاد الباردة واهل البلاد المعتدلة لا تنقطع رغبتهم في النسا لكن لا تبلغ بهم الى حد التهور فهم فيها على حال الاعتدال وتزداد تلك الرغبة بالتدريج بحسب البلاد الحارة ولو اختبرت اهل البلاد الباردة لوجدتهم اقرب الى الصدق والحق والامانة من اهل البلاد الحارة فان اولئك تغلب عليهم شهواتهم وتكثر فيهم الكبائر والمساوي فتراهم لا هم لهم الا شهوات انفسهم وطاعتها فيما تقترحه عليهم من الاماني والشهوات البهيمية

واما اهل البقاع المعتدلة فلا ثبات لهم على حال فطورا في الفضائل وطورًا في الرذائل يغشون كل ناد ويهيمون في كل واد وكلما زادت درجة الحرارة ضعفت القوى البدنية ويتعدى ذلك الى القوى العقلية فتتساوى لديهم الامور فلا تنبعث خواطرهم الى شيء ولا يهتمون بشيء ويغلب عليهم الكسل ويتحملون العذاب في الدنيا بلا ملل ولا يجتهدون بعقولهم في سياسة انفسهم فيكون في ذلك استرقاقهم ويرون الرق اهون عليهم من العمل ولهذا نرى الفقراء والدراويش والشحاذين وامثالهم في تلك البلاد كثيرين وانا لنعلم بما تواتر عن السياحين ان الهنود مجردون عن الشجاعة والبأس كما

هي طبيعة بقعتهم وقد شوهد ان من تناسل من الاوروباويين هناك يشبه طبعه طبع الهنود دون طبع ابيه واصوله ومن ذلك فللهنود عوائد فظيعة مستغربة كل الاستغراب منها ان نساهم يحرقن انفسهن بالنار بعد موت ازواجهن ومنها انهم مع ضعف قواهم ونحافة اجسامهم يتوهمون اوهاما جسيمة جدًّا فيتوهمون امورًا افظع من الموت فلا يبالون من الموت ولهم صبر وتجلد على انواع العذاب

وهؤلا القوم لخلو اذهانهم وسلامتها عن العوارض وقابليتهم واستعدادهم لكل ما يلقى اليهم يلزم لهم على سبيل التاكيد زيادة عن غيرهم ان تقنن لهم قوانين وتشرع لهم احكام حسنة يتعلمونها ويتداولونها بينهم ويلزم ان تكون تلك القوانين امورًا معقولة خالية عن الاوهام والوساوس ليجبلوا على احسن الاحوال حيث انهم على الفطرة الاصلية ليس في اذهانهم شيء من التخليطات كالاطفال الذين يلزم لهم السياسة والتعليم والتدريب على ما به صلاحهم اكثر من الكبار الذين دخلت اذهانهم تشويشات تعطلها او تمنعها عن رسوخ التعليمات فيها وقد كانت الامم الشمالية زمن الرومانيين مستقلة بنفسها ومدافعة عن وطنها وحريمها ومع جهلهم وعدم وجود قوانين لهم حاربوا الرومانيين زمنا طويلا حتى كسروا شوكتهم وخفضوا دولتهم ولو اضفت ضعف بنية الامم المشرقية عن العمل الى ما هم عليه من حب البطالة والكسل لعرفت سبب ثباتهم على

قوانينهم وعوائدهم واخلاقهم فانك لو قارنت بين ما كان في سالف الازمان وما هو الان لم تجد الا فرقًا يسيرًا ومن تامل احوال الامم وجد ان المؤسسين الذين وضعوا القوانين لسياسة الناس هم الذين اكسبوا اهل بقاعهم ما هم عليه من العوايد والاحوال ضرورة ان كل طائفة عملت بقوانينها وسيست باحكامها حتى صارت كالجبلة لهم فبعض المؤسسين ساير اهل بقعته على ما هم عليه من رديء الخصال وسيء الاحوال فلم يزدادوا بذلك الا ضررًا من الفقر ونحوه والبعض رفع اهل بقعته عن الرذائل وحملهم على التحلي بالفضائل فتحسنت احوالهم وحمدت خصالهم وافعالهم ففي اعتقاد الهنود مثلاً ان السكون والعدم هما الاصل واليهما تؤول الاشياء فيرون البطالة احسن الاحوال ويستندون في ذلك الى اسمه تعالى الثابت لانهم فهموا ان معناه الذي لا يتحرك مع ان الامر ليس كذلك بل معناه الدائم الذي لا يزول ازلاً وابداً وسكان جزيرة سيام يقولون ان النعيم الابدي هو كون الانسان لا يجبر على الحركة واتعاب الجسم فلذلك كان السكون وعدم الاشتغال عندهم امرًا مرغوبًا فيه في تلك البلاد الحارة المضعفة لجميع القوى ولان الراحة عندهم امر طبيعي هو المقصود بالذات

فلما اسست القوانين على حسب قطرهم وما يناسب اوضاعهم من الترغيب في الدعة وترك الحركة اعقبت مضار كثيرة بخلاف

اهل الصين فان قوانينهم مؤسسة على الاجتهاد والسعي والحث على ذلك فتجد احوالهم مستحسنة وقواهم متوفرة وارزاقهم متيسرة فبين الفريقين بون بعيد مع انهما متجاوران

— —

المسامرة التاسعة والتسعون

الانكليزي والنيا رو والكتاب

ثم اننا وان لم نستوفِ الكلام في هذا المقام الاّ اننا محتاجون الى الرجوع الى البيت لناكل ثم نعود للتياتر فانكم ما رأيتموه ولا وقفتم على حقيقة ما فيه فقاما وركبا العربة واخذا باطراف الاحاديث الى ان وصلا مكانهما فنحا كل نحو غرفته فلما خلا الشيخ بابنه قال له ما تقول فيما حدثنا به الخواجا في هذا اليوم فقال انتم بذلك ادرى وبالحكم فيه احرى فقال ما قال الاّ حقًا ولا نطق

الاّ صدقًا واني جلت في بحر الفكر في شان هذا الامر مدة سيرنا في الطريق فوجدته في مقاله صادقًا وبالحق ناطقًا ما كأنه الاّ ساح كل بقعة واثبت له فيها سجدة وركعة وعاشر من استوطنها من السكان في كل الازمان فانه لا يقف على تلك الاحوال الاّ من كان هكذا من الرجال فلله دره عالمًا نحريرًا وفاضلاً بالامور خبيرًا حاز من كل فن طرفا واخذ منه ملحا وظرفا

فقال له ابنه ومن الغرائب والعجائب معرفته بجميع اللغات فاني اراه يكلم كل انسان بلسانه مع الزلاقة وحسن التعبير والطلاقة كانه في كل لغة اصيل وليس فيها بدخيل ومن مزاياه انه محبوب عند كل من يعرفه

فقال الشيخ ان ذلك من علمه وادبه فان من تحلى بحلية الادب اغناه ذلك عن الحسب والنسب

ثم قال يا بني قم بنا نذهب اليه فذهبا فوجدا الاكل قد كملت هيأته فجلسوا جميعا ياكلون وفي خواص الاطعمة يتحدثون ثم بعد شرب القهوة ذهبوا للتفرج على التياتر فاخذ الخواجا له ولهم تذاكر ودخلوا فلما اخذ كل موضعه دارت الملاعب من كل جانب فسرّ الشيخ بما رأى

وكان الخواجا يترجم له العبارات اللعبية ويبين له ما فيها من النكات الهزلية والجدية وفي الاوقات الخالية بين الالعاب اجتمع بكثير ممن يعرف الخواجا فكانوا يحيونه ويمازحونه ويؤآنسونه

ويراعون خاطره وهكذا الى انقضاء اللعب فانصرف الخواجا مع الشيخ وولده وكان بالملعب خلق كثير ما بين نساء ورجال وشيوخ واطفال

فقال الشيخ اظن ان اهل هذه البلدة لا يدخلون تحت عدد وازداد تعجبه من خلوّ بالهم وانتظام حالهم لانه رأى جميع اوقاتهم ما بين اعمال جدية سديدة وهزليات والعاب غريبة مفيدة تكسوهم ثياب ثروة ونزاهة وتفيدهم علوما باحاديث الفكاهة فما يمر عليهم يوم من الايام الاّ وتتزايد اثمال الثروة والنزاهة عندهم فتمضي عليهم الايام والليالي في لذة بال

ثم وصلا الى المحل ونزلا عن العربة فقال الخواجا ايها الاستاذ ان البوسطة تتوجه غدًا فان اردت ان ترسل كتابًا فحرره الليلة فقال له الشيخ جزيت خيرًا ووقيت ضيرًا ثم ذهب كل نحو غرفته وكان اكثر الليل قد مضى

فقال الشيخ لولده يا بني حيث لا ينبغي الان غير النوم فان شاء الله نحرر خطاباتنا غدًا ونرسلها الى البلاد لوالدتك والاولاد فقبل يده وقام لينام فقابله يعقوب بعد قضائه ما كان مشغولا به فسلم كل منهما على الاخر سلام اشتياق ودخلا يتحدثان بما رق وراق فحكى له ما رأوه في هذه الفسحة وعن التياترو وما فيه من النزهة وقال كنت اتمنى تمام سروري بوجودك

فقال له يعقوب الايام بيننا فقال وما الذي عاقك عنا

وفرقك منا فقال بعثني حضرة الخواجا الى بعض اصحابه لامر مهم فقال لعله تم على مرامه فقال نعم وقد فرح به فرحا شديدًا واستفدت انا منه كذلك شيئًا جديدًا وهو هذه الساعة فهنأه بها ابن الشيخ ثم تواعدا على الذهاب الى العين صباحا ودخل ابن الشيخ لينام فلما انتبه من نومه اخذ محبرة وكاغدا ويراعا وصار يحرر لوالدته هذا الكتاب

اهدي عاطر تحياتي الى كريمة النسب الطاهرة الاذيال قرّب الله لنا ايام التداني

وبعد بث الاشواق ابدي لجنابك اني منذ فارقت مطلع سعودك ومربع شهودك وانا مشغول البال مرتبك الحال وما من وقت يمر علي الا وانا منتظر ورود خبر منك الي اطمئن به عليك وعلى الاخوة والاخوات والاعمام والاخوال والعمات والخالات ولكن كيف السبيل الى تحقق تلك الامال مع بعد ما بيننا على ان بعد الشقة يزيد لوعتي وينغص خاطري وكم هاج عليّ الوجد وقت الانفراد وكم صوّرك الوهم في الفواد فيثير ما انا فيه من النيران ولا سيما اذا اشتد التذكار لهاتيك الديار وما كنت تفعلينه بي من الحنو وعطفك علي ورافتك بي فعند ذلك يهيج وجدي ويكاد ان يشيب من تذكاره فودي ولولا ان منّ الحنان المنان بصحبة اعز الخلان وعرفت يعقوب الذي اخبرت سيادتك عنه فيما سبق لذبت من الم النوى واعتراني من الم الجوى ما لم اجد له دواء

ولعددت ثواني الغربة سنوات وخلت جميع اوقاتي عن اللذات لكن ملازمته لي وشفقته علي وتسليته لي برائق العبارات خفف عني الكروب وربما تحصلت بصحبته على كمال المرغوب مع صحة البدن والنزهة في غالب الزمن ومشاهدة امور ظريفة مع ما اكتسبه منه بالممارسة عند المحادثة والمؤانسة واما صاحبنا الخواجا فلا يدع في نفسي شيئًا احبه الا ويجلبه لي لان حبه لي زائد وقد بلغت حد التكلم باللغة الانكليزية وذلك ليس الا بهمته فجزاه المولى عني خيرًا فصرت الان وان لم احصل على درجة عظيمة في اللغة الانكليزية لكن يمكنني قضاء ما يلزمني بحيث اعبر بها عن مقصودي وافهم ما يقال لي وقد اخذت ايضًا في تعلم اللغة الفرنساوية ولست مقتصرًا على ما اخبرتك به بل كل ما وقع نظري عليه او سمعته او فهمته اسطره لكي اطلعك عليه حين العود الى مصر ان شا الله تعالى والذي يغلب على ظني انا نقيم شهرًا بباريز ثم نتوجه الى بلاد الانكليز واندي في هذه المدة فضلاً عن اشتغاله مع الخواجا بقرآة بعض دروس عربية بالمدرسة المشرقية ففضله كل وقت ينشر وفخره بين العلماء يزيد ويكثر وليس ثم ما يكدره غير الفراق وعدم ورود المخاطبات الينا منكم فالمرجو عدم انقطاع الرسائل لانها للاطمئنان عليكم من اقوى الوسائل حيث كان ارسال الخطابات ممكن لك مع ما ياتي للخواجا من المكاتبات ثم ارجو تبليغ السلام الى الاخوان والمحبين الكرام

ثم طوى الكتاب وذهب به الى والده وسلمه له فقراه بتمامه وسر من حسن نظامه وسلاسة مبانيه وجزالة معانيه ثم قال له ان كتابك فيه الكفاية فانه استوفى ما يلزمني كتابته ثم وضع اسمه بجانب اسم ولده وكتب على هامش الكتاب بيده وصية بالاولاد وبارسال رسائل مع الوراد تبين فيها ما عندها من الاخبار ثم برشم الكتاب وقام هو وولده ودخلا عند الخواجا فحياهما واكرم مثواهما ثم قال للشيخ اني كتبت خطاباتي التي اريد ارسالها الى القاهرة فقال الشيخ ونحن كذلك وسلمه الخطاب فوضعه الخواجا داخل الظرف وبرشمه ثم سلم ليعقوب الظرف بما فيه فتوجه به الى البوسطة

ثم قال الخواجا للشيخ اني كنت اريد ان اخرج مع حضرتكم للتنزه حسب الاتفاق ولكن ارجوكم السماح فقد عاقني عن ذلك امر مهم وهو ان لاحد اصحابنا قضية مهمة في بلد قريب ولا بد لي من التوجه معه لبتها وقد واعدته على ذلك وان شئت الذهاب معنا فلا بأس لا سيما والبلدة قريبة والسبل الموصلة لها لطيفة ولا تخلو من فائدة وان شئت ان تبقى هنا ومعك يعقوب فلا مانع وان شآ المولى في يوم غير هذا نذهب معاً ومع كل هذا فالرأي لكم فقال الشيخ ان استحسنتم بقاءي هنا فلا مانع

فقال الخواجا الرأي ما ترونه وأظن اني اعود قبيل الغروب وفي ذهابي وايابي استكشف لكم الطريق فان وجدت بها ما

يسر خاطركم ذهبنا جميعًا فاتفقا على ذلك ثم حضر الطعام فتناول كل مـــا تيسر وقام الانكليزي وتوجه وبقي الشيخ وولده ويعقوب

المسامرة المائة

الجغرافية

فقال الشيخ ليعقوب قد سبق انك أخبرتنا ببعض حوادثك حين اسرك ولم تذكر لنا ما جرى بعد عودك ولا ما حصل لاختك فهذا اوان ذلك فاذكر لنا ما بقي منه في بالك وكان الخواجا ترك العربة للشيخ فقال يعقوب سمعا وطاعة وها هي العربة حاضرة فلنركبها ونذهب لنغنم اللذتين ونكون التسلية بشيئين فنظر الشيخ الى ولده فراى السرور على وجهه فقال ذلك امر حسن

لانأباه ولكن انتظراني نحو ساعتين فان لي اربًا اريد قضاه فاجابه يعقوب لذلك وقام هو وابن الشيخ الى غرفة يعقوب فمد يعقوب يده الى كرة وقال لابن الشيخ تذكر ما كنت وعدتك به حين كنا في البحر اول تعرفي بك فقال ابن الشيخ وقد كتبته في رقعة وارسلته لوالدي فقال يعقوب اني اشتريت هذه الكرة التي هي مثال للارض بما فيها لابين لك عليها الاقطار المعمورة من غير المعمورة وكيف تتوزع البحار عليها وحيث أمهلنا حضرة الوالد ساعتين فالرأي عندي ان نصرف ذلك في معرفة بعض شيء من الجغرافية فقال ابن الشيخ ان في شوقًا شديدًا لمعرفة هذا العلم فقال يعقوب ستعرف ذلك قريبًا ان القيت بالك فانه علم لا صعوبة فيه

ولنبدأ بمعرفة البحار المحيطة بالدنيا ويكفي الان ان تنظر لهذه الكرة ليثبت ما تراه في ذهنك

فاعلم ان جميع مـــا تراه على سطحها محدودًا بخطوط هو اشارة الى الارض القارة والجزائر وما سواه من سطح الكرة هو المستور بالمياه ويتكون عنها البحار المسماة باسماء مختلفة على حسب اوضاعها وهذا الشريط المستطيل المنفرد وحده الممتد من اعلى الى اسفل الضيق الوسط العريض الطرفين هو المسمى بالدنيا الجديدة وهي الامريكتان الشمالية والجنوبية فالشمالية هي الجزء الاعلى من الشريط والجنوبية هي الجزء الاسفل منه

واما الدنيا القديمة فهي هذه القطع الثلاث المتصل بعضهـــا

ببعض الممتدة بالاتساع من اعلى الى اسفل بدون انتظام وتنقسم الى قسمين صغير وكبير فالصغير في الجنوب الغربي ويعرف بافريقة وهي قطعة من الارض منها اقليم مصر والسودان والحبشة والمغرب وبلاد اخر والكبير في الشمال الشرقي والشمال الغربي فلذا قسموه الى قسمين ايضا غربي وشرقي فالغربي يعرف باوروبا التي منها فرانسا وجرمانيا والانكليز والروس وغيرها والشرقي يعرف باسيا التي منها بلاد العرب وارض الشام والعجم والهند والصين والترك وغيرها وجميع هذه القطع الصغيرة المرسومة في الجنوب الشرقي جزائر كبار وصغار واشهرها جزيرة هولاندة الجديدة وباقي هذه الجزائر تسمى جزائر اوقيانوس وهي من الدنيا القديمة

واعلم ان ما يسمونه بالبحر المحيط الجنوبي هو كناية عما انحصر من الماء بين شرقي الدنيا الجديدة وغربي الدنيا القديمة وما يقال له البحر الاطلنطيقي هو المحصور بين غربي الدنيا الجديدة وشرقي القديمة وهذان البحران ممتدان جهة القطبين وهناك يجتمعان ويتكون عنهما البحران المنجمدان وهما المنجمد الشمالي عند القطب الشمالي والمنجمد الجنوبي عند القطب الجنوبي

فاذا تاملت ذلك رأيت ان معظم الارض القارة في النصف الشمالي من الكرة وان معظم الماء موجود في الجنوبي منها ولذا اطلقوا اسم الاوقيانوس على ما انحصر من الماء بين الدائرة القطبية والارض القارة من جهة الجنوب الذي منه رأس عشم الخير وبحر

الهند المحيط بجزائر الاوقيانوس ويتصل بحدود افريقة واسية من جهة الجنوب انما هو قطعة من هذا البحر العظيم فكل مـاء يجري وسط الارض التارة من اي جهة من جهات الدنيا قديمة وجديدة مصبه تلك الابحر الاربعة

ثم ان كل بحر منها يتفرّع منهُ بحار صغيرة تخترق الاراضي القارة مثل البحر المحط قد اخترق الدنيا الجديدة فتكوّنت بها منهُ فروع منها بحر بهران وبحر الكاليفورني وبحر تيما وكذلك دخل منهُ في الدنيا القديمة فروع مثل بحر يابونيا وبحر الصين وغيرها من البحور وكذلك البحر المنجمد الشمالي تفرّع منـهُ فروع فمن فروعه بالدنيا القديمة البحر الابيض ومن فروعه بالدنيا الجديدة البحر القطبي ومن فروع البحر الاطلنطيقي بالدنيا القديمة بحر بلتيقة والبحر المتوسط الذي على ساحله مدينة الاسكندرية وخليج غينا وفي الدنيا الجديدة بحر باقان وبحر هودسون وخليج مكسيك وغير ذلك وتشعب من بحر الهند البحر الاحمر وهو بحر القلزم وبحر عومان وخليج بنجال وبحر العجم

والبحر المحيط متصل بالمنجمد الشمالي في بغاز بهران وببحر الهند ببغازات عديدة في جزائر السند وهولاندة الجديدة ويتصل بالبحر المنجمد الجنوبي بالاوقيانوس وبالبحر الاطلنطيقي بالاوقيانوس وببغاز ماجيلان

واما البحر الاطلنطيقي فيتصل بواسطة البحر المنجمد الشمالي

ببحر اسلاندة وبواسطة البحر المنجمد الجنوبي بالاوقيانوس وتتصل بالبحر المحيط بالاوقيانوس وببغاز مجيلان وببحر الهند بالجزء من الاوقيانوس الذي في جنوب رأس عشم الخير

وجميع المياه الجارية فوق ارض الدنيا القديمة تصب في الابحر الاربعة التي ذكرناها كما تقدم وخط انقسام تلك المياه يتجه على غير انتظام من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي فيخرج من ابتداء الشرقي الى راس عشم الخير ويمرّ ببرزخ السويس

واما الماء الجاري في ارض الدنيا الجديدة جميعه فينصب في الثلاثة الابحر الاصلية وهي البحر المحيط والاطلنطيقي والمنجمد الشمالي وخط انقسامه فيها يتجه من الشمال الى الجنوب

ومساحة ارض الدنيا الجديدة عمارًا وخرابًا وسهلاً وحزنًا ٨٠٧٠٣٩٦ ميريامتر مربع

ومساحة الدنيا القديمة ٦٨٠٠٠٠٠ ميريامتر مربع اي ان سعة الدنيا القديمة قدر سعة الدنيا الجديدة ثماني مرات ونصفًا تقريبًا

وبما ذكرته لك تعلم اقسام المعمور من الارض على وجه العموم وما فيها من الانهار ايضًا ثم لا بدّ بعد ذلك من معرفة الامم الساكنة في كل قسم على حدته وهذا امر يطول لو اردنا الدخول فيه على وجه التفصيل فنقتصر على ذكره مجملاً لكن قبل الدخول في شرح ذلك اذكر لك بعض كلمات تقف بها على تاريخ علم الجغرافية لتعرف كيف تقدم هذا العلم تدريجًا

ثم نتكلم على قطعة اوروبا حيث نحن الان فيها فنقول الكرة الارضية كانت غير معلومة من جميع جهاتها كما هي الان فكانت كل امة في تلك الازمان الخالية تعد نفسها في وسط الارض وكانوا اذ ذاك يعتبرونها كقرص مستدير يحيط بهِ نهر عظيم كانوا يسمونه الاوقيانوس وكانوا اذ ذاك لا يعرفون من البحار غير البحر المتوسط وكانت ارض الروم تعتبر انها مركز لذلك القرص ويظنونه ممتدا من جهة الشمال الى ما بعد نهر الطونة ومن جهة الغرب الى بغاز قادس ومن جهة الشرق الى حدود آسيا الصغرى ومن الجنوب الى آخر افريقا والبلاد المعلومة كانت بلاد الروم واسيا الصغرى ومصر وايتاليا

وفي زمن هيرودوط بطل اعتقاد الناس في البحر المحيط واتسعت قطعة اوروبا وآسيا وافريقا مما استكشف من الارض والبلاد وبقي ذلك الى زمن القرطاجيين فساحوا في البحر المحيط واستكشفوا الجزائر الخالدات في الجهات الجنوبية وجزائر الانكليز في الشمالية وبعد الاسكندر الاكبر عرفت اغلب بقاع اسيا الكبرى

ثم ان استرابون الجغرافي الشهير حصر جميع المعلومات الجغرافية الى وقته فكانت عبارة عن اغلب بقاع اسيا وافريقا واوروبا وهي محاطة ببحر عظيم والرومانيون بسبب حروبهم في جميع جهات الدنيا احاطوا بعلم كثير من جهات اوروبا خصوصاً الجهات الشمالية منها وكانت غير معلومة لذاك الوقت وعلمت حينئذٍ الامم

الساكنة على نهر الطونة وبحر البلتيكا وجزائر الانكليز

وفي القرن الثاني من الميلاد جمع بطليموس جميع المعلومات الجغرافية وضبط حدود الارض المعلومة ووسع الكلام في قطعة افريقا وآسيا وبين ارض الصين الا انهُ لم يعين الحد الغربي لافريقا

والمتبربرون النازلون من الشمال الذين هجموا على من باوروبا هم الذين وسعوا دائرة جغرافية هذه البقعة وذلك في القرون الوسطى ثم جاء من بعدهم العرب فبيّنوا جميع جهات اسيا وافريقا كل البيان وساحوا ارض الصين وجزائر السند وفي وقتهم مدّت الديانة المحمدية اغصانها وهزّت بلابل العز افنانها حتى وصلوا النهر المار من وسط ارض الهند ولم تعلم جهة شمال اوروبا الا من عهد حرب النورماندي ومن ذلك الوقت علمت البروسيا والسكنديناو والروس ومن عهد حروب الاتراك والمغول وقف على معرفة سكان البقاع المركزية لآسيا وارض التتار وبلاد السيبيريا وغيرها من الجهات

ومن حين حرب القدس اشتاقت الناس الى السياحة فاتسعت دائرة الجغرافية اتساعًا عظيمًا بما استفيد من رسائل السياحين وترحلهم فعلمت اوضاع امم كثيرة كانت مجهولة الى ذلك الوقت خصوصًا اوضاع اسيا وافريقا

ثم لما اشترك جميع الناس في حب التجارة والسياحة حصل لهذا الفن تقدم عظيم وكثرت المعلومات وفي القرون الثلاثة التي

اشتغل فيها اهل الونديده وجنوه بالتجارة من بلاد الهند الى اوروبا بطريق البرلا بطريق البحر علمت اغلب البقاع والطرق المجهولة للناس ولما اخذ البرتغاليون البحر طريقًا لتجارتهم الهندية استكشفوا استكشافات عظيمة ووصلت سفنهم الى ما لم تصل اليه سفن الاقدمين حيث كانوا لا يتعدون رأس نون في المحيط الاتلانتيكي اما البرتغاليون فقد وصلت سفنهم الى جزائر كناريا سنة ١٤١٧ من الميـــلاد

ثم في سنة ١٤٣٣ وصلت الى جزائر الاسوز ثم حصل استكشاف السنجال سنة ١٤٤٥ وفي سنة ١٤٧٣ جاوزوا خط الاستواء وفي سنة ٨٤ استكشف برطولي دياد راس عشم الخير وفي اثناء سعادة البرتغاليين بالتجارة ظهر كرستوف كلومب الاسبانيولي واستكشف الدنيا الجديدة في الثاني عشر من شهر اكتوبر الافرنكي سنة ١٤٩٣ وفي تلك المدة وصل البرتغاليون راس عشم الخير وجميع سواحل تلك الجهة ومن ذلك الوقت صار ما بين اوروبا والهند طريقًا مسلوكًا وعلم الناس بحر العجم والبحر الاحمر وخليج عومان وخليج بنغال وغير ذلك من بقاع شتى وذلك انه بين نحو مائة سنة كانت اغلب التجارة فيهـــا للبرتغاليين فاستكشفوا جزيرة ملقة سنة ١٥٠٠ وجزائر السند سنة ١٥١٠ وفي التي تليها جزيرة سيام ثم في التي تليها جزيرة ملوك وفي سنة ١٥١٦ استكشفت سواحل الصين وفي سنة ١٥٤٢

سواحل يابونيا ثم فعل الاسبانيون كما فعل البرتغاليون في جهات امريكا وفي سنة ١٥١٣ صار اغلب جهاتها معلوما مسلوكا وفي سنة ١٥٢٠ علمت الطريق من امريكا الى الهند وفي سنة ١٦١٠ كثر استكشاف جهات الدنيا الجديدة حتى علمت بتمامها

ومن حينئذ اتسعت دائرة التجارة والملاحة وجابت جميع الامم البحار بسفنها واستكشفوا كثيرًا من الجزائر ووقفوا على جميع الجهات المعمورة من الارض ولم يبق لهم مجهول يبحثون عليه غير الطريق الموصل للقطب الشمالي ووسط افريقا وهولندة الجديدة

وما ذكرته لك وان كان على وجه الاختصار الا انه يمكنك به ان تعلم كيف تقدم هذا العلم الى ان صارت الملاحة الآن اهون شيء حيث بني على قواعد بمقتضاها تجوز الفلك البحار العظام وتسير على خطوط معلومة مضبوطة بالحساب ويصل الناس الى اقصى اغراضهم من اي جهة من الكرة امنين مما كان يحصل في الازمان الخالية فان الملاحين كانوا اغراضًا لكل مخيف لقلة معرفتهم بهذا العلم فكانوا يضلون عن الطريق واذا تعددت الطرق لا يدرون النجاة في اي طريق فكان من يسيح منهم تطول عليه المدة

وبينما هما يتحدثان والى تلك الكرة ينظران اذ دخل عليهما الشيخ فاراد يعقوب ان يقطع الكلام فقال له الشيخ امض فيما انت

فيه فقال اني خشيت تضييع الوقت فاحببت ان اتكلم معه على الكرة في بعض مواد جغرافية ولكن حيث حضرتم فينبغي ان تقف عندما وصلنا ونخرج فقال وانا اريد ايضاً ان تبين لي مزية هذه الكرة وما عليها من الرسوم فاعاد له يعقوب حاصل ما تقدم بالاختصار ثم قال وسيكون ذلك ان شاء الله تعالى في مرة اخرى

فقال الشيخ بل انجز ذلك الان ونجعل خروجنا بعد ساعة فانه ليس المراد من الخروج غير الفسحة وطال ما كنت أتشوق الى الاطلاع على جغرافية قطعة اوروبا وكم سنح بخاطري ان اسال حضرة الخواجا عن ذلك فتحدث امور تمنع وحيث كنت الان بهذا الصدد فاروم منك شرح ما تعلمه فيها فقال يعقوب هذا بعض ما يجب علي

قطعة اوروبا محاطة ببحار من جميع الجهات الا جهة واحدة فمن جهة الشمال بالبحر المتجمد الشمالي ومن جهة الغرب بالبحر الاطلنطيقي ومن الجنوب بالبحر المتوسط ومن الشرق بجزء من البحر المتوسط وبالبحر الاسود وبخط وهمي يمر باعالي جبل القوقاز ويمتد الى بحر الخزر ثم بنهر اورال وجبالها وينتهي الى رأس ويجاز واكبر طولها خمسمائة وثلثون ميريامتر واكبر عرض منها ثلثمائة واربعة وثمانون ميريامتر وطول سواحلها البحرية ٢٢٧٣ ميريا متر وحدها في الارض طوله ٣٩١ ميريامتر ومساحتها ٩٧٧٫٨٠٤

ميريامتر مربع وعدد اهلها ٣٢٠٠٠٠٠٠ نفس وعلى حسب ارضها ومـا تشتمل عليه من الجبال يمكن تقسيمها الى جنوبية وشمالية فالاولى عبارة عن ارض مرتفعة جداً وبها جبال عالية مختلفة هيئة وانحدارًا وسواحلها البحرية خلجان كثيرة

وبارض ذلك الجزء انهر كثيرة تمتد في جميع جهاته وبهذه الصفات تكون محفوظة من الرياح الشمالية وعرضة للرياح الشرقية الافرنقية الرطبة بسبب البحر الموسط والثانية عبارة عن ارض واسعة وبرك متعددة ولهذه الصفات كانت عرضة للرياح الباردة الثلجية التي تهب من اسيا ومن البحر المتجمد الشمالي فارتفاع اوروبا الجنوبية وكثرة موانعها سبب في اتساع دائرة الفلاحة والتجارة بها وموجب لاستقلال اهلها وتمدنهم بخلاف اوروبا الشمالية فان ارضها مع اتساعها ليست مسكونة الا بامم فترآ متوحشين في قبضة حكومة تتصرف فيهم كيف شاءت وكل من الاثنين وان وجد في سواحله خلجان وبحر الا ان وضع البحر المتوسط الملاصق لاوروبا الجنوبية بين ثلاثة اقسام الدنيا اسيا وافريقا واوروبا هو الموجب لسعادة اهل هذا القسم منذ اربعة الاف سنة وهو منبع التمدن ومركز تجارة جميع الامم ولو قارنا قطعة اوروبا بغيرها من الارض لوجدناها اقل منها خيراً بالطبع فانه ليس بها ما بالاخرى من النبات والحيوان والمعادن واكثر ما يوجد بارضها الحديد وكان غالبها مغطى بالغابات لكن مع طول الزمن ومساعدة طيب الهوآ وهمة

هلها صارت اكثر بقاع الارض عمرانًا وخيرًا فالانسان هو الذي تدبيره كساها حلل البهاء فهي دليل على عظم قدر نوع الانسان وعلو شانه فقد جاب لها جمع انواع النبات النافعة من البقاع الشاسعة وكذلك جمع فيها انواع الحيوانات من جميع الجهات والف بين هذه الاجناس فتفرع من ذلك افنان التمدن وبعد ان كانت انهرها تمر في خلالها بغير فائدة عمل لها اهلها جسورًا قوية وطرقًا هندسية وسووا سطوح جبالها ونشفوا مستنقعاتها المضرة فاتسعت بذلك ارض الزراعة وعمرت بالمدن والبلاد وبحسن التدبير تسلطنوا على البحار واخترعوا في ذلك اختراعات كثيرة حتى وصلت رسائلهم الى جميع الجهات وجلبت منها جميع المحصولات فزادت ثروة اهلها وصحت ابدانهم وصارت ارضها انقى الارض هواء وأكثرها عمارًا وتنقسم اوروبا بالنظر للبحار المحيطة بها والانهر الموجودة داخلها الى سبعة اقسام طبيعيـــة

الاول الاندلس

الثاني فرانسا والجول

الثالث جرمانيا

الرابع ايتاليــا

الخامس الـــروم

السادس الروس

السابع اسكاندناوة

ويضاف الى ذلك قسم سكان الجزائر وهم الانكليز فتكون اقسامها به ثمانية وهذه الاقسام كانت مسكونة في الزمن السابق بست امم متباينة فكان في جزيرة اليونان والروم وجنوب ايتاليا امة يقال لها البيلاسك وفي شمال ايتاليا وبحيث جزيرة الاندلس امة يقال لها الايبير وفي الجول وجزائر الانكليز امة الجال او الكلت وفي جرمانيا والسكاندناوه الجرمانيون وكانت تنقسم الى كيمريس وتوتون وجوت وبارض الروس كان السلاف والفنواي واول امة منهم دخل فيها التمدن هي الامة الرومية فالروم هم السابقون في ذلك وعنهم اخذ من جاورهم من الامم ولكن لم يغيروا شيئًا من عوائد الامم الذين استولوا عليهم وغاية ما هنالك انه خرج اناس منهم الى ايتاليا وجزائر البحر المتوسط وبعض من جهات الجول وكانت جل همتهم بلاد المشرق فاسسوا بها دولة عظيمة وتبعهم الرومانيون وهم امة صغيرة من الايتاليين استولوا باستمرار الحروب على الثلاث الاول من الامم الست المذكورة واختلطوا بالخامسة وجهلوا البقية

فلما تمكنت دولتهم وقويت شوكتهم واتسعت مملكتهم تغيرت جغرافية اوروبا الجنوبية وذلك لان ملكهم وصل من جهة الغرب الى البحر الاطلنطيقي ومن الشمال الى نهر الرين ونهر الطونة ومن الشرق والجنوب الى حدود اوروبا من ابتداء مصب الطونة في البحر الاسود الى بغاز الطارق وكان حكمهم ممتدًا كثيرًا فيحكمون

على جميع الجهة الشرقية من اسيا والشمالية من افريقا وكانت مملكتهم مقسمة الى ولايات منها ولاية الروم وولاية ايتاليا وولاية اسبانيا وولاية الجول وولاية بروتانيا وغيرها مما على شاطئ نهر الطونة الايمن ثم في سنة ٣٦٤ من الميلاد انقسمت تلك الدولة الى دولتين مشرقية ومغربية فكان يتبع الدولة المشرقية الروم وبعض جهات من اوروبا وولايات اسيا جميعها والجهة الشمالية الشرقية من افريقا ويتبع الدولة الغربية جميع ما بقي من افريقة من الشمال الغربي وما بقي من اوروبا

وبعد تلك الايام قامت الامم المتبربرة التي كانت متوطنة بالجهات الشمالية من اوروبا واغارت على الجهات الجنوبية منها واستولوا عليها وابطلوا دولة الرومانيين المغربية وغيروا ترتيب سياسة اوروبا وسموا الارض بغير اسمائها فلذلك تغيرت جغرافية هذا القسم

والذي استولى على جزيرة الاندلس من تلك الامم امة يقال لها الويزجوث وعلى ارض الجول امة منهم يقال لها الفرنج والذي استولى على ايتاليا الاستروجوث ثم اللومبـاردي وعلى جزائر الانكليز الانجل والسكس وعلى ارض جرمانيا السلاف اي الصقالبة ولم يبقَ من دولة الروم المشرقية الا ارض الروم فقط

فازمانهم كانت فتنًا وحروبًا وسفك دماء واستمر ذلك الى سنة ثمانمائة ميلادية ثم قويت الفرنج واسست دولة المغرب وكانت

تشتمل على الجول وايتاليا وجرمانيا الى نهر الطونة وخمدت سطوة الاقوام المتبربرة وابتدأت جرمانيا في التمدن وسمع باسم البلغاريين والبوهيم وغيرهم وظهرت دول صغيرة منها دينمرك ونورويج وسويد وفينلند وظهر اسم الروس

ثم دخلت العرب اوروبا واستحوذت على الاندلس وانتزعتها من الاوروباويين وادخلت جزائر الروم في ضمن اسيا

واستمر النزاع بينهم الى سنة ٨٤٣ ثم زالت دولة الفرنج بالكلية وظهر بدلها ثلاث دول من الامم الثلاث التي كانت متركبة منها وهي فرانسا وايتاليا والمانيا وفي القرن الحادي عشر انقسمت اوروبا الى دول صغيرة فكان في الاندلس ثلاث دول وهي نوار وليون وكاستيل

وفي الجول فرانسا واللورين والبرونس وغيرها وفي جرمانيا المانيا وبوهيم والهنجري الذين هم المجر والبولونيا اي اللاه ودينمرك وسويد ونورويج وسكنديناوة والروسية وغير ذلك وفي ايتاليا ايتاليا وصقلية وغير ذلك وفي جزائر الانكليز ثلاث دول بروتانيا وايكوسا وارلاندة وبقيت مملكة الاسلام والروم خارجة عن اوروبا وبتوالي الازمان وتقلب الحدثان تداخلت الدول بعضها في بعض

ففي القرن السادس عشر تغلب بيت ملك انمسا على

اوروبا وغيّر ترتيبها فدخلت جزائر اليونان في مملكة الترك وانعزلت عن اوروبا

وانقسمت ايطاليا الى سبع دول وانفصلت جزيرة الاندلس من مملكة الاسلام وصارت اربع دول من ضمنها مملكة البرتغال

وانقسمت فرانسا الى اكثر من اثنتي عشرة دولة وجرمانيا الى اربع دول المانيا والمجر واللاه ودينمارك

وانقسم الروس الى امارتين امارة ليتاني وامارة مسكو وهذه الاخيرة مركبة من خلق مجهولة احوالهم

وانقسم السكنديناوة الى مملكتين السويد ونورويج

وانقسم الانكليز الى ثلاث ممالك بروتانيا وايكوس وارلانده وكانت نيران الحرب في تلك المدة مشتعلة ليتخلص من قهر ملك النمسا من كان تحته من الامم فاستمر ذلك مائة وخمسين عاماً ثم انغلب ملك النمسا وخرج كثير من ملكه الذي كان مشتملا على بجزيرة الاندلس وايتاليا والبلاد الواطية (هولاندة) وعملت بين الدول شروط تعرف في التاريخ بشروط ويستفالي وعلى مقتضاها ترتبت اوروبا ترتيباً جديدا استمروا عليه الى سنة ١٧٨٩ فكانت حينئذٍ بلاد الروم في قبضة الترك وايتاليا كانت منقسمة كما كانت في القرن السادس عشر وجزيرة الاندلس كانت منقسمة الى دولتين اسبانيا والبرتغال والجول الى عدة دول صغيرة وجرمانيا الى المانيا وبروسيا ودينمارك واللاه والمجر

والى دولة مركبة من عدة جهات وصار الروس دولة واحدة وبقيت السكنديناوة على ما كانت عليه وصارت جزائر الانكليز دولة واحدة

وكذا الحروب التي حدثت عن قيام فرانسا غيرت هيئة اوروبا تغييرًا كبيرًا ففي سنة ١٧٩٧ كان لفرنسا حدودها الطبيعية ما عدا سويسرة ثم زالت دولة ونديك اي البندقانيين وقسمت دولة اللاه بين البروسيا والروسية والنمسا وفي سنة ١٨٠٢ انضمت ولاية البيومنتي الى فرنسا وزالت دولة المانيا وفي سنة ١٨٠٦ عوضت بدولة النمسا وتكونت من ولايات باويرا وويرتانبرج وسكس وولايات اخرى ودولة المانيا المتعاهدة وانفصل من ايتاليا جهاتها الشمالية واستقلت وملكت فرانسا عدة ولايات اضافتها لملكها وفي سنة ١٨٠٧ خرج كثير من الولايات الداخلة في البروسيا من قبضتها وصارت ممالك مستقلة منها ولاية الويستفالي وخرجت ايضًا عنها ولاية اللاه واستقلت باسم وارسووي

وفي سنة ١٨٢١ اتسعت دولة فرانسا وخرجت عن حدها الاصلي بادخال هولاندة وسواحل البحر الشمالي وضمت لها التوسكاني وولايات الكنيسة الرومانية وكانت تحكم على ولايات نهر الرين وجزائر الروم وايتاليا ونابلي واسبانيا والبرتغال وغير ذلك

وكان من جملة الشروط التي ترتبت عليها اوروبا المنعقدة

سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٥ ان يكون جزء من جزائر الروم تحت
حكم الترك وان يكون الباقي منها على الاستقلال هو مملكة الروم
وصارت ايتاليا عبارة عن امارة صنلية وامارة الكنيسة وامارة
توسكانا وامارات اخرى صغيرة وصارت حكومة الجول عبارة عن
مملكة وجزء منها صار هو مملكة هولاندة وجزء اخر اعطي للبروسيا
وغير ذلك وانقسمت جرمانيا الى تسع وثلاثين ولاية متعاهدة
اكبرها النمسا وبروسيا وان يكون جميع شمال اوروبا واسكنديناوة
في تصرف الروسيا وكانت منقسمة الى ولايتين تحت تصرف
ملك واحد وصارت جزائر الانكليز دولة واحدة ويوجد في هولاء
القوم الى الان اثار عوائدهم ولغاتهم الاصلية فالروم اغلب اهلها
من البيلاسك ولغتهم من لغة الروم القديمة واغلب ايتاليا من
الامة القديمة ودخل معهم الجرمانيون في الجهة الشمالية ودخل في
الجنوبية العرب ولغتهم صارت من الرومية وبقي في جزيرة الاندلس
ما قل من الامة الاصلية واغلبها من الرومانيين والويزيجون
والعرب ولسانهم من اللغة الرومانية وفي الجول قليل من سكانها
الاول واكثرها اخلاط من الرومانيين والجرمانيين ولسانهم مأخوذ
من الرومانيين واغلب سكان جرمانيا من النسل القديم والسلاو
ولسانهم هو لسان ابائهم الاول من غير تغيير والروس عبارة عن
سلاو وفينول ولسانهم اللسان القديم واهل السكندناوة والتوتونيون
لسانهم هو القديم ايضاً ونصف اهل جزائر الانكليز من الامة

الاصلية والنصف الثاني من الجرمانيين والرومانيين ولسانهم مشتق من لسان التوتون مع اللسان الروماني او الفرنساوي وفي جهة الجبال يوجد بعض يتكلم بلسان السلت التتار وهم الامة الاصلية وبعض اخر اتراك وجراكسة وباوروبا في هذه الحالة ثلاثة انواع من سكانها الاصليين ففي جهة الجنوب الطائفة اليونانية الرومانية وهم ينقسمون الى اروام وتليانيين واندلسيين وفرنساوية وعددهم نحو سبعين مليونًا

وفي الوسط والغرب نوع التوتون وينقسم الى المانيين وسكنديناوة وانكليز وعددهم نحو ستين مليونا وفي الشمال والشرق عائلة السلاو أي الصقالبة وتنقسم الى الروس والسلاه وعددهم سبعون مليونا والى الفينوى والترك واليهود وغيرهم ويقربون من عشرين مليونًا وغالب اهل اوروبا يتدينون بدين النصرانية وهناك قليل من المسلمين واليهود وفي بعض بقاع صغيرة في جهتها الشمالية عباد اوثان واهل الجهة الجنوبية يبلغ عددهم نحو مائة مليون والروم بالجهة الشرقية وعددهم ستون مليونًا والبروتستان بالجهة الشمالية وعددهم خمسون مليونًا والمسلمون واليهود وغيرهم نحو عشرة ملايين

واما جيوش الدول الاوروباوية فعددهم يقرب من مليونين من المقاتلين في وقت السلم ويصرف عليهم في العام ما يقرب من خمس ايراد ممالكها

ثم انه خشي طول المجلس فقال وهذا الذي ذكرته في هـذه الساعة انما هو على وجه الاجما ل والاختصار وان شاء الله تعالى في مرة اخرى ابين لكما كل دولة على حدتها

فقال ابن الشيخ كنت اود ان توقفني على البحر المتجهد وكيفيته وهل يستطيع احد ان يقرب منه فقال الشيخ نجعل الكلام في ذلك بالعربة ثم قاموا وركبوها

المسامرة (١٠١)

نزهة في باريس

فقال الشيخ اني ما خرجت مرة بهذه البلدة الا وعجبت من كبرها وكثرة اهلها وتتابع حركتهم ليلا ونهارًا وكان الشيخ يتضرر من سكناه داخل البلد لما يرى ويسمع دائما من الحركات القوية والاصوات الانسانية والحيوانية فان العربات ليلاً ونهارًا تمرّ وتكر فيكون لعجلاتها اصوات في تصادمها بالاحجار المفروشة في الطرقات

ولشبابيك الدور والقصور والحوانيت ارتجاج من الارياح والفتح والغلق وللسكارى واصحاب الالعاب والحظوظ اصوات والحان وذهاب وإياب وكل ذلك يورث القلق وتشويش البال وتعطيل الاشغال فقال ليعقوب لو سكنا خارج البلد لكان بنا اوفق ولصحة جسمنا ابقى وارفق فقال يعقوب رأي الشيخ في محله فان الخواجا ايضاً متضرر من الاقامة بهذا المحل ولكن الذي الجأه الى الاقامة به قربه من محل شغله واصحابه وقد وصف لي محلاً اوسع من هذا يطل على حديقة وبينه وبين الشارع مسافة ولو كان عند الخواجا خبر بتضرركم من هذا المحل لبادر الى النقلة وما تاخر فاثنى الشيخ عليهما ثم قال ان مدينة باريز لمن اعجب مدن الدنيا بما حوته من المحاسن والزخارف والتحف واللطائف وثروة اهلها وحسن بنائها واظن ان عيشة الفقراء بها ضنكة لكثرة اهلها

فقال يعقوب ربما كان حال الفقير بها احسن منه بغيرها فان اصحاب المال كما يعملون الاعمال العظيمة ليربحوا كثيراً كذلك الفقراء لهم طرق متنوعة يصلون بها الى اقواتهم وتلذذاتهم على حسب حالهم وفقراء كل مدينة على حسبها وكل ما كبرت المدينة وزاد بها زهو الاغنيا كثرت بها طرق معاش الفقراء فانهم مع انتشارهم في الخدم والوظائف يتبعون اموراً كثيرة لا يعلمها الا من دقق النظر اليهم مثلا البواب لا يقتصر على وظيفته بل يرى هو وعياله مشغولين بما يجلب لهم سعة المعاش فالرجل

يخصف النعال والمداسات والمرأة تخيط الثياب والبنت تغني وتعلم الغنا والولد يسحق اجزاء الملونات واذا تاملت تجد بالدروب اناساً فقراء يجمعون من التراب والطين قطع حديد ومسامير ورجالا واطفالا يمسحون مراكيب الناس واخرين يقصون شعر الكلاب واخرين يبيعون الكبريت والحلاوة او المشروبات للاطفال ومنهم من ينادي على الملابس العتيقة ومن يبيع الرياحين واوراق الحوادث والاعلانات وقطع اللعب داخل التياترات وهذه الامور وان كانت في الظاهر قليلة الفائدة لكن كثيرًا ما وصل بها الفقراء الى ملك عقار ومال حتى عدوا من وجوه الناس واظن انك رايت اناساً بالليل يجمعون الورق الملقى بالطرق والعظام فقال نعم قال هذه امور تعيش منها خلق كثيرون ويكسبون منها قوت عيالهم وهناك طوائف كثيرة عيشتهم من التملق والكذب والتجسس والخيانة ونحو ذلك مما يوجد في المدن الكبيرة

فقال ابن الشيخ بالقاهرة كثير من الناس يجمعون فضلات السجارات التي ترمى وياخذون منها الدخان ويبيعونه بالاسواق ويتقاتون بثمنها واخرون يجمعون قطع الزجاج ويبيعونها لمن يصنعها اساور لفقراء النساء ونحو ذلك

فقال الشيخ ان الله سبحانه وتعالى يسر لعباده طرق الارزاق وهو في الحقيقة الرزاق فجعل لكل مخلوق وجهًا يصل اليه منه

رزقه الذي تقوم به حياته فسبحان مسبب الاسباب وهو المعطي الوهاب فقال يعقوب مدينة باريز فضلاً عن كونها مركزًا للهو واللعب والحظ والطرب هي ايضًا مركز لتجارة واسعة ترد اليها من جميع اطراف دولتها ومن جميع اقطار الدنيا وتصدر منها الى البقاع كافة فلا بقعة في الارض الا وترد اليها منها بضاعة تجدها مرغوبة لجميع الناس لاحكام صنعتها وحسن رونقها وبهجتها فكل اهل اوروبا يرغبون فيها ولا يستغنون عنها وكذا آسيا وافريقا وامريكا وجزائر الاوقيانوس فلذلك تعلق الباريزيون بالاشتغال بالصنائع واكثروا من الورَش والمعامل فاتسعت دائرة تجارتهم فتراها بذلك منبع الصنائع اللطيفة والتحف المنيفة فليست تحت دولتها فقط بل تحت دول الكرة بتمامها

ثم قال ايها الشيخ قد صرنا خارج البلد فينبغي أن نصرف هذه الساعة في التروح والتنزه وإن شاء الله تعالى ابين لكما ما اشتملت عليه باريز من الصنائع وما فيها من الورش والمعامل وبيوت الاعمال فنظر الشيخ يمينا وشمالا وقال ما الطف هذا النسيم شتان ما بينه وبين ما في داخل البلد فما هنا من مورث الصحة بسبب صفاء الهواء بقدر ما هناك من موجب المرض بسبب كدورة الهواء والعفونات فلنعم انت من انسان حيث جئت بنا الى هذا المكان ثم صار يكرر الالتفات يمينًا وشمالا نحو القصور فيجد بعضها بحافة الطريق والبعض بعيدًا عنها وكل منها داخل

حديقة حسنة الشكل منظمة الوضع فيها من كل انواع الاشجار والازهار وكان يرى اودية بين القصور فيها البقول والخضراوات وتارة يجد ارضًا متسعة كلها اشجار ملتفة وازهار موتلفة الا ان بعضها مرتفع وبعضها منخفض وفي بعض اماكن جبالا وهضبات مرتفعة متراكمة بعضها فوق بعض كطبقات الثوب وما نظر الى جهة الا راى الشمس قد رسمت على سطحها صورا مختلفة من ظل الصخور والاشجار التي بها فكانت الرياح بها تخفق والاغصان ببعضها تصفق وتخيل للشيخ في ذلك الوقت ان هناك موسقى تضرب لما يسمعه من حفيف الاشجار وتغريد الاطيار وصياح البلابل وترنم العنادل وتارة كان يمتزج حفيف الشجر بخرير الجداول والانهار وتغريد القماري والاطيار فتفكر الشيخ في محكم هذا الصنع وقال من تامل لحركات هذه الاشجار قال انها متمتعة بالحياة في هذه الدار ولها شهوات كما للحيوانات فترى البعض يخضع ويتضع والبعض يعلو ويرتفع والبعض يتمايل وينعطف على غيره والبعض مضطرب اضطراب المتعادين واخر ينضم انضمام المتحابين فكان الالفة والتحاب والتنافر والاجتناب كما يكون بين نوع الانسان يكون بين الطيور والاغصان فترى البعض كمن ذهب وقاره او اذاه جاره والبعض كمن افتقر بعد الغنا او فارقه خلانه حتى آل الى الفنا ففيها المجرد عن اوراقه والمجروح باحتكاك الاخر فيه وخالي الجوف من طول معيشته

وخصوصا اذا كان مجاوراً للقائم على ساقه المزدهي بغصونه واوراقه ومنها كالمظهر للدلال يميل مع الريح حيث مال

وفيها ما يحيط به شيء من جنسه وغير جنسه فهذا كمن نال درج العز في هذه الدنيا فما من كبير او صغير الا ويدل على عظمة الخالق اللطيف الخبير

وبينا هم كذلك اذ وصلوا الى عين ماء فنزلوا جميعا ثم قال يعقوب للفرنجي خذ هذه الدراهم وتوجه الى تلك اللوكاندة وهيء لنا طعامًا فتوجه وفي الحال احضر لهم الطعام فمالوا به نحو العين فاكلوا

ثم قال الشيخ ان النفس بهذا المكان قد انبسطت والابدان من وخامة البلد قد نشطت وصار الذهن صافيا والوقت موافيًا فان تفضلت علينا وتلوت باقي قصتك كان حسنًا

المسامرة (١٠٣)

تتمة حكاية يعقوب واخته

فقال يعقوب نعم اني كنت ذكرت لحضرتكم اني بعد حضوري الى لوندرة وتمام ما كان من امر الدراهم التي كنت اودعتها عند زوجة القبطان قصدت البلد لانظر ماذا حصل لاختي في تلك المدة التي قضيتها في الاسر فدخلت قبل غروب الشمس فتوجهت الى منزل الست التي كنت انا واختي عندها فوجدت احوالها متغيرة ولم اجد احداً بالمنزل ممن كنت اعرفهم بل كلهم مستحدثون فسألتهم عن اختي فلم يفدني احد منهم شيئًا انما اخبرت بان صاحبة المنزل ماتت منذ ثلاث سنوات وقد باع زوجها منزلها وتوجه مع اخته واولاده الى بلاد الهند فخرجت الى حانوت الجزمي معلمي فلما وقع نظره عليّ قام وعانقني واجلسني بجانبه ثم دار بيننا الحديث

فسألني عما جرى فقصصت عليه قصتي بالاختصار ثم سالته عن
اختي فقال هي وحدها في المكان الفلاني اخذته منذ سنة وصار
يتاسف على ما نابني ويلازمني على مخالفتي له ثم استأذنته في التوجه
الى اختي فقام معي واخذ بيدي وسرنا حتى وصلنا البيت فسالت
زوجة البواب عن ثمرة مسكنها فدلتني فصعدنا حتى وصلنا المكان
وطرقت الباب ففتحت فلما وقع بصرها عليَّ تعانقنا والمعلم ينظر
الينا ثم جلسنا وجلس المعلم معنا قليلاً ثم ودعنا وانصرف فقضينا
غالب الليل نتحدَّث فيما وقع لنا من الحوادث فكان مما حدثتني
به ان قالت انها لما انقطع خبري عنها حزنت حزناً شديداً وكانت
الست لمحبتها لها تصبرها وتسليها حتى البستها ثوب الصبر ولكن
كانت تعتزل الناس احياناً وتبكي عليَّ واستمرَّت كذلك الى ان
ماتت الست فخرجت من البيت ولم ترضَ بخدمة غيرها واخذت
هذا المسكن وكانت تقتات من صنعة الخياطة ولها مهارة فيها
وكانت حلوة اللسان فألفها كثير من الناس وقدموها على غيرها
من الخياطين فاتخذت لها حانوتاً جمعت فيه عدة من البنات
وكانت تصرف عليهن فاكتسبت من ذلك نحو ثلثمائة جنيه فقلت
لها يا اختي لو جمعنا ما تحصلنا عليه لعشنا سوية في ارغد عيش
ففرحت بذلك وبحثت على محل واسع واستاجرته لنا وصرنا معاً
فكنت اخرج معها بعد تمام اشغالنا نحو النابات حول البلد وتارةً
نحو البلاد المجاورة واخرى في ارض الزراعة او في حارات البلد

فكنت اسمع منها عبارات حسنة عند ذكرها ما رأته من الحوادث وما عاينته من المشاق مدة الافتراق وفي الخلوات كانت تملأ قلبي سرورًا بانغام لطيفة تسمعني اياها ولكنها كانت اذا ذكرت ما رات من الحوادث وما قاست من الشدائد والم الفراق تدمع عيناهـا فاطيب خاطرها واسليها وكثيرًا ما ارى على وجهها السير فاسالها فلا تفيدني شيئًا وكانت في بعض الاوقات تذكر الترهب وتمدحه وتمدح العزلة عن الخلق وكثيرًا ما قالت لي انت السبب في حبي للبقاء في الدنيا فاسمع كلامها ولا افكر في معناه لكن لما تكررت منها هذه العبارات في كثير من الاحيان خطر ببالي انها تخفي عني بعض احوالها فكنت اكثر الاستفهام منها فلا تفيدني ومضى علينا احد عشر شهرًا ونحن على هذه الحال ثم بعد ان كانت تظهر السرور احيانا اكثرت من البكاء فكنت ادخل عليها بغتة فاجدها تبكي بكاء شديدًا فاذا راتني سكتت فداخلني الوسواس وضاق صدري وزاد همي وفقدت راحتي حتى تمنيت الموت وعلى قدر ما كنت ارغب في معرفة السبب كانت تجتهد في اخفائه عليّ فصرت بهذه الاسباب اقضي غالب الايام سياحة في البلاد وفي الغابات فكنت اغيب اسبوعين او اكثر واعود فلا اجدها تحولت عن حالها حتى اعتراها النحول وزاد مرضها فاستاذنتها في التوجه الى لوندرة لافرج عن نفسي فتوجهت واقمت هنـاك نحو اسبوعين ثم عدت فلم اجدهـا بالمنزل وسالت

عنها فقيل لي انها خرجت وما عادت فضقت ذرعا من ذلك حتى كدت أقتل نفسي وتراكمت عليّ مصائب الدهر ورأيتني وحيداً كما كنت في بــلاد الغربة فخطر ببالي الاختلاط بالناس عسى ان تزول عني افكاري وتهون علي احزاني فلما اختلطت بهم تحققت خطاء ظني لما كنت اعاينه عند مخالطتهم من فساد افكارهم لاني كنت اذا تكلمت لا يسمعون مني وان اصغيت لقولهم فلا استفيد منهم شيئًا وجاهدت نفسي على ان اعودها الائتلاف بهم فلم يمكن فاحترت حيرة شديدة وضاقت عليّ الارض بما رحبت واحببت ان اسكن جهة من البلد غير مطروقة واعيش فيهـا وحيدًا عن الناس بعيدًا وكانت تظهر لي ابتداء لذة العزلة عن الناس واذا اجتمعت بهم كاني في فلاة خالية منهم فلا التفت لما يفعلون ولا اصغي لما يقولون وكانت اكثر اوقات النهار تمضي وانا بالكنيسة متفكرًا في حوادث الدهر وكنت ارى فيها بعض نساء خاضعة خاشعة من خشية الله تعالى واخر يطلبن غفر ذنوبهن وبعد خروجهن يرى على وجوههن السرور فكانت الشهوات البشرية تتلاطم امواجها خارج المعبد وتتقد في داخله ففي تلك اللحظات كنت اطلب الخلاص من اهوال الدنيا بالموت ليطمئن قلبي وفي الغروب اتوجه نحو مسكني فاكثر النظر للشمس حين الغروب وللابخرة المتصاعدة باشعتها من المدينة فكانت تظهر لي كانها تتماوج في مائع من ذهب وفي الليل كنت امر من وسط

الحارات وانظر فيما حواليّ واتفكر في وجودي ببلدة مثل هذه كبيرة
ولا صاحب لي بها ولا حبيب ومن مبدأ عمري وانا في الهوان
الى هذا الان وبعد ما ظننت ان الهموم انقضت باجتماعي باختي
ساءني الدهر بفرقتها من غير ان تعلمني بمستقرها وما دريت ماذا
حسن لها ذلك مع علمها ان لا محب لها غيري فكان ذلك يهيج
أشجاني ويزيد احزاني فحل بجسمي السقم وزاد الألم فكنت بسبب ذلك
امضي الايام متفكرًا ومن هذه الامور متحيرًا ثم طرأ عليّ في يوم ان
اذهب نحو الغابات واعتزل عن المخلوقات مدة الدهر الى انقضاء
العمر فذهبت الى ما اردت فضوعف عليّ العذاب امثالاً وزاد
البدن اضمحلالاً وزاد بي الفكر واشتد عليّ الامر وقضيت مدة
طويلة على هذه الحال فكنت اقيم في الغابة تارة واسيح فوق روس
الجبال اخرى لا ارى غير السحاب ولا اسمع غير الرعد وكنت ارى
القرى على بعد كانها نقط سود حولها دخان واتفكر في الرعاة
والزراع حين روٴيتي لهم على بعد فاقول ما من احد منهم الا وله
الف يترقب عوده وقلب يحن له حين يجتمع به فكل منهم له امر يهمه
وانت يا يعقوب حكم عليك القاهر بالعزلة وكيف تطلب الراحة
بها مع انك لم تجدها فيها وماذا عليك اذا اقتديت بغيرك ورجعت
الى العمران واخترت من النسا امرأة تقضي زمنك معها وتشتغل
بامر تتعيش منه وربما رزقت باولاد تفرح بهم وتزول بهم عنك هذه
الهموم فكنت ارتاح بتلك الافكار ثم بعد قليل اقول اي انسان

يرضى باعطائك ابنته ولا حسب لك ولا نسب لا سيما وهم يعرفون اصلك ومحل تربيتك وعلى فرض وجود من يرضى بك فمن يكفل لك دوام المعاشرة واستمرار المودة وكيف اطمئن الى معاشرة الناس مع ان ما حصل من اختي شقيقتي شاهد بعدم بقاء المودة بيني وبينهم وهل احد اقرب اليّ من اختي ثم تكر عليّ الافكار المحزنة بجيوشها حتى اقول ان كانت الحياة هكذا فالموت احسن من الحياة وجمع الاموال بمقاساة الاهوال فكنت متردداً غريقًا في بحار الافكار لا اقف عند رأي ارتضيه واذا وقفت تغير لوقته فصرت كسفينة في لجة تسير مع كل هواء هب وموج دب وكلما تأملت احوال الخلق سئمت عشرتهم وانغصت العتهم وفي بعض الاحيان كنت الوم نفسي واقول ما من احد الا وله امر يهمه ولا بد من مرور هموم الدنيا على كل احد فلا صغير ولا كبير ولا حقير ولا امير الا ويلحقه امور تكدره فيلزمه ان يستعد لها ويصبر عند نزولها وعلى العاقل ان يسير مع الناس في طباعهم واخلاقهم وليس له ان يحكم على الناس بطبعه فينبغي لك ان تلتزم بالخطاء في امورك وتنزع ثياب العزلة والحزن عنك فكنت ارجع الى البلد واخالط الناس مجتهدًا في موافقتهم والسير حسب طباعهم فعزم عليّ معلمي بالاقامة عنده لما بلغه خبر اختي فقلت له ان ضعف قوّتي وشغل فكرتي يمنعان من ذلك ووعدته اني ان اقمت في البلد لا اجعل اقامتي الا معك فكنت اتردد عليه احيانًا وهو يوادني ومضى نحو اربعة اشهر.

على ذلك وانا غير مشتغل بامر و في تلك المدة ما تركت بلدة الا ذهبت اليها لاستخبر عن اختي و بسبب انها كانت تخبرني بحب الرهبانية ظننت انها تكون في احد الديورة فطفت على جميعها فلم اقف لها على خبر ولم اعثر لها باثر والعجب اني ما سمعت بخبرها من احد من اهل البلد وكانها قد ابتلعتها الغبرآء او اختطفتها النسور الى السمآء ثم دخلت المسكن ذات يوم بعد عودي من لوندرة وكنت فارقته من مدة خمسة عشر يومًا فوجدت على الطاولة مظروفا ففضضته فوجدته من اختي فطار لبي وخفقت بلابل قلبي فقراته فاذا فيه

أخي وعزيزي وقرة عيني الله يشهد على ما بقلبي من حبي لك ولو ملكت بذل روحي لتكون زيادة في عمرك لفعلت وارغب ان اصرف جميع طيباتي في جلب السرور لك ولكني حقيرة ذليلة وقد قاسيت من دهري ما لا يقاسيه غيري وهذا سبب فراقي لك واختياري الرهبانية والعزلة ما دمت حية فارجوك الصفح عما حصل مني في خروجي عنك وانفصالي منك بدون علمك وما بعثني على ذلك الا خوف منعك لي عما سنح بفكري مع تصميمي عليه وطيران قلبي اليه وانت تعلم بميلي للرهبانية وتعلم اني ليس لي راحة في سواها فعذري قائم لديك وحالي لا يخفى عليك وقد علمت بميلي للرهبانية ومن وقت خروجي من عندك الى الان وانا في الدير الفلاني وقد اخترته على غيره لما فيه من الراحة لي لحسن موقعه وكثرة مزاياه ولي خلوة

أتعبد فيها منى دخلتها كان البحر تحت نظري وامواجه تؤانس وحشتي وتذهب الم وحدتي وموقع هذا الدير فوق الجبل بعيد عن كل طريق والغابات محيطة به يذكرني الايام التي مضت علينا في الاجتماع مع الهناء والسرور فافرج بذلك كربتي ويكفيك مني معرفتك قدر حبي لك واني ما اخترت العزلة الا لراحتك ولو عرفت فائدة في معرفتك الاسباب الموجبة لذلك لعرفتك اياها ولكن معرفتها لا تزيدك الا كربا على كربك وهما على همك وقد حررت لك كتابي هذا بدموع عيني فارجوك قرآءته بعين الرضى عني فهي عن كل عيب كليلة ومع كل هذا فلا حيلة في حكم القادر فارجوك ان تصفح عني الصفح الجميل وتقبل عذري ولا تخيب ظني فيما رجوت فقلب اختك بالبين اكتوى وازداد به الم الجوى وارجوك ان لا تنعزل عن الناس وان تتزوج لك امرأة تقوم بشأنك لتزول عنك الاكدار واذا تزوجت بامرأة فيرجى ان ترزق منها بالذرية التي بها يكون سرورك ثم اني ما اتممت قراءة هذا الكتاب الا وقلبي في خفقان واضطراب فقلت في نفسي ما هذا السر الذي تخفيه عني واوجب مفارقتها لذة الدنيا مع حداثة سنها ولاي شيء دفنت نفسها بالحياة فلا بد لذلك من شان عظيم وخطب جسيم ثم فتحت الكتاب وقرأته ثانيًا وقلت ربما يكون فاتني شيء منه اول مرة لم افهم معناه فلم افهم منه اكثر مما فهمت اولاً انما يلوح من الفاظه صورة محزنة فهمت منها انها ربما احبت انسانًا وتخلى عنها

او تحققت عدم الوصول اليه بوجه حل اما نظرًا لحالها او حاله وقوي هذا عندي بامور تذكرتها كنت اراها منها من ذلك انهــا كانت تكتب مكاتيب وترسلها مجتهدة في اخفائها عني وقــد قوي عندي هذا الظن حتى حاولت صرفه فلم ينصرف فاخذت ورقة وسطرت فيها ما يتضمن استعطافها ورجاءي منها ان تسمح لي بشرح حقيقة امرها ولمحت لها بما خطر بفكري لكن بلطف وارسلته بالبوسطة فلم يمض غير قليل الا وورد منها افادة لم تفدني بها شيأ غير نهيها لي عن العزلة وتحريضي على الانس بالناس والحث عليّ بالزواج فعند ذلك عزمت على التوجه اليها وافعل ما يمكنني في نهيها وردعها عما هي فيه لعلها تسمع مني فسرت اليها بعد جمع ما بقي من الدراهم فلما وصلت الى الدير سألت عنها فقيل لي انها لا تكلم احدًا فكتبت لها مكتوبًا فافادتني في رده انها اعدت نفسها لخدمة المسيح وليس معها وقت تشتغل فيه بامور الدنيا

ومن ضمن كتابها انها قالت ان كنت تعزني حقيقة وتحبّ لي الخير فلا تشغلني عن التوجه الى الرب والتجرد عن الاشغال بالخلق فان رؤيتك لي تشغلني عن العبادة نعم ان رضيت ان تكون لي والدًا يوم الاعتراف كما هو الاوفق بمروءتك اذنت لك لك بالدخول عليّ فعجبت من صدور تلك العبارات عنها مع علمها بما عندي من الحزن عليها وغرقت في بحر فكري فكنت تارة اقول ينبغي الرجوع حالا وتارة اقيم هنا حتى انظرها وتارة اقول

اقتل نفسي وقت دخولها الكنيسة مع الرهبان فاريح نفسي من تلك الاهوال واحرق قلبها وانغص عيشها كما احرقت كبدي وكدرت صفوي ونغصت عليّ عيشي حيث دفنت نفسها بالحياة

وبينا انا كذلك جاءني خبر من رئيسة الدير بانها قد اعدت لنا دكة نجلس عليها يوم المحضر وهو اليوم القابل فاقمت بقية اليوم والليلة بتمامها كأني اتقلب على جمر الغضا حتى اسفر الفجر فقمت الى باب المعبد الذي هي فيه فوجدت هناك خلقاً كثيرين فوقفت معهم فجاء رجل واخذ بيدي واجلسني على الدكة قريب المحراب فصرت اقلب نظري يمينـاً وشمالاً ثم بعد برهة فتح باب صغير فخرجت منه اختي وعليها من الجمال وثياب الزينة ما لا يوصف فنسيت عند ذلك همومي واعتراني من الخشوع وتعظيم الدين ما لم يكن من قبل وكنت انظر اليها بعين المحبة والتعظيم وهي تخطر والقسيسون حولها حتى اجلسوها تحت مظلة ثم تجرد احد القسيسين عن زينته وابقى عليه ثوب كتان وصعد المنبر وخطب خطبة قصيرة ذكر فيها سعادة البكر التي حضرت ووهبت نفسها لخدمة المسيح وفي الحال تضوعت الروائح الزكية من جميع جهات المعبد وكانت الناس تقلب النظر من القسيس اليها ومنها اليه ثم نزل من فوق المنبر ولبس ثيابه الرسمية وامر بتين فأتتا باختي الى اخر درجة من المحراب فهناك جثت على ركبتيها ثم دعوني لأؤدي واجبات الابوّة فتمثلت بين يدي القسيس

لاناوله المقص فرجع حينئذٍ ما كنت ظننت زواله وعظم عندي الكرب وظهر لي انها لم تتمالك نفسها بل كادت ان يغشى عليها الاّ انها نظرت اليّ نظرة معتذر متجلد فهدت وداخلني خشوع ثم اجرى المقص على راسها فازال شعرها الذي كان يسترها اذا نشرته ويلحق الارض اذا ارسلته ثم اتى لها بثوب من صوف فلبسته وبخمار فغطت به راسها ووجهها وبرداء من كتان فتردّت به

وحيث كان خروجها من الدنيا وزهدها فيها لا يتم ولا يكمل الا بصورة موتها ودفنها كالميت الحقيقي القت نفسها على الرخام كالميت فكفنوها ووضعوا حولها اربع شمعات وقد اخذ القسيس الكتاب وهو بملابسه الرسمية والرهبان محتفون بهِ وكنت حينئذٍ قريبًا منها حريصًا على معرفة جميع ما يحصل من الحركات فسمعت صوتًا خفيًا من داخل الكفن وصل الى اذني ولم يسمعهُ غيري والفاظه يا اله العالمين رب السماوات والارضين ان تجعل هذه اللحظة آخر عمري حتى لا اقوم من موضعي وان تصب على اخي الذي لم يقاسمني فيما جنيت من الخطيئه الصبر فيطمئن قلبه ويعيش عيشة مرضية فلما سمعت منها ذلـك استرني اضطراب فوقعت على اختي فقلت ياعروس المسيح يصفح الرب عنكِ حيث تركتني وحيدًا اكابد تنغيص الايام فاضطرب من بالكنيسة مما فعلت وصاحوا بي فاخذت مغشيًا عليّ ولما افقت وجدت الامر قد

قضي وقد لحق اختي من الحمى ما لحقها وجعلوا يطلبون مني ان لا ابحث عن لقائها فعظم ذلك عليّ وخرجت لا ادري اين اتوجه فدخلت غابة وصرت افكر فيما حصل لي ولها من الحوادث ثم قلت في نفسي ليس لك الاّ مفارقة هذه الارض فانهُ لم يبقَ لك فيها ما يوجب اقامتك بها وانما انتظرت شفاء اختي لاودعها فبقيت نحو خمسة عشر يومًا استنشق اخبارها فتارة كانت تبلغني وتارة لا ثم بلغني خبر موتها

قال راوي الحديث فعند ذلك هطلت عينا يعقوب بالدموع واخذته حالة الملوع لما ذكر موت اخته وشقيقة روحه

فقال لهُ الشيخ

كل ابن انثى وان طالت سلامته

يومًا على آلةٍ حدباء محمولُ

ومعلوم ان ما جرى لكما يجري لغيركما فتزوّد الصبر تفز بالاجر وكيف تجزع وقد طفت البلاد واعطيت عقلاً وافرًا فهل رأيت حيًا لا يموت واعلم ان الحوادث للرجال كالمحك للذهب وسترزق راحة ينعم بها بالك وتحسن بها حالك

فقال يعقوب ان في صحبتكم عوضًا من كل فائت فاني منذ اجتمعت بحضرتكم هدأ روعي فارجو ان لا يفرق الله بيننا وان يجعل آخر حياتي بين يدي حضرتكم وقد عزمت على ان اقيم بارض مصر

المسامرة (١٠٢)

البورصة

فقال الشيخ هذا مما يسرني وهي نية خير وتحقيقها سهل فعن قريب نعود وتكون معا خصوصاً وحضرة الخواجا يعزك كثيرًا وكان الوقت قد قرب فقال الشيخ نحن مدعوون الليلة عند صاحبنا التلياني ويلزمنا الذهاب اليه وفي وقت آخر تتم لنا اخبار حوادثك فقاموا وركبوا حتى دخلوا المدينة فلما وصلوا منزلهم وجدوا تذكرة كتبها الخواجا التلياني وتركها على الطاولة مضمونها اني حضرت لزيارتكم فلم اجدكم وعن قريب اعود وان حضرة الخواجا الانكليزي ارسل لنا تذكرة يعتذر فيها عن الحضور لامر منعه وساعود قبيل المغرب لانشرف بكم وتسيرون معي الى بيتي فاخبر الشيخ يعقوب ولده بذلك فاخذا يتهيآن للتوجه واذا بالرجل التلياني قد

حضر فقال ان جملة من الاحبآ دعوتهم مع حضرتكم وها انا قد حضرت حسب ما اخبرت جنابكم في الذكرة فقاموا جميعًا وركبوا عربة ثم ساروا فمروا بسراية مشيدة البناء مزخرفة الارجآء حولها اناس كثيرون في حركة عظيمة

فقال الشيخ ما هذا المكان فقال الخواجا هذا المكان يسمى البورسة اي بيت المصارفة واعمال التجارة بين باريز وجميع جهات المملكة وبينها وبين جميع ممالك اوروبا والمسرق وامريكا فهو مكان تجتمع فيه الصيارفة الكبار والسماسرة وعظماء التجار وهو من ضمن العمارات العظيمة التي تتباهى بها باريز وتنبغي روءيتها والنظر للجاري بين الناس فيها فقال الشيخ لعلنا ننظره في يوم غير هذا ان كان هناك اذن بالدخول فقال الخواجا ان دخوله مباح لجميع الناس وامر هذا المكان عجيب واصطلاح اهله في تخاطبهم غريب فمن لم يعرف اصطلاحات الصيارفة المتفق عليها فيما بينهم يظن انهم ليسوا من اهل باريز لان لهم لسانًا خاصا بهم تكلمون به فيما بينهم وبين عملائهم ولا يعرفه غيرهم وهناك ازدحام شديد وللالفاظ تصادم قوي ينشأ عنه دوي هائل بحيث يمنع الطارىء عن فهم معاني الالفاظ لاختلاطها وعدم تميزها

ومما يزيد الانسان تعجبا انه لا يوجد هناك غير الكلام واما المبادلة وقبض الدراهم فشيء نادر ومن يتأمل في احوال اهله ويمعن النظر فيهم يرى البعض منهم مسرورًا والبعض بالحزن

مغمورًا والبعض يتقلب من الحيرة كفيه وينتف شعر لحيته ومنهم المتفكر ومنهم من يضرب ويجمع ومنهم من لا يستقر في موضع بل يطوف والى ما بدا منه يرجع واساس ذلك كله حب الدرهم والدينار فانهما يفعلان بالعقول ما لا تفعله الخمور فمن ذهب ماله غاب عقله وساءت حاله ومن ربح تمت مآربه وصفت مشاربه فيلزم من يريد الدخول في زمرتهم ان يكون خبيرًا بمعاني الفاظهم وكيفية معاملاتهم وعلى يقين من معارفهم وحيلهم وطرق حسابهم واصطلاحات سماسرتهم وعوائد خاصتهم وعامتهم والا فلا بد ان يقع في شباك مكائدهم وحبال مصائدهم

فقال الشيخ ان بالقاهرة مكانًا له شبه قليل بهذا يقال له حارة اليهود فيه كثير من الصيارفة والمرابين ففي بعض ايام السنة تزدحم عليهم الخلق الواردون من الارياف وغيرها اما للاقتراض او للتسديد او لتغيير المواعيد فهم يتجرون في غفلة العالم ويغتنمون فرص الاحتياج فيحملون الخلق اثقال الربا ومن حرصهم لا يقرضون الا برهن او ضمانة وبكثرة ما يطلبونه على كل مائة يرى كثير من الناس قد آل امره الى بيع ما رهنه ولحقته الفاقه ولبس ثياب الذل بعد العز وفي بعض الاحيان يطالب الكفيل والمكفول معًا. فكم من متأوه من هذه الطائفة والعجب ان الرباء محرّم في الشريعة الاسلامية ومع هذا لم يبقَ من الناس في هذا العصر فقير ولا غني الا وهو واقع فيه ومن كثرة التعوّد عليه صار كأنه من الامور

الجائزة بل ربما يرى ذلك بعض الناس انهُ من فعل الخيرات وإزالة الضرورات ويرون الامتناع منهُ من الحرج والتضييق على العباد وتعطيل الارزاق

فقال الخواجا التلياني ايها الاستاذ ان الجاري بهذا المكان ليس كالجاري بحارة اليهود بمصر لان المامله في هذا المكان خاصة بالشركة التجارية ليس غير

واما المعاملة بالفائدة والمصارفة فمخصوصة بالبنوك ومن ذلك حارة اليهود واما هنا فانهُ اذا فرض ان بعض الناس رغبوا في الشركة في عمل شيء تبلغ تكاليفه زيادة عن قدرتهم استأذنوا عنه الحكومة ومتى تحصلوا على الاذن عين المجلس قيمة السهم في هذه الشركة ثم تعطى الاسهم لاحد مأموري الاعمال لان هناك اشخاصًا معينين بامر الحكومة يقال لهم مأمورو الاستبدال فحينئذٍ ينادون عليه فكل من رغب في قدر اخذه وربما حضر اقوام بعد توزيع الاسهم يطلبون الاخذ بزيادة عن المقدار ظنا منهم رواج الامر فيشترون بازيد وهذه الاسهم كالبضائع التجارية تباع وتشرى وتغلو وترخص حسب ما يعتور الامر المشترك فيه

واما الجاري بحارة اليهود عندكم وعند الصيارفة على العموم فهو مبادلة النقود بغيرها فكل منهم تراه ينتهز الفرصة فيجعل القيمة على حسب ما يراه من الاحتياج فاذا رأى مضطرًا اطمعه وزاد

في اكرامه وسهل له امر الربح ليرغب في معاملته فان لم يتفطن
المضطر لمكره وقع في حبالته وكلما ازداد عليه الدين طمع فيه وازداد
في الربح واجتهد في الاستحواذ على حجج املاكه فاذا علم ان ما في
ذمته صار قريبًا من ربع قيمة املاكه او ثلثها امتنع عن اعطائه
وسلك به طرق العسف فيشكوه ويترافع معه في مجال الحكومة
الى ان يؤل الحال الى الحكم عليه ببيع ملكه لسداد المطلوب منه
رأس مال وربحًا وقل ان يبقى للمدين شيء من ثمن ملكه فهذه
حالة فظيعة يجب البحث على الطرق المخلصة منها لاستدعائها
خسارة كبيرة فان اقل الفرط عندكم اثنى عشر في المائة كل عام
مع انه ضعف الفائدة ببلادنا اذا غلا سعر النقود فان المعتاد
عندنا اربعة او خمسة او ستة في المائة وفي بلاد الانكليز من اثنين
الى ثلاثة واذا غلا السعر يبلغ اربعة على انهم يضجون اذا صارت
الاسعار هكذا او يعدون هذا الامر من اعظم الحوادث التي يكثر
فيها القيل والقال وقد سمعت ممن اثق به ان فرط المائة في
الشهر الواحد قد يبلغ بالقاهرة ثلاثة او اربعة أعني زيادة عما
يحصل بلوندرة اثنتي عشر مرة بل اكثر ولا شك ان ذلك
من اعظم الضرر وتسديده في غاية العسر لان الفرط اذا كان
في كل شهر اربعة بالمائة يكون ثمانية واربعين في السنة فاذا اخذ
المحتاج مائة فانه يكتب عليه سندًا بضعفها تقريبًا لانهم يعطونه من
المائة اثنين وخمسين ويقطعون منه الباقي وهو ثمانية واربعون

في نظير الفائدة ويكتبون عليه السند بالمائة بتمامها فاذا طلب مائتين فانه يقطع مائة واربعة فقط ويكتب عليه السند بمائتين وهكذا اذا طلب الفاً واكثر فمن اين يسهل السداد على المقترض سواء كان تاجراً او زراعاً فالصيارفة اذاً ببلاد المشرق من اكبر المصائب ودوامهم على ذلك يوجب سلب نعمة الاهالي بل بعض التجار والصيارفة يستعملون طريقاً اقبح من علو امر الفرط وهو انهم يترقبون الوقت الذي هو قبل خروج المحصول فيسعرون الارزاق بثمن بخس فيأتي المضطر فياخذ منهم نقوداً بقدر معين من المحصول على حسب تسعيرهم وقد يسعرون قنطار القطن مثلا بجنيهين فياخذ الطالب مثلا مائة جنيه فيكتبون عليه خمسين قنطارا يؤديها بهذا السعر بعد شهر مثلاً فاذا جاء الوقت طلبوه بها فياخذون ما راج لهم منها ثم يكتبون ما يبقى عليه في سند جديد بقيمة وقت التسديد مع اضافة الفرط في نظير صبرهم الى العام القابل وهكذا يفعلون معه في كل عام بهذه الطريقة فيبقى الشخص دائما مكبلا في اغلال قيود الدين مطالبًا بنفس المبلغ الاصلي بل باكثر منه وما دفعه من المحصول كأنه ربح المال . وفي كل عام يفعل الصراف حسب ما يرغب فتارة يقلبه من صنف الى اخر وتارة يجعله نقدية في ذمته والفلاح لا يعارض في ذلك لاحتياجه وتراكم المطلوبات عليه للميري والاهالي والعيال وليس في امكانه التخلص لعدم اقتداره على التسديد فيبقى كالاجير عنده

بالاكل ليس غير وقد شاهدت ذلك بنفسي مذ كنت ببلاد الشام والترك ولا فرق بين الجاري هناك وعندكم ورأيت من العالم جميعاً الضجر من ذلك ويتمنون زواله وانتظامه فعلى الحكام وولاة الامور النظر في ذلك ومنعه والبحث عن اعمال الطرق التي يستقيم بها امر المعاملة بين الناس وتنجح بها مساعيهم في زراعاتهم وتجاراتهم

وفي الازمان الماضية كان المرابون يفعلون ببلادنا كفعلهم الان ببلادكم لكن الحكومة انتبهت لهذا الامر وربطت قيمة معينة للنقدية لا يتعداها احد وكل من تعدى عد مرابيا وعوقب على مقتضى القانون فخمدت نيران اهل الربا الا انهم لم ينقطعوا بالكلية وبقي السفهاء والمسرفون يترددون عليهم لكن لا يقع ذلك ببلادنا الا سرًا اما التجارة والسلف العامة فجميعه في البُرصه فيقف الانسان على سعر كل يوم بل كل وقت بسبب الاخبار والحوادث التي ترد بالتلغراف يوميا فلا يحصل ضرر ولا غدر كما يحصل اذا كان الامر منه للصراف في حانوته او بيته بدون معرفة بالحوادث اليومية ولم تظهر البُرصة بباريز الا سنة ١٥٦٣ ميلادية بامر الملك شارل التاسع فكان اول مجلس عقد للنظر في حال التجارة في سراية الحقانية ولكن في سنة ١٧٢٠ تعين مكان مخصوص صنع من خشب موقتاً باحدى زوايا جنينة سراية سواسون التي محيت وكانت معدة لسكنى افراد من العائلة الملوكية وصار الناس يتعاملون باوراق

الحكومة وكان في تلك الايام لا يفتح هذا المكان للمعاملة الاّ ثلاث ساعات قبل الزوال وساعتين بعده ما عدا ايام الاعياد والمواسم وترتبت بوسطة عسكرية للمحافظة عليه وضبطه ولما كثرت حركة العالم اليه وتوجيه هممهم نحوه واخذت تظهر به مشاجرات استوجب ذلك مداخلة العساكر فيه لفصل ما يحدث به من المشكلات ثم صار يزداد فامرت الحكومة بابطاله ومنع تجمع الناس بالطرق لهذا الشان ورتبت قصاصاً على من يخالف الامر ويقتحم ذلك الطريق المنهي عنه فجعلت جزاه التغريم الجسيم فضلا عن السجن الطويل وعينت ستين صرافاً يتوزعون في نواحي البلد بلا حرج عليهم وانما الحرج والجزاء على غيرهم في الاوامر بان من تجرأ غُرم تغريماً عظيماً ومع هذا فكانت الناس تجرأ على هذا خفية فعوقب منهم كثيرون

ولما اكثر الناس الشكوى للحكومة وطلبوا فتح البُرصة فتحت سنة ١٧٢٤ وتعينت لوكندة تسمى لوكندة مزران وشيدوها وزينوا واجهتها سنة ١٧٨٤ فكانت الصيارفة والسماسرة يقيمون بدورها الارضي ومدة بونابرت الاول نقلت الى احدى الكنائس ثم نقلت منها الى السراية الملوكية وعادت الكنيسة الى اصلها وفي سنة ١٨١٧ بنيت هذه السراية التي رأيتها وخصصت لذلك وبناوها على متسع من الارض قدره ثلاثة الاف وخمسمائة متر وطولها اثنان وسبعون متراً وعرضها خمسون متراً والدور الارضي به الحواصل ومحال

المشروبات وبها ديوان متسع طوله اثنان وثلاثون مترًا وعرضه ثمانية عشر وفي اخره فسحة عظيمة تسع من التجار الفًا يتعاطون الامور التجارية وبالديوان شباك من حديد والصيارفة تجتمع في محل بالدور الاول للمداولة في امر التجارة وغيرها وفيه اماكن معدة لديوان التجار ثم زاد هذا المكان اعتبارا وترى الان فيه زيادة عن امر الاقتراض المشاركة في عمل سكك الحديد واستخراج المعادن وفتح الورَش الجسيمة ونحو ذلك من الامور النافعة التي تتسع بها دائرة الثروة وفي سنة ١٨٥٢ جعل على كل من دخله فرنك واحد فنقص المترددون عليه واشتكى من ذلك البنكيرات والصيارفة والتزموا لمدينة باريز مبلغ سبعمائة وخمسين الف فرنك على ابطال ذلك فلم يُقبل منهم

وقد احصي عدد من يدخل البُرصة كل يوم فوجد من ثلاثة الاف الى اربعة الاف وتحصل منه سنة ١٨٥٧ مليون ومائة الف فرنك

وبالجملة ففوائد هذا المكان كثيرة جدًا وبيان الجاري فيه يحتاج لمعرفة امور شتى لكن لا وقت لذلك فانا وصلنا المنزل ولا بد ان اذهب مع حضرتكم بكرة غدٍ واطلعكم على احواله

المسامرة (١٠٤)

بيت الكتب

ثم وقفت العربة فنزلوا ومضى بهم الخواجا الى البيت فصعدوا على درج حتى وصلوا الدور الاعلى فوجدوا فسحة متسعة وبها صاحبة المنزل فقامت وقابلت الشيخ وكان رئيس الجمعية المشرقية هناك فقام له واستقبله ثم قال ان التلامذة يثنون بكل لسان على الشيخ بما حصل لهم من الفائدة وقد تمنيت على حضرتكم مجلساً يعقد كل يوم اثنين حيث تكون الساعة الثانية بعد الظهر فقال الشيخ لا مانع ثم جاء المدعوون واحدًا اثر واحد وجماعة عقب جماعة حتى تكاملوا وتعرف الكثير منهم بالشيخ وصاروا يحيونه ويظهرون السرور به فسر الشيخ بذلك سرورًا عظيما واستأنس بهم كانه ببيت احد اصحابه بمصر فان جميعهم كانوا محدقين بـه يتذاكرون معه في فنون العربية على اختلافها فكان هذا يساله عن معان لغوية وهذا يسأله عن قواعد نحوية وهذا عن حادثة

تاريخية وآخر يطلب منه معنى بيت شعر وهو يجيبهم ويزيد لهم في الفوائد وبينا هم يتفكهون وفي فنون العلم يتنقلون اذ دعوا للطعام فقاموا جميعا الى الاكل فتعاطى كل بحسب طاقته وكان في الطعام بعض الفواكه فقال بعض الحاضرين أنبدا بالفاكهة ام نؤخرها فقال الشيخ ان للشيخ الاجهوري في ذلك نظماً جميلاً بين فيه ما يقدم على الطعام من الفاكهة وما يتاخر وما يكون وسطاً حيث قال

قدم على الطعام توتا خوخا • ومشمشاً والتين والبطيخا

وبعده الاجاص كمثرى عنب
كذاك تفاح ومثله الرّطبْ

ومعه الخيار والجميزُ
قثا ورمان كذاك الجوزُ

فتلقوا منهُ تلك الابيات بالقبول وكانوا يسرعون لحفظ ما يقول وتم بينهم مجلس الاكل في تلك المحادثة ثم عادوا الى الديوان الذي كانوا به فجلس الشيخ وولده ورئيس الجمعية بجانبه ومن رغب في المشي تمشى مع صاحبته او صاحبه فجاءهم صاحب البيت وجلس معهم ثم بعدَ ان دار الحديث بينهم قال اني منذ كنت برسيليا وعدت حضرة الاستاذ ان اريه خزانة كتبي واطلعه على ما احتوت عليه

فقال الشيخ ونحن لذلك منتظرون وللوفآء بالوعد متشوقون فقال تفضلوا بنا ان شئتم ثم قام ومعه الشيخ والرئيس فادخلهم من باب في وسط الديوان الى مكان متناسب الابعاد يقرب من التربيع وفي جميع جهاته غير الباب دواليب محكمة الصناعة من خشب جوز الهند الاسود وعلى ابوابها رسوم من النحاس لطيفة مختلفة الاوضاع والاشكال و في تلك الدواليب كتب محبوكة مرصوصة صفوفا متناسقة كل صنف على حدته مع النظافة للمكان بما فيه والرونق الذي يسر الناظر وارضه مفروشة ببساط فحمي اللون وسقفه منقوش بابدع النقش وفيه من عجيب الصور ما يدهش الفكر ويسر النظر وفي وسط مكان الكتب طاولة من جنس خشب الدواليب وعليها كل ما يلزم من ادوات الكتابة مع بعض كتب فاعجب الشيخ ذلك النظام وما بتلك الكتبخانة من الحسن مع الاحكام فقال يندر وجود مثل هذه في بلاد المشرق وانها لشبه كتبخانات الملوك فقال الخواجا كيف لو رأيت خزانة الرئيس فان بها قدر ما في هذه مرّتين او اكثر واما هذه فان ما بها ليس الا ثلاثة الاف ومائتي كتاب فقال الرئيس خزانتي وان كانت اكبر لكن ليس لها من الرونق والاتقان ما لهذه واغلبها ورثته عن ابي وجدي فقال صاحب البيت بل هي اجمل واجل لان بها من الكتب ما لا يوجد في غيرها فقال الشيخ اذًا لا بد انها لا تخلو من كتب غريبة فقال نعم ثم

التفت نحو الجهة الشرقية من الكتبخانة وقال جميع مـــا في هذه الدواليب كتب مشرقية وهي كما ترى ثلاثة اقسام فهذا للكتب العربية وهو اكبرها وهذا للفارسية وهذا للتركية وقد رتبت خزانتي هذه حسب اتقضاه الاصلية فالجانب الغربي فيه من الكتب مـا يتعلق باوروبا والجانب الجنوبي فيه ما يتعلق بامريقا وجزائر المحيط والشمالي فيه ما تيسر جمعه من الكتب التاريخية والفنون الادبية حسب اقتداري وجعلت كل فرع على حدته ورتبته كما ترى على حروف الهجآء فاذا اردت اي كتاب اطلعت علي الدفتر فعرفت نمرته وحرفه فقال الشيخ ما الذي فيها من الكتب العربية فاخذ الدفتر وقرأ له اولاً كتب التفسير فاذا فيها تفسير ابن عباس وتفسير ابن عبد السلام وتفسير ابن جريج وتفسير ابن الجوزي وتفسير ابن برجان وتفسير ابن ابي شيبة وتفسير ابي الضيا وتفسير ابن جرير وتفسير ابن ابي حاتم وتفسير ابن فورك وتفسير ابن ماجه وتفسير ابن المنذر وتفسير ابي الحسن وتفسير ابي ذرّ وتفسير ابي طالب الكرماني وتفسير ابن مردويه وتفسير الاخوين وطوالع الانوار وتفسير الاردبيلي وتفسير الاسفراييني وتفسير اكمل الدين وتفسير البقاعي المسمى بنظم الدرَر في تناسب الآي والسور وتفسير ابن النقيب وتفسير ابن عبدوس وتفسير الجامي وتفسير حجة الافاضل وتفسير ابن جماعة

ومن الحديث كتاب فتح الباري شرح البخاري والعيني شرح

البخاري والسندي شرح مسلم الحلية لابي نعيم والفردوس للديلمي والسنن لابن ماجه ومسانيد الائمة ومشكاة المصابيح للاّ علي قاري ومشارق الانوار للصاغاني

ومن التوحيد كتاب ابكار الافكار واحلى المواهب وتبصرة الادلة والتسديد شرح التمهيد وتأسيس التقديس ورموز الكنوز وزبدة الكلام وعمـدة النظار والفوز بالسعادة ومفتاح الغرر ومدارك العلوم ومشارق النور ونهاية المقول وهداية الهادي

ومن الفتاوي في مذهب ابي حنيفة فتاوي ركن الدين الكرماني وفتاوي احمد بن عبدالله البلخي وفتاوي امين الدين محمد بن المتعالي المصري وفتاوي بديع الدين وفتاوي حسام الدين وفتاوي الحنفية لسعد الدين التفتازاني

ومن الفتاوي في مذهب الشافعي فتاوي ابن ابي عصرون فقيه الشام وفتاوي الحداد وفتاوي ابن رزين وفتاوي ابن الصّلاح وفتاوي ابن عبد السلام وفتاوي ابن القاص وجملة من فتاوي المالكية وكذلك الحنابلة

ثم قرأ في اسماء كتب اللغة منها كتاب قاضي الحق لابي العلا المعري وقاعدة البيان وضابطة اللسان لابي جعفر احمد بن الحسن المالقي وكتاب الكامل للمبرد النحوي وكتاب الاساس وكتاب لسان العرب وتاج العروس وشرح القاموس وغير ذلك من كتب اللغة التي لا توجد مجتمعة في كتبية في احدى بلاد الاسلام ثم قراه

اسماء غريبة المثال عزيزة المنال في النحو والمعاني والبيان والبديع ككتاب سيبويه وغيره وككتاب دلائل الاعجاز في البلاغة واسرار البلاغة والمفتاح وغير ذلك

وفي المنطق غرائب المؤلفات وكذلك كتب علم الاصول وغير ذلك

ومن التاريخ كتاب اخبار الزمان وكتاب ابي الفدا وكتاب ابن خلدون وتاريخ ابن الاثير وغيره من كتبه الغريبة ثم بعد ذلك اخذ الدفتر ووضعه مكانه واتى بمصحف مجلد مظرف في داخل كيس من الديباج الاخضر ففتحه الشيخ فوجده مكتوبًا بالخط الكوفي في رق الغزال ثم جلس وصار يقرأ ثم قال التلياني يا حضرة الاستاذ الحمد لله الذي جمعني بك فاني منذ زمان متوقف في بعض اشياء في القرآن ولكوني لا اعرف علوم اللغة العربية على ما هي عليه لم تزل وقفاتي ولم اجتمع باحد في بلادنا من علماء العرب يفهمني حقيقة الحال فقال له الشيخ ما وقفاتك فقال ان في القرآن قوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان وقوله ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون مع ان فيه فوربك لنسئلنهم اجمعين عما كانوا يعملون وفيه فلنسئلن الذين ارسل اليهم ولنسئلن المرسلين فبين الآيتين الاوليين والاخيرتين على ما يظهر لي تناقض فقال له الشيخ هذه من وقفات العلماء ولكن شرط التناقض ان يتحد الزمان والمكان والغرض فقال ايها الشيخ

اليس ذلك كله يوم القيامة قال بلى ولكن يوم القيامة كما اخبر الله مقداره خمسون الف سنة وعرف بالاخبار انه يكون مشتملاً على مقامات مختلفة فلا مانع من ان يكون السؤال في وقت من اوقات يوم القيامة ولا يكون في وقت اخر وفي مقام من مقاماته ولا يكون في مقام اخر وحينئذ لا تعارض في الايات ولا تناقض فاطرق رأسه برهة ثم اقبل على الشيخ وقال له والله انك عالم باسرار لغتكم فقد ازلت عني كثيرًا من الوقفات فاني كنت اري بين قوله تعالى لا تختصموا لديّ وقد قدمت اليكم بالوعيد و(بين) قوله تعالى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون تناقضًا وبين قوله تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وبين قوله هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون تناقضًا وبين قوله تعالى فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وبين قوله واقبل بعضهم على بعض يتساءلون كذلك وبذلك الجواب ازيلت تلك الوقفات ولله المنة والشكر الجميل حيث جمعنا بحضرتكم نقتبس من انواركم ولقد كنت اول امري متحاشيًا عن السؤال مهابة فالان لما زال عني من غياهب الشك بسبب سوال واحد ارجو من جنابكم الاذن لي في السوال فقال الشيخ نحن لا يطيب لنا عيش الا بالمذاكرة في العلوم فانه حياة ارواحنا فسل ما شئت فذلك غاية مرغوبي فقال الحمد لله اني صرت من الان فصاعدًا جريئًا على ان اسأل حضرتكم لانكم ابصر الناس بتلك

العلوم فقال هذا من كمالك وحسن ظنك لي اني بالنسبة لعلماء تلك الصناعة لا أعدّ فقال كيف ذلك وانت لها كالاصل منه يستمدّ ثم قال ايها الشيخ ان القرآن معجز بنظمه وان نظمه غير مقدور للبشر وان الجن والانس ان اجتمعوا على ان يأتوا بمثله لا يمكن لقوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجنّ على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا وقد ورد ان اهل زمان النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على الغاية في الفصاحة والبلاغة فعجزوا عن الاتيان بمثله ثم تحداهم بعشر سور فعجزوا ثم تحداهم بسورة واحدة على الاطلاق فلم يقدروا ايضًا وفي السور (انا اعطيناك الكوثر) قصيرة جدًا فلو انهم قدروا على مقدارها وهو ثلاث ايات لكانوا قد اتوا بالمتحدى به فكيف ذلك مع ان نظم القرآن يشهد ان نظم ثلاث آيات بل ثلاثين آية بل الاكثر لا يعوز الفصيح فضلاً عن ان يعوز الافصح ولو كان وحده فضلاً عن ان يظاهره الانس والجن

فقال الشيخ ومن اين تؤخذ هذه الشهادة من القرآن قال ان فيه حكاية موسى (واخي هارون هو افصح مني لسانًا) ثم فيه عن موسى قال رب اشرح لي صدري ويسر لي امري الى قوله انك كنت بنا بصيرًا وهذه احدى عشر آية عندكم فاذا قدر فصيح واحد وهو موسى على احدى عشر آية في موضع واحد أفلا يكون الافصح اقدر وان كان واحدًا على اكثر فكيف اذا

ظاهره في ذلك الانس والجن

فقال الشيخ اما وقفاتك فوقفات من رسخت في العلم قدمه ولكن هل اذا عبرت على لسان صاحبك بكلام على نسق مخصوص واذا سمعته يقول كنت اريد ان اقول هكذا وما كان يتيسر لي ينزل ذلك منزلة القول قال لا فقال الشيخ اذًا لا يقال ان موسى قدر على نظم احدى عشر آية لانها حكاية عن معنى كان يريده ولا يتيسر له ان يعبر عنه كما في الايات فقال لله درّك قد ازلت عني ما كنت اظن انه لا يزول ولكن عندي وقفة اكبر من هذه لعل كشف القناع عنها يكون على يد حضرتكم فقال الشيخ بتيسير الله تعالى فقال ياحضرة الشيخ أفي كون القران من عند الله شك قال لا قال كيف وهو ينادي بانه من عند غير الله قال الشيخ كيف ذلك وتغير وجهه فقال لا تتغير ان السؤال اقتضى ان يكون الكلام هكذا فقال الشيخ بمَ ينادي ذلك فقال او ليس في القران ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا

قال الشيخ نعم وما ينتج من ذلك قال ان فيه من الاختلافات اكثر من اثنى عشر الفًا كما تسمع اصحاب القرآات ينقلونها اليك وهل عدد مثل ذلك لا يكثر

قال الشيخ مهلًا قد هالني اوّل سوءالك فاسمع ما اقول تجد القرآن مناديًا بانه ليس من عند غير الله وذلك انه ليس المراد بالاختلاف اختلاف الروايات كما فهمت بل المراد التناقض في

الاخبار والتفاوت في مراتب البلاغة فانك اذا استقريت ما ينسب الى كل واحد من البلغآء اشعارًا كانت او خطبًا او رسائل لم نكد تجد قصيدة من المطلع الى المقطع او خطبة او رسالة على درجة واحدة في علو الشان فضلاً عن وجود جميع المنسوب الى صاحبها على تلك الدرجة بل لا بد ان تجد اختلافات كثيرة في كلام المتكلم الواحد فترى البعض فوق سماك السمآ علوًا والبعض تحت سمك الارض نزولا وما ذلك بخاف على ذي بصيرة أليس الامر كذلك قال بلى قال اتجد القرآن على اختلاف رواياته مختلفًا في البلاغة قال لا قال الشيخ ايكفيك ذلك في الجواب عن سؤالك فقال يكفي ثم يكفي ولك الشكر والمنة ثم اثنى عليه وازداد قدره لديه وقال ايها الشيخ بقي في ذهني حاجة اريد ان لا اخفيها عنك قال الشيخ وما هي وتبسم ضاحكًا فقال ان القرآن لا شك كلام الله وقد علمه لمحمد عليه الصلاة والسلام بلا شك وفيه وما علمناه الشعر ومـــا ينبغي له فقال الشيخ نعم قال وهذا يستدعي ان لا يكون فيه شعر مع ان فيه من جميع بحور الشعر فان فيه من بحر الطويل من صحيحه فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وزنه فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن ومن مخزومه منها خلقناكم وفيها نعيدكم وزنه فعلن مفاعيلن فعولن مفاعلن ومن بحر المديد واصنع الفلك باعيننا ووحينا ومن بحر الوافر ويخزهمُ وينصركم عليهم (و) يشف صدور قوم مؤمنينَ ومن بحر الكامل والله يهدي من

يشاء الى صراط مستقيم ومن بحر الهزج من مخرومه تالله لقد اثرك الله علينا ونظيره القوه على وجه ابي يأتِ بصيرا ومن بحر الرجز ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ومن بحر الرمل وجفان كالجواب وقدور راسيات ونظيره ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك ومن بحر السريع قال فما خطبك ياسامري ونظيره نقذف بالحق على الباطل ومنه او كالذي مر على قريـــة ومن بحر المنسرح انا خلقنا الانسان من نطفة ومن بحر الخفيف ارأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ومنه لا يكادون يفقهون حديثًا وكذا قال يا قوم هؤلاء بناتي ومن بحر المضارع المخروم يوم التناد يوم تولون مدبرين ومن بحر المقتضب في قلوبهم مرض ومن بحر المجتث مطوعين من المومنين في الصدقات ومن بحر المتقارب واملي لهم ان كيدي متين

فقال الشيخ سبحان الله ألم تعلم ان الشعر اشترطوا فيه ان يكون مقصوداً فقالوا هو الكلام الموزون قصداً فقال نعم قال الشيخ ما اوردت من هذه الايات ونحوها ليس مقصودًا موازنته لتفاعيل الشعر ولم تقصد فيه اسباب ولا اوتاد ولا فاصلة صغرى ولا كبرى فليس شعرًا اصلًا وعلى تسليم ان ذلك من الشعر أليس يصح بحكم التغليب ان لا تلتفت الى ما اوردت لكونه قليلًا نادرًا والنادر لا حكم له فيحكم على مجموع القرآن انه ليس بشعر فيقال بناء على مقتضى البلاغة وما علمناه الشعر

فقال ايها الشيخ لقد اجدت فيما اجبت وقد شفيت مني الغليل
وازلت شبهاً ما كنت اجد لها من مزيل فانت الرجل علماً وادبا
وعقلاً وكمالاً ليتني لا افارقك ابدًا ثم خرجا من الكتيبة وصارا
يتحدثان في امور شتى حتى ازف الليل فاستاذن الشيخ للقيام فصحبه
الرئيس وصاحب البيت وبعض الحاضرين تعظيما له حتى ركب
عربته وسار ومعه ولده ويعقوب الى منزلهم



المسامرة (١٠٥)

قصة

وفي صبيحة تلك الليلة دخل يعقوب على الشيخ فسلم عليه
وعلى ولده ثم قال رايت باوراق الحوادث امس ان احد الاشقياء
الشائع ذكرهم بنواحي باريز قد ضبط منذ ايام وفي هـذا اليوم
يكون بت الحكم عليه في مجلس الحكم وارغب الحضور هناك لانظر

بماذا يبيت عليه فهل تاذن لحضرة نجلك في التوجه معي فقال الشيخ لا باس انما لا بد ان تكونا ههنا قبل الزوال فان حضر الخواجا توجهنا معه حسب ما يحصل عليه الاتفاق وان لم يحضر ذهبنا نحو العين التي كنا بها امس فقد انشرح صدري من روءيتها فقال يعقوب سمعاً وطاعة واخذ بيد ابن الشيخ وسارا راجلين يتحدثان الى ان وصلا الى المحكمة فوجدا اناساً كثيرين هناك وببابها طائفة من العسكر يمنعون البعض من الدخول فتقدم يعقوب للضابط وعرّفه انهما غريبان ويريدان الدخول فابى ان يدخلهما فجعلا يتحيلان عليه بانواع الحيلة فلم يجدِ ذلك شيئاً وبيناهما كذلك اذا بالخواجا التلياني الذي كانا عنده بالامس قد اقبل فعرفهما وسلم عليهما وتكلم مع ابن الشيخ بالعربية وكلم الضابط كلاما عرفه الحقيقة ثم ادخلهما فوجدا خلقا كثيرين محيطين بحاجز من حديد بداخله محل الحكم الذي هو صدر المكان وفيه جميع الاعضاء كل على حسب درجته والرئيس هناك على كرسي مرتفع وامام الجميع طاولة فلم يلبثا الا قليلاً وتم المجلس فامر الرئيس باحضار الجاني فاتى واجلس على كرسي من خشب وصاروا يسئلونه نحو الساعة ثم قام الرئيس وتلا خلاصة طويلة ثم هاجت الناس فرحا وصار العسكر يخرجون الناس فمن الازدحام وكثرة اللغط وعدم معرفة ابن الشيخ بلغتهم كما ينبغي لم يعرف الامر على ما هو عليه انما عرف انه قد حكم على الجاني بالقتل في يوم معين

ولما خرجا رغب ابن الشيخ ان يفهم قصة هذا المحكوم عليه فلما بعدا عن الازدحام سال يعقوب عن تفصيل القصة فقال يعقوب عرج بنا على احدى القهاوي لنستفيدها من اوراق الحوادث لاني لم اتحققها باطرافها فذهبا الى قهوة قريبة هناك وجلسا بخزنة صغيرة وطلب كل منهما ما يشتهي وصار يعقوب يقراه اوراق الحوادث الى ان قضى ما اراد ثم رمى الورق وقال ان اصل هذا الشقي من قرية قريبة من مدينة اورليان تركه والده في المهد فربته امه ولما بلغ سنه عشرين عاما كان يساعد امه في المعيشة ولكن كان شقيا من ابتداء طلعتهِ حتى عرف بذلك بين اقرانهِ وهو في المكتب وكانت البنات تكرهه لتجرئه على ما لا يليق مع انه قبيح المنظر وسقيم الجسم احد شقيه عاطل فكان اذا مشى يضحك منه من يراه ولا يألفه احد من النساء لدمامته ولسخافة عقله كان يجتهد في نيل ما لم يتمكن منه من النساء ولو بالقهر ومع كون شهواته كشهوات الحيوانات العجم تعشّق بنتًا بارعة في الجمال وهي لا تحبه ولا تميل اليه بل كان حبها وميلها لغيره وانما تظهر لهُ المحبة وتلاعبه لسلب امواله وهو منكب عليها بكليتهِ وقد وقع في قلبه ان كثرة الهدايا تعطف قلبها عليهِ لكونها فقيرة فصار ينفق عليها كل اكتساب والدته ومع ذلك فلم يبلغ اربه مع ازدياد فقره سيما وهو يحب الراحة وليس لهُ طريق الى الاكتساب ولا يرضى بان يشتغل باشغال الفلاحين فانهُ كان من غباوته وجمود طبعه

يتصور عظم شانه ورفعة قدره فيحمله ذلك على الترفع عن الخدمة مع ما هو عليهِ من الضعف والعجز فحصل لهُ حيرة شديدة ولم يجد سبيلاً به يتحصل على مرغوبه ثم استحسن طريق الصيد فسلك هذا المسلك مع ان القوانين كانت مانعة من الاصطياد من ارض الغير وكان بقرب بلده غابة فصار يذهب اليها ويصطاد منها وما يتحصل عليه ياتي بهِ الى محبوبته فاظهرت الميل اليه واثرته على سائر احبتها فاغتاظوا وضجروا وفيهم رجل من خفراء الغيطان فاخذ يبحث عن احوال هذين المتحابين حتى وقف على الحقيقة وحيث انهُ يعلم القوانين المانعة للصيد من ارض الغير وان من تجراء على ذلك جزاوه الحبس ترقبه حتى قبض عليه فاخذه واوقعه في يد الحكومة فصرف جميع ما عنده حتى تخلص وترك الصيد فانقطعت العلائق بينه وبين البنت لعدم ما يواصلها به واستبدلته بخصمه وجاهرت بذلك فاضرمت نار العداوة بقلبه فاراد الانتقام من الخفير فلم يقدر لشدة فقره وضيق الحال عليه فترك البلدة واقام ببلدة اخرى قريبة منها وجعل يصطاد خفية وبينا هو في صيده مرة غافلاً عن عدوه اذ احيط به وقبض عليه باغراء غريمه الاول فاخذ وحكم عليه بالسجن عامًا كاملاً

فكان في تلك المدة تنمو فيه سورة الغضب وتقوى ارادة الانتقام حتى مضى الحول وعاد الى منبته فاول شيء اشتغل به البحث عن محبوبته ولكن لقبح منظره ورثاثة حاله كانت اذا راته

تنفر منه ولا تميل اليه فضاق من ذلك ذرعًا واشتد به حال الفقر فانقاد وذل وطلب الخدمة لتحصيل المعيشة ومع ذلك لم يقبله احد من عظماء بلده ولا ارباب الفلاحة لضعفه عن الخدمة فاشتد كربه واستحال حاله وخابت اماله

ثم اختار رعي الاغنام فابت اربابها من تمكينه منها لعلمهم بسوابقه وسوء سيرته فلما لم يجد للمعاش سبيلاً عاد لما عوقب عليه مرتين واتخذه حرفة ثالث مرة لكنه صحا من سكرته واستيقظ من غفلته فتدجج بالسلاح في الغدو والرواح فكان لا يغفل عن عدوه طرفة عين ولا ينسى القبض عليه مرتين وصار بالمرصاد لعدوه في جميع حالاته ملاحظًا لجميع حركاته وسكناته ولكن لسوء تدبيره وحذق عدوه وقع في شرك الحكومة ثالث مرة بدلالة عدوه عليه فاخذ وسجن وحكم عليه هذه المرة بالسجن والاشغال الشاقة ثلاث سنين بعد وسمه بالنار على ظهره كالحيوان البهيمي فامضي تلك المدة في عذاب اليم كانه في نار الجحيم وبعد مضي المدة خرج من القلعة التي كان محبوسًا بها متغيرة جميع احواله هكذا اخبر القسيس الذي اعترف له بذنبه

فقال ابن الشيخ ثم ماذا حصل قال يعقوب اخبر القسيس عنه ايضًا انه قال اني قبل دخول سجن هذه القلعة كنت احسن حالاً من حالتي بعد ذلك فانه ما زادني السجن الا شقاء وحبًا للغدر والفساد وذلك اني قبل سجني كنت طائشًا صغير العقل

حتى جرني ذلك الى ما وقعت فيه واني وان كنت قبل السجن اميل الى الفساد لكن كان يمنعني عنه خشية العار او خوف العقاب فلما ادخلوني السجن بزعمهم انه يربيني ويحسن احوالي وجدت به من الاشقياء المحكوم عليهم نحو عشرين شقيًا اثنان قاتلان والباقون ما بين لصوص وقطاع طريق فكنت اذا ذكرت اسم الله يهزأون بي ويقولون ما لا يسعني التفوّه به من سبّ المسيح والتفاخر بالقتل وسلب الاموال وهتك الاعراض ونحو ذلك من حكايات تمجها الاسماع وتنفر من سماعها الطباع فاذا اردت اجتنابهم لم اجد غيرهم فاضطررت الى العود الى مجالستهم ومجانستهم فلما طالت عشرتي بهم لم اجد بدًا من موافقتهم حتى صرت واحدًا منهم وضاع ما عندي من حسن العقيدة وتعودت الامور الذميمة وألفت الكبائر حتى فقت على اقراني في الشقاوة والفساد ولقد صدق وبالحق نطق من قال مشيرًا الى هذه الحال

عن المرء لاتسئل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي

ولطول عشرتي لهم واضطراري للامتزاج بهم لم اعمل بقوله في البيت الاخر

فان كان ذا شر فجانبه سرعة
وان كان ذا خيرٍ فقارنه تهتدي

بل تهت في اودية الضلال وغرقت في رديء الخصال وكنت

ارى في نفسي العداوة لجميع بني ادم لما قاسيت من الشدائد وسوء الحال وهم في امن وثروة ورخاء فكنت اذا ابصرت الشمس طالعة من وراء الجبل الذي عليه القلعة او سمعت صفير ريح او صوت عصفور هاجت اشجاني ونمت احزاني واوقدت بفوءادي نار ارادة الانتقام فكانت كراهتي لابناء جنسي دائمًا في ازدياد فلما استوفيت المكتوب وخرجت من السجن لم يكن لي هم الا الرجوع الى بلدي لا حبًا فيه ولا للتعيش به بل لقصد الانتقام من الذين كانوا سببًا في شقاءي وطول عناءي فصرت اهرول واعدو عدوا شديدًا وفي قلبي شيء يحملني على الجري كالسائق العنيف واذا رأيت من بعد ناقوس الكنيسة هاج ضميري وثارت فكرة ما مرّ عليّ من الشدائد وكبرت في نفسي جرائم اعداي ففتحت عليّ جراحي وكبرت شهوة الانتقام عندي وصرت اعدد اعداي واصوّر في نفسي ما يحصل لهم من الرعب والخوف عند روءيتهم اياي على حين غفلة فتهون عليّ الالام وهكذا حتى وصلت الى البلدة وما كنت انظر اليها بالعين التي كنت انظرها بها من قبل وكان دخولي في ضحوة النهار فوجدت اناسًا ذاهبين الى الكنيسة يعرفونني واعرفهم فنظروا اليّ وتجاهلوني فاعرضت عنهم وذهبت الى السوق فرأيت به طفلاً جميل الصورة وكنت قديمًا احب الاطفال فاعطيته صلديًا كان معي فاخذه مني وجعل ينظر اليّ ثم رمى به وفرّ كالخائف فعجبت من ذلك ثم قلت في نفسي لعله انما فر مني لما

رأى من تشوه هيئتي فان لي مدة ما تعهدت لحيتي فشعثها ضرورة يزيد في شناعة صورتي ثم خطر ببالي احتمال اخر لفراره مني وهو انه ربما كان كغيره يعرف امري وما انا عليه من الطرد والابعاد ففر مني وعند ذلك بكيت بكاء لم يسبق لي مثله واعتراني من الحزن اضعاف ما عانيته في السجن وقلت قد فر هذا الطفل مني كما يفر من الحيوان المفترس فهل عندي شبه بوحوش الجبال ام هل رأى في وجهي علامة الفزع او انه ضاع جميع شبهي بالادميين من شدة عداوتي لهم ثم انزويت في ركن تجاه باب الكنيسة من غير قصد مني ولا شعور ثم قمت من هذا المكان كاسف البال لما رأيت ان جميع معارفي واصحابي مروا بي ورأوني ولم يسلموا عليّ كانهم لا يعرفونني ثم عمدت الى قهوة فرأيت في طريقي امراة عليها اثر الذل والمسكنة فتأملتها فاذا هي التي كانت سبباً في جميع ما حل بي وقد صارت في حالة يرثى لها فعرفتني ودنت مني ونادتني باسمي وقالت الحمد لله الذي اعادك وعلى وجهها كآبة تشهد على اعمالها السابقة واللاحقة ورأيت ان لها اختلاطاً بجماعة من العسكر فعرفت طريق تعيشها فصرفت وجهي عنها وحصل لي نوع من الراحة لاني رأيت من هو ادنى درجة مني

ثم سالت عن والدتي فاخبرت انها قد ماتت وبيعت تركتها في ديون كانت عليها فعرفت اني صرت مجرداً من المال والاهل وقد كنت سابقاً اتوقى ملامة الناس واخشي علي نفسي العار

فاصبحت كاني مزقت جلباب الحياء عن وجهي وصرت اتلذذ باقامتي بينهم مع نفورهم مني وتباعدهم عني لاني كنت ارى في ذلك عذابًا اليمًا عليهم على اني ما كنت املك شيئًا اخشى عليه اواحرص على حفظه وكان دابي العدول عن كسب الطيبات لانها كانت مطبوعة في اذهانهم وكان المطبوع في ذهني حب مخالفتهم فيما يحبونه وكنت اعرف من نفسي اني لو رحلت عن بلدهم الى بلد اخر فلربما كنت اتحلى بفعل الجميل والخصال الحميدة ولكن تشفيًا منهم ابيت الا الاقامة بينهم لان تذكاري لما قاسيت من الاهوال والالام اذهلني عن الصواب وعن كل ما يقال له شرف اوفضل وتماديت على ما انا فيه من الرذائل ومع هذا فكنت مضطربًا في احوالي غير قاصد امرًا معينًا افعله انما كنت اتصوّر ان القوانين وضعت للجري على سننها والعمل بمقتضاها فخالفتها عمدًا لما نابني بسببها من النوازل والمصائب الفائقة الحدّ وإن كانت مخالفتي لها اولاً جهلاً وطيشاً ثم رجعت الى الصيد مع اصراري في الباطن على اضمار السوء فصرت اصطاد كلما وقع بصري عليه وكانت هذه الصنعة عندي شهوة لذيذة وكل حين كان يزداد تطبعي عليها خصوصًا ولم ارَ غيرهـــا انقوت منه وازداد عندي حب مخالفة القوانين السياسية وذهب عني الخوف الذي كان يلحقني قبل ذلك وصرت مزمنًا على تسكين الرصاص في قلب من يقرب مني وكنت اصطاد لقصد الاتلاف ولا ابيع منه الا القليل على قدر شراء

القوت والرصاص والبارود واقمت بالغابات على اسواء الاحوال عدة اشهر حتى تنوسي امري وصاروا لا ينسبون اليَّ شيئًا مما يحصل من الاتلافات ولا يدرون اني في البرية مصر على الغدر وفي ذات يوم رأيت حيوانًا فعدوت خلفه اريد صيده فلم ادركه الاَّ بعد ساعتين فحرّرت البندقية عليه لارميه فلاحت مني التفاتة فرأيت رجلاً قد صوب بندقته الى هذا الحيوان فامعنت النظر فيه فاذا هو الخفير الذي كان السبب في جميع ما لحقني من الهوان فهاج جسمي واشتعلت نيران قلبي وقلت هذا اكبر اعداي الذي انا هائم في الغابات لاجله هذا الغرض الذي انا قاصده هذا وقت انتهاز الفرصة في حرمانه من الحياة ثكلتني امي ان تركته نعيش برهة من الزمن وارتعدت فرائصي وتضاربت اسناني واضطرب نفسي حتى اني لم اشعر بتحول البندقة فضربته فنفذت الرصاصة في احشائه فانكب على وجههِ يتشحط في دمه كأنه من هدايا مكة ففي الحال خمدت نيران قلبي وبرد غليلي وشفي عليلي وقلت اني قد اخذت بثاري وكان لسان حالي يقول

ولست ابالي اذ أرحت حشاشتي

بقتل عدوي ان اعذب بالنارِ

ولست ارى شيئًا يلذ حديثه

وافرح منه مثل اخذي بالثارِ

وقلت ما اوقع هذا الغبي في شبكة صيدي الا نسيانه لذنوبه

وعدم فرضه وجودي وكانه لم يقف على قول القائل

احذر عداوة من ينام وجفنه
باكٍ يقلب طرفه نحو السما

يرمي سهامًا ما لها غرض سوى
الاحشاء منك فربما ولعلما

وبينا انا اتشفى فيه اذ تغيرت حالتي وداخلني الخوف وتنبهت لنفسي وصرت كنائمٍ استيقظ من رقدته او نشوان صحا من سكرته وحق فيَّ المثل راحت السكرة وجاءت الفكرة ولما سقط في يدي رايت اني قد هلكت فحينئذٍ رجعت على نفسي باللوم والتقريع ودهشت مما حصل مني ووقعت البندقة من يدي ورايت قواي قد بطلت ونفسي قد همدت وقلت الان صرت قاتل نفس وقد يئست من الحياة بذلك الفعل الشنيع الذي استحق عليه القتل وصرت وانا في الغابة كاني في مقبرة ممتلئة بالاموات لكثرة فكرتي في الموت وكان السكون حولي من كل جهة وكأني اسمع نفسي تقول لي يا قاتل ثم دنوت منه فوجدته في اخر نفس فبهتُّ وجعلت انظر اليه مدة ثم رايتني اضحك بقهقة واتكلم مع الرمة واقول الان لا تتكلم ثم داخلني الشاغل ثانيًا وقلت لنفسي ان ما قاسيته من الهموم والمشاق من مدة سنتين هو عقاب ما جنيته فيما مضى حتى رايت من الباساء والضرَّاء ما كنت اظن انه لا يوجد مثله لمخلوق غيري والان قد جنيت جناية كبيرة تستحق

الموت في الدنيا وعقاب الله في الآخرة وصغرت عندي حالتي الاولى بالنسبة لما صرت فيه لاني صرت من تخيل القتل والصلب والمشنقة وحبالها وتصورت لي صورة شنق امرأة كانت قتلت ولدها وكنت نظرت اليها مشنوقة وانا صغير في المكتب ورايت ان حياتي من يومئذ صارت من حق القصاص وصرت اتمنى حياة المقتول لاتخلص من هذه الورطة ثم انتقلت فكرتي الى تعداد سيئاته مع طول حياته لاهوّن على نفسي وجعلت اربط أفعاله السيئة بعضها ببعض فلم يساعدني تصوري وغلبت عليّ المخاوف وغاب عني ما كان قبل ذلك بربع ساعة مشعلاً نار الغضب في احشاي حتى اوقعني في حد القتل وبينا انا في هذه الافكار اذ سمعت عن بعد صوت فرقلة وفرقعة عربة تسير خارج الغابة وكان محل القتل قريباً من الطريق بنحو ربع ساعة فانتبهت من دهشتي من شدة الخوف فاخذت في اسباب الاختفاء ودخلت وسط الغابة هائماً على وجهي لا ادري اين اتوجه ثم خطر ببالي ان مع القتيل ساعة فعزمت على العود اليه لاخذها فاستعين بثمنها ولم يكن معي شيءٌ من النقود اصلا فلم اجد لي جسارة على القرب منه وتجاذبني خوف عقاب الله تعالى واغواء الشيطان فصرت اقدم رجلاً واؤخر اخرى واتردد بين الاقدام والاحجام ثم غلب جانب الاقدام فوصلت اليه وانا في وجل شديد وخوف عظيم فاخذت الساعة ووجدت معه ايضاً نقوداً تقرب من ريال فاخذتها ثم

اردت ان اصر ذلك في جيبي فلم استطع وكأن شيئاً ممسك
بيدي ثم ترجح عندي ان اترك الساعة ولا اخذ الا الدراهم فرميتها
ولم يكن سبب ذلك خوف تعظيم كبير القتل بكبيرة السرقة بل
الحامل لي على رميها الانفة والتعاظم عن اخذها لانه قد خطر
ببالي انهم لو قبضوا عليّ وهي معي لقالوا ما قتله الا لاخذ ما
معه فينسبونني الى قلة المروءة مع اني ما قتلته الا تشفياً فيه ومكافاة
له على فعله معي ثم مضيت في الغابة وكنت اعرف انها تمتد في
الشمال نحو اربعة فراسخ فتنتهي الى حدود البلاد المجاورة لها
فاخذت اهرول واعدو عدوا شديدا الى قريب الظهر ومن
كثرة الجري ضاع عني بعض افكاري ثم صرت كلما قلت في
الجري قوتي كثرت فكرتي وزاد اضطرابي حتي كنت ارى
خيالات مهولة محيطة بي من كل جهة كل واحد منها اكبر
هولا من الاخر وكأن تلك الخيالات تضربني باسلحة حداد
توءلم صميم قلبي فكنت في عذاب اليم وخوف مستمر حتى كنت
اهم بقتل نفسي لاستريح من القبض عليّ والحكم بقتلي وكلما هممت
بضرب نفسي اجد عندي جبناً عن ذلك وتعز عليّ مفارقة الحياة
مع اني في رعب شديد من البقاء وبقيت حيران لا يهناء لي حياة
ولا موت وحل بي خوف عذاب الله في الاخرة واستمرّت بي هذه
الحالة الى الساعة السادسة من ابتداء هروبي ومرّ على فكرتي جميع
انواع العذاب الدنيوي والاخروي ثم اني اقللت العدو ومشيت

الهوينا وادخلت البرنيطة الى اخرها في رأسي حتى نزلت على عيني وسترت وجهي لاني كنت اريد ان اخفي نفسي عن كل شيء حتى عن الاشياء غير الناطقة وسلكت طريقًا ضيقًا لا ادري اين يوصلني فاوصلني الى مضيق مظلم في داخل الغابه فازددت خوفًا على خوف وبينا انا اسير اذا بصوت مرتفع يقول قف مكانك يا هذا فرفعت البرنيطة قليلا فرأيت رجلاً في هيئة هائلة قد دهمني ومعه نبوت كانه جزع نخلة وهو مصفر اللون مع سواد خفيف وفي عينيه بياض شديد مع حوَل وعلى وسطه حبل طويل قد اداره مرتين فوق سلطة خضراء وفي حزامه سكينة عريضة وطبنجة ذات طلقتين وعند قوله قف هنا نزلت على كتفي يد ثقيلة كالمطرقة فخفت اولاً منه ولما تحققت انه من قطاع الطريق ذهب خوفي منه لاني حينئذٍ كنت لا اخاف الا ممن يخاف الله دون مرتكب المعاصي ثم قال لي من تكون انت فقلت مثلك ان كنت كما اظن فقال ليست الطريق من هنا فما اتى بك هنا فقلت له وانت ما أتى بك هنا ولأي شيءٍ تسئلني وانت مثلي فلما رأى مني عدم الخوف منه تأمل فيَّ وفيما انا عليه وقال انت تتكلم كالشحاذين ثم بهت كانه تحير في امري فقلت ربما كنت كذلك بالامس فضحك من ذلك وقال ستُعلم لنا حقيقتك ويظهر لنا مقصدك فقلت اتركني اسير في طريقي فقال نسير سوية صاحبي فلا تعجل فسكت قليلاً ثم نطقت

بكلام لم اشعر به فقلت اتركني فالحياة قصيرة وعذاب الله طويل فصعد نظره فيَّ وقال يظهر انك قريب من الشنق وان لم يكن كذلك فلا علم لي بصنعتي فقلت ان لم يكن ذلك حاصلاً فسيحصل اتركني اسير لحالي فوضع يده في يدي واخرج زجاجة من شنطة معلقة في ابطه فيها شراب فعزم عليَّ ان اشرب معه وكنت في ذلك اليوم المشؤوم لم اتناول شيئًا من الطعام ولا الشراب من والتعب فشربت معه فحصل لي انتعاش وخفَّت عني متاعبي وهمومي وتعلقت بحبل الحياة وأنساني الشراب شقاوتي وتخيّلت السعادة حيث اجتمعت بمن هو مثلي فاني كنت مجردًا عن الانيس والاليف وزال عني اضطراب القلب والمتاعب ثم ان الرجل اضطجع على الحشيش فاضطجعت بجنبه وقلت له ان شرابك اراحني فيلزمنا المواخاة والصحبة وكان معه شبق فملاه دخانًا وقدح الزند وولع منهُ الدخان وتكيف ثم قلت لهُ هل مضى عليك زمان طويل في الكار فنظر اليَّ ثم قال اي كار تريد فوضعت يدي على سكينته وقلت لهُ هل قتلت كثيرًا وسفكت الدما فعبس في وجهي وقال من انت ياهذا ووضع السكينة على الارض وجعل ينظر اليَّ فقلت اني مثلك قاتل لكني مبتدىء في الكار فسكت قليلاً وقال انت لست من هذه البلاد فقلت اني من بلاد قريب بينك وبينه ثلاثة فراسخ وذكرت لهُ اسمي وقلت لعله قد وصلك بعض اخباري فعند ذلك نهض قائمًا وعانقني وقال طال ما تمنيت لقائك وصحبتك

وقد ساقتك المقادير فلا فرقة بيننا الا بهادم اللذات الذي يستوي عنده الجليل والحقير

ثم قال هل من العدل ان يعذبوك هذا العذاب ويسجنوك ويحرموك من اصحابك واحبابك وبلدك بخنزيرين صدتها من الغيطان لا قيمة لها ولا كلفة في مؤونتها وهل من الانصاف ان تهان تلك الاهانة ويفعل بك ما فعل حتى آل بك الامر الى تناسي الملة وابتنى على ذلك ضياع حقوقك المالية والملية جميعًا وصرت بحال يرثى لها بحيث لا يقر لك قرار ولا تستطيع الاقامة في موطن فهل ليس للانسان قيمة تساوي قيمة الارنب

ثم سكت مليًا وقال وماذا فعلت حين اقاموا عليك النكير بقتل الخنازير فقلت لم اجد لي حيلة الا قول القائل

اذا لم يكن الا الاسنة مركبًا

فلا يسع المضطر الا ركوبها

وكنت كثيرا ما اتمثل بقول القائل

كفى بك داءً ان ترى الموت شافيا

وحسب المنايا ان يكن امانيا

وكان الشراب قد اخذ مني اكثر مما اخذ منه فقصصت عليه القصة بتمامها ثم سالته عن حاله فلم يرد عليّ جوابا واخذ بيدي وقال لي نجوت وبلغت ما رجوت فسر بنا الى اخواننا لتعرفهم ويعرفوك فسرت معه نحو نصف فرسخ فدخلنا ارضا كثيرة الشجر

فصفر الرجل بفمه فجاوبه اخر من بطن الارض وإذا بطابق قد
انفتح وبه سلم ينزل عليه الى جوف الارض فنزل فيه وقال حتى
اربط عنك الكلب ونادى الكلب فجاءه فربطه بفم الطابق ثم غب
عن بصري فداخلني خوف شديد وخطر ببالي ان اخذ السلم
وافرّ به ثم نظرت الى فم الطابق فرأيت دخانًا يتصاعد كأنه طاقة
من طاقات جهنم وان احد الزبانية جاءني في صفة هذا الرجل
ليريني ما انزجر به عن الافعال القبيحة فسمعت قائلاً يقول ان
كان قاتلاً اوبناه او كان مظلومًا نصرناه ثم جاء الرجل وقال لي
انزل فنزلت فوجدت غارًا مستطيلاً وبه مساكن صغيرة ونساء
ورجال محدقون بنار اضرموها فلما قربت منهم قاموا جميعًا وسلموا
عليّ وحيوني واجلسوني وجلسوا محيطين بي واخذوا يسامرونني
مسامرة ترفع عني الاوهام والمخاوف ويثنون على بسالتي ويمداحون
شجاعتي فانصرف عني الجزع والخوف حتى رأيت نفسي قد داخلها
العجب والكبر ثم امروا بالطعام فاكلت معهم ثم دارت علينا اكؤوس
الشراب فشربنا وطربنا وكنت وقت الاكل بين امرأتين حداها
قد ناهزت العشرين وهي بكر وكانت فصيحة طلقة اللسان حاضرة
الجنان سريعة الجواب خفيفة الروح والاخرى اصغر منها الا انها
متزوجة ناشزة من زوجها لسوء عشرته معها وكانت اقوم من
الكبيرة قدًا واحسن شكلاً وارق مبنىً واخف معنىً نحيفة مألوفة
فهويتها وان كانت الكبيرة تسارقني النظر وتمازحني طويلاً لكن

لبي علق بالصغيرة اكثر لمعنى فيها جذبني اليها فجعلت انزه طرفي ذات اليمين وذات الشمال فقال لي صاحبي كيف رأيت مجلسنا قلت مجلس انس وفيه كل ما تشتهي النفس فقال نحن هكذا كل يوم ناءكل الذ الماكل ونشرب اعذب المشارب ونتمتع بالنظر الى الحسان فان رضيت الاقامة معنا ورغبت في عشرتنا آثرناك على انفسنا ورفعناك فوق روءسنا وجعلناك رئيساً علينا وكان قد دب فيَّ الشراب فلما سمعت هذا الكلام فرحت به وتذكرت اني كنت طريد النوع البشري والان تحصلت على ماربي من التمتع بجميع الملاذ اكلاً وشرباً وظفرت بمن كنت اهواه من الحسان ربات الجمال وصرت آمناً مما اخاف فلَم لا ارضى بما عرض عليَّ اختياراً منهم لا سيما وقد رايت من الجماعة الاجماع على ذلك فلم ارَ بدًّا من القبول للحصول على المامول لكن رايت ان اشرط على الرئيس اخذ الفتاة التي علقتها فاجابني الى ذلك وقال لي وان احببت جعلتك رئيساً على هوءلاء الرجال ثم قبض على يدي وقال قد نزلت لك عن الرئاسة فقبلتها واختصصت بصغرى البنتين ولم ينازعني احد من القوم ولا عانني وصرت صاحب امراءة عاهر ورئيس قوم لا يوءمنون بالله ولا باليوم الاخر واخذت من حينئذٍ افسد في الارض وارتع في اساليب البغي والعدوان فهابني جميع الناس وراعهم امري وقد كنت اشيع بين المغفلين من الفلاحين اني مصاحب جنيَّة فزاد ذلك في هيبتي لديهم وعاد عليَّ من غفلتهم

ما لم يعد عليَّ من شجاعتي

ولما وصل خبري الى الحكومة اهتمت في ضبطي وجعلت لمن يدل عليَّ او يضبطني جعلاً عظيما ومع ذلك لم يتحصلوا مني على شيء وبقيت حولاً كاملاً بين هولاء القوم ثم كرهت عشرتهم والاقامة بينهم لتغير قلوبهم عليَّ فاجتمع عليَّ امران نفور الجماعة مني وبحث الحكومة عني فكنت احترس على نفسي ليلاً ونهاراً من سطوة الحكام ومن خيانة هولاء البغاة الطغاة وبعد ان كنت افرح بعمل السوء والسعي في طريق الفساد تبدَّل فرحي غمًّا وسروري همًّا وتمنيت مفارقة هذا الغرور والعدول عن تلك الشرور وندمت على ما فرط مني من الكبائر والتفريط في جنب الله وصرت ابكي وانتحب واقول لعلي اذا تركت هذه الطائفة واحوالها وتخلصت من اوحالها اتخلص من الرذائل واتحلى بالفضائل ثم صممت على مفارقة تلك الارض لاعيش بين قوم لا يعرفونني واتوب الى الله تعالى عسى ان يقبلني انه توّاب رحيم

وبينا انا افكر في ترفعي عن دركات الشقاوة الى اول درجات السعادة اذ اشيع خبر قيام الحرب في جهة ايتاليا وان الملك مجتهد في تجهيز العساكر لذلك فحدثتني نفسي ان اكتب الى الملك خطاباً يتضمن طلب العفو عني وادراجي في سلك المجاهدين فكتبت اليه ما صورته

اذا كان رضاكم في عدم احتقار النزول الى درجة مثلي وان

الاشقياء مثلي لم يطردوا عن باب مرحمتكم ارجو التعطف عليّ ومسامحتي ومما اعرضه على مسامعكم العالية اني كنت جنيت كبيرة القتل والسرقة ومعلوم اني بذلك استحق القتل. فانا مستعد لان اسلم نفسي للقصاص لكن اقدم لاعتابكم الكريمة رجاء غريبًا وهو اني ولو اني لا اخاف من الموت لكن احب ان اموت بعد ان اوءدي واجبات الحياة فقصدي ان اعيش مدة اعوض فيها ما مضى مني من السيآت لاستحق العفو من الجمعية البشرية التي خرقت بقبيح افعالي ناموسها فان عقابي اليوم لا يكون مثلاً لغيري ولا يكون لي برآءة من ذنوبي يوم القيامة فارجو البقاء لاتمكن من خدمة الوطن بدلاً عما عرفت به من ضرر وطني فيما مضى من عمري واني اعلم ان هذا الذي اطلبه شيء غريب لان حياتي ليست الان من حقوقي حتى اشترط شروطًا على الشريعة الا اني الان متمتع بحياتي وحريتي ولم اكن مأخوذًا ولا مكتف الايدي ولا اخاف من القبض عليّ فانه ابعد شيء مني ومع ذلك فاني اطلب العفو الذي هو شيم مراحمكم العلية وليس لي حق في طلبه ولو فرض فلست طالبًا له مع انه يحق لي ان اقول لمن ينظر في امري ان اسباب شقاءي ودخولي في زمرة المفسدين انما هو الامر الذي صدر بحرماني من جميع ما يتمتع به اولاد وطني واخراجي من زمرة اهل الخير الذين كنت منهم مع ان اصل ذلك اسباب واهية لا استحق بها الطرد الذي تسبب عنه اني صرت قاتلاً فلو كان من حكم عليّ بذلك

قد نظر بعين الشفقة والمرحمة في قضيتي ما كنت دخلت الان في الزمرة المذمومة وما كنت الان احتاج الى طلب العفو ومع كل ذلك فاني وان لم يكن في القوانين رخصة في العفو عني فلي في واسع الحلم امل في ذلك ولئن شملتني مراحمكم لاجعلنَّ ما بقي من عمري خدمة للركاب العالي فان كان رجائي مقبولاً فليصدر الامر بمدرجه في الجرانيل لاعتمد على امركم الملوكي واحضر في الحال الى المدينة والا فلتجرِ الحكومة مجراها واما انا فاحرّم على عيني المدينة ان تراها . اه .

فلما ارسلته ابطاء عليَّ خبره فاتبعته باخر ثم اخر وطلبت فيه ان ادخل في الخيّالة المتوجهين الى الحرب فلما لم يظهر له اثر يبلغني عنه خبر صرفت النظر عنه وآيست من العفو عني وعزمت على الهرب الى ايطاليا لادخل في عسكرهم فتحايلت حتى فررت من بين تلك العصبة وسلكت طريقًا غير معروف ومررت بمدينة فاردت المبيت بها وكانت الاوامر صادرة بالبحث عني في اوراق المسافرين فلما قربت من باب المدينة وجدت المأمور جالساً على كرسي فجعل يتامل فيَّ ثم طلب مني تذكرة المرور فناولته تذكرة كنت اخذتها من رجل كنت نهبت ماله فلم يكتفِ بها بل قام وامرني باتباعه فتبعته حتى وصلنا الى الضابط فوجدتُ عنده رجلاً نحيف الجسم طويل القامة فلما رآني ذلك الرجل قال ألست الرجل الذي خرج عليَّ يوم كذا في مكان كذا وكان معك اثنان ولولا

اني تركت لكم فرسي ما نجوت بنفسي فما اتم كلامه الا واحد الخفراء يقول ان الفرس التي معي هي فرس هذا الرجل بعينها فلما سمع الضابط ذلك امر بحبسي فسجنوني بحبس الدم قال يعقوب وقد حكم على ذلك الرجل بالقتل بعد ثمانية ايام

فقال ابن الشيخ من يتأمل في هذه الحادثة يحكم بخطاء من تسبب له في ارتكابه الجرائم ويحكم على هذا الشقي بانه قد بحث على حتفه بظلفه حتى اخذ رغم انفه واصل ذلك سقطاته الدنيئة وشهواته البهيمية ولقد احسن من قال

كل الحوادث مبدأها من النظرِ

ومعظم النار من مستصغر الشررِ

ومن ينظر الى ظاهر حاله يراه مسكيناً ضعيفاً ولا يتوهم فيه هذه الفعال وانه لا قدرة له على ما ارتكبه من هذه الاهوال ولعل قولهم الظاهر عنوان الباطن قاعدة اغلبية

المسامرة (١٠٦)

البانكات واوراق المعاملة

ثم قاما وتوجها الى الشيخ فسألها عما رأياه من الحوادث او سمعاه فاخبره ولده بقصة الرجل ثم جاء الخواجا التلياني ولم يحضر الانكليزي

فقال الشيخ ليعقوب اظن ان الخواجا لا يحضر الا اخر النهار فقم بنا الى المحل الذي كنا به بالامس لنطلع على البرُصة فركبوا جميعًا وساروا اليها فلما دخلوها صار اهلها ينظرون اليهم ويعرضون انفسهم لخدمتهم وسمعهم الشيخ يذكرون مدنا شهيرة واسماء كثيرة فبعد خروجهم سأل التلياني عن سبب ذكر هذه البلاد واسماء العباد فقال ان الدول في اعمالها العامة الكلية كآحاد الرعية في اعمالها الخاصة الجزئية فاذا ارادت دولة من الدول اقتراضًا او انشاء امور جسيمة كالترع والقناطر والسكك الحديدية وما اشبه ذلك

من الاعمال النافعة وكانت لا ترغب عمله على ذمتها فترتب لذلك متعهدين بعد ان تقدر قيمة العمل فيأخذونه على شروط يعقدونها ويجعلونه اسهماً بربح معلوم وتلك الاسهم تباع وتشترى في البرُصة على يد السماسرة فيتداولها الناس كل على حسب اقتداره فمنهم من يأخذ سهماً ومنهم من يأخذ سهمين وهكذا فكل من دفع شيئاً كان له في الشركة حصة بقدر ما دفعه فاذا اراد احد بيع حصته او مات واراد ورثته ذلك اتوا الى هذا المحل فتكون السهام فيه كالبضائع في الاسواق وحيث كانت الدول لا تثبت على حال بل تتغير على حسب ما يعرض للزمن من الاحوال كانت القيم ايضاً لا تثبت على حال فلا تكون في حالة السلم كما تكون في حالة الحرب لان درجة الامنية تتبع سياسة الحكومة فتعظم اذا استقامت الاحوال وتقل بعكس ذلك وفي كل حال من هذه الاحوال تتغير قيمة الاسهم فتارة تغلو وتارة ترخص كالبضائع

فقال الشيخ اريد ان استفهم منك عن امرين كثيرًا ما حاك في صدري ذكرها ولا افهم معناها الاول سمعت مرارًا كلمة بنك ولم افهم معناها والثاني رايت غالب المعاملة بالورق ولم افهم تفاصيل ذلك فقال الخواجا اما البنك فهو محل من اهمّ محلات التجارة له رجال يدبرونه بطريقة يحصل بها النفع العام ورئيس البنك يسمى البنكير

واعمال البنك الاصلية تكون بالنقود فتارة تسلم اليه نقود

ليحفظها ويشغلها وتارة يقرض او يقترض على حسب الاحوال وتارة يطلق لفظ بنك على اماكن تجارية تشتغل ببيع الاوراق التجارية وشرائها وتلك الاوراق مثل الاسهم في بعض شركات او اوراق الحوالات او الرجع المالية او السندات ويكون ذلك لانفسهم او لغيرهم فحينئذٍ هي نوعان عمومية وخصوصية وكثير من الاعمال تجري بالاوراق بدل النقود بل قد يرغب في كثير من الامور في المعاملة بالاوراق اكثر من المعاملة بالنقود وعلى كل حال فالبنك عبارة عن الصندوق الذي تحفظ فيه المبالغ النقدية او التي في الاوراق

والبنكير شخص يتولى النقود التي ترد اليه ليحفظها ويسدد منها مبالغ مطلوبة لاربابها وللبنك اعمال متعددة منها ان التجار يكون لهم وعليهم فاذا ارادوا الاستراحة من العد والنقد سلموا ما عندهم من النقود الى بعض البنوكة وكلما طلب منهم او لهم شيء احاله على البنكير ليستلم او يسلم ويكتب عنده فيستريح التاجر بذلك من العد والنقد والتسليم والتسلم ويستغني عن الخدمة والدفاتر التي تكثر وتقل بحسب كثرة الاموال وقلتها وقد يجتمع جملة من التجار في بنك واحد فتخف المؤنة عليهم مثلاً لو فرض ان لزيد على عمرو الف قرش وبنكيرهما واحد فيكتفي زيد بان يسلم السند الذي له على عمرو للبنكير فيضيف البنكير على المطلوب لزيد الف قرش ويخصم من المطلوب لعمرو نظيرها او يكتبه عليه وهكذا بغير عد

او نقد بل بالكتابة فقط ولو بلغ المتعاملون ما بلغوا متى كان بنكيرهم واحدًا ولو فرض ان المدين لا يعلم سند المبلغ اللازم تسديده في وقت معين تحت يد من هو فلا يلزمه حينئذٍ الا ان ياخذ من البنكير عميله قبل الميعاد بيوم مثلاً المبلغ المطلوب منه اللازم تسديده وبهذه الطريقة يكتفي مؤونة حفظه زمناً طويلاً ويكفى شر غوائل كثيرة ظاهرة

وحيث كانت حركة النقدية في الدخول والخروج لا تنقطع فلو اقتصر البنكير على حفظ ما يرد اليه وتسديد ما يلزم تسديده بدون اعمال اخرى ربما ترتب على ذلك بقاء مبالغ جسيمة في صندوقه بغير تربيح ولهذا تجد جميع البنوكة تجر فيبادلون النقود صنفا بصنف بربح قليل او كثير كما تفعل الصيارفة او يتجرون في سبائك الذهب والفضة فيتحصلون من ذلك على بعض فوائد تضاف على المجعول لهم من طرف عملائهم في نظير ما يجرون لهم من الاعمال التجارية وتجارتهم في الذهب والفضة لا تضر برأس مالهم ولا باعمالهم مع عملائهم لان هذين الصنفين مأمونان وكانهما نقود في صندوق البنكير ولا يعسر عليهِ ابدالها او ضربها بل متى اراد فانه يبدلها بنقود لقضاء الشغل ويضربها نقودًا على حسب ما يرى وزيادة على ذلك يفعلون ما يقال له الاسكنت لما يرون فيهِ من زيادة الربح

مثلاً لو فرض ان من ضمن عملائه جماعة لهم اعمال جسيمة ودائمًا يطلب منهم مبالغ في اوقات متقاربة لا يمكنهم اداؤها في اوقاتها

فيقدم لهم النقود بفائظ معين بايام قليلة ولا بأس عليه بذلك لان ما خرج من صندوقه سيعود له في ميعاده ولكن متى رأى ان مطلوب عملائه اخذ في الزيادة فلا يخرج بالاسكنت مبالغ مستجدة لحين امكان الحركة وانما يلزمه لاجل زيادة امنه في اجراء عملية الاسكنت ان يعلم ان المقترض قادر على الدفع في الوقت المعين ويكفي في تحفظه علمه بان المقترض باع صنف بضاعته لاخر مقتدر واعطى سند الاعتراف بالتسديد في ميعاد معين فباعطاء السند المذكور للبنكير وضمانه يكتفي البنكير بذلك في الاعتماد ويسلم النقود للمقترض بعد حجز الاسكنت اي الفائدة بالنسبة للزمن المعين في السند فاذا باع زيد لعمرو بضاعة بالف غرش وشرط عمرو على نفسه ان يؤدي المبلغ بعد شهر فلو فرض ان زيداً احتاج الى دراهم وليس له مبالغ عند البنكير فانه يسلمه السند وياخذ منه الف غرش بنقص قيمة فائظها مدة شهر او شهرين على قدر ميعاد السداد الذي في السند ويحفظ عنده السند فيكون زيد وعمر ضامنين للبنكير المبلغ المذكور فاذا بيعت البضاعة وحصل ربح فذاك والا ضمن كل منهما للبنكير قدر خسارته

وحيث كان الاسكنت يستلزم استعمال اموال جسيمة والبنكير يجد فيه ربحاً عظيما فانه يجتهد في ازدياد المبالغ في صندوقه وفي طرق تشغيلها

وحيث ان بعض التجار يلزم له مبالغ دائمًا لادارة حركته

التجارية والبعض ترد اليه نقود زيادة عما يلزم له ولا تسمح نفسه بتعطيلها فله فيها طريقتان، اما ان يبقيها في البنك زمناً غير معين لكن لا يكون له اخذها الا بعد نصف شهر فاكثر وفائدتها اقل من الاسكنت واما ان البنكير يسلم اوراقاً تجارية باسكنت اقل من الاسكنت الذي استولاه

وكما ان البنك يقوم مقام شخص او اكثر من اهل البلد الذي هو به او القريب منه كذلك يمكنه ان يجري تلك الاعمال بالنسبة للبلاد والمدن البعيدة عنه بواسطة اوراق حوالة من بنك على بنك اخر بمعنى انه باشتراك البنوكة بعضها مع بعض تسهل اعمال التجار الموجودين في بلاد متباعدة فاذا كان لزيد او على عمرو مبلغ وكل منهما قاطن ببلد غير بلد الاخر ويريد زيد تسديد ما عليه فانه يأمر بنكيره بتسديد المبلغ لعمرو فحينئذٍ يأذن ذلك البنكير للبنكير الذي ببلد عمرو بالتسديد فيسدده لانهما شريكان او انه يسدد المبلغ لاحد بناكيرة بلده ممن يكون لهم معاملة مع البنكير المقيم ببلد صاحب المبلغ هذه هي الاعمال الاساسية للبنوكة ولهم اعمال اخر اقل اهمية من ذلك مثل تقديمهم مبالغ على رهن من ذهب او فضة او حجج املاك او عقارات او اوراق شركات او اوراق اسهم او اوراق بضائع ففي كل ذلك يلتزم المقترض بتسديد المبلغ في الميعاد المحدد بحيث لو تجاوزه كان للبنكير ان يبيع الرهن فهذه العملية تشبه عملية الاسكنت انما تغير قيمة الرهن ولذلك ربما حصل للبنكير

خسارة ثم ان البنكير في كثير من الاحوال يفوض للسمسار فيبيع بالنيابة عن اخرين اوراقاً تجارية مثل اوراق الايرادات المقررة على الحكومة لبعض الاهالي واوراق اسهم الشركات والافتراضات الميرية وفي بعض الاحوال لا تكفي المبالغ المسلمة اليه فيخرج اوراق نقود يتعهد باستبدالها بنقود لمن هي في يده حين تقديمها له وبهذه العملية تتضاعف نقوده الجارية بين التجار ولا تضر باحد لان لكل انسان حق تبديلها بنقود متى اراد بلا نقص وبذلك تكون مثل النقود سواء بسواء فاذا حصل مبادلة جانب منها كل يوم بنقود يبقى جانب اخر منها يتعامل به وذلك يزيد في رأس ماله ويفيده ارباحاً حقيقية

واعتبار ورق النقدية مؤسس على ائتمان البنكير لعملائه واعتماد الناس على صداقته واقتداره فاذا حصل ما يخل بشيء من ذلك اختل نظام جميع اعمال البنك

وحيث ان الائتمان لا يكون واحداً في جميع الاماكن ولا عند كل احد وله اسباب حقيقية يقوى بقوتها ويضعف بضعفها كان الربح ايضاً مختلفاً ومتفاوتاً بحسب ذلك فاذا كانت المعاملة بين طائفة اعمالها مؤسسة على الائتمان ولهم عليه محافظة بحيث لا يتطرق اليهم ما يهدم شيئاً من اركانه كانت الارباح كثيرة والنجاح حاصلا واذا تداعت اركان الائتمان تداعى لها النجاح واضمحل وهكذا فلذا كانت الجهات التي لا ائتمان بها اصلاً لا تتعامل تجارها الا

بالنقود فوراً وان كثرت بها البنوكة

ويعلم مما ذكرناه يلزم ان يكون للبنكير في مال البنك جزء يخصه وذلك لزيادة الائتمان فانه يكون شبه كفيل وايضا هو نافع للبناك في استعواض ما عسى ان تقع للبنكير من الخسران في بعض الاعمال بسبب خطأ يقع في بعض التصرفات وينتفع به عوضا عن المبالغ التي تتاخر عن اوقاتها لسبب من الاسباب وايضا هذا المبلغ يزيد في اعماله وارباحه

واما امر اوراق النقدية فمخصوص بالحكومة فهي التي تامر بنشره لبنك الحكومة ففي فرانسا يكون للبنك الفرنساوي وفي الانكليز للبنك الانكليزي وهكذ كل دولة من دول اوربا لها بنك مخصوص هو الذي يخرج ورق النقدية ولا تخرج الحكومة من ذلك الا قدراً معينا بالنسبة لحال التجارة ولوازم الاعمال واعتبار تلك الاوراق كاعتبار النقود في التعامل بين الناس سواء بسواء كما تقدم لكون البنك متعهدًا باستبدالها بنقد متى اراد حاملها صرفها بدون توقف في اي مكان من امكنة الولاية فيأخذونها للمعاملة في البيع والشراء والاجارات ونحو ذلك ويسددون بها الديون والتقاسيط الميرية المالية وفي الالتزامات

وكلما وجد الناس عدم التوقف في استبدال الاوراق بالنقود ووثقوا بذلك بقيت فيها الرغبة وحفظت قيمتها والا فلا يكفي في الائتمان اعتراف الحكومة بتلك الاوراق فان من بيده الاوراق

اذا كان لا يمكنه استبدالها بنقود او باشياء اخر تفي بقيمتها فلا يلتفت الى هذا الاعتراف فان الورقة المسطور بها الف غرش مثلاً لا تساوي في ذاتها تلك القيمة وحينئذٍ فلا فائدة في هذا الاعتراف اذ لا يوءثر ذلك زيادة في قيمتها فان قيمتها انما هي باعتبار المزية القائمة بها النافعة في نحو شرآء ما يلزم شراوءه بالمبلغ المعين فيها كما يكون مشتراه بنقود من ذهب او فضة فما دامت بهذه المزية كانت كالذهب والفضة سوآ بسوآ وتزيد وتنقص قيمتها بحسب زيادة الرغبة فيها وقلتها كما يحصل ذلك في سكك النقود فان من المعلوم لكل متامل ان قيم الاشياء التي تجعل ثمناً للسلع انما هي منسوبة لمقادير ما تجعل ثمناً له فان جعلت ثمناً لسلعة جيدة ذات قيمة كثيرة كانت قيمتها كثيرة والعكس بالعكس لا فرق بين النقود وغيرها

فلو فرضنا ان ما يلزم للفرنساوية من النقود لمشترى جميع ما يلزم لهم ملياران من الافرنك يمكننا ان نعتبر ان هذا المبلغ ثابت لا يتغير الا اذا تغير اللازم لهم من الاشيآء فلو فرض تكثير النقدية الى ان تصير اربعة مليارات اي ضعف المفروض مع بقاء ما يلزم من الاشياء ثابتاً على اصله ففي الحال تنقص قيمة النقدية وما كان يشترى بفرنك يشترى باثنين فانه لم تكن الزيادة مقدار المفروض اولاً بل كانت اقل فلا شك ان قيمة الفرنك تتناقص بنسبة تلك الزيادة وحينئذٍ يمكن فرض زيادة بها تكون قيمة

الفرنك اقل من قيمة سبيكة من الفضة وزنها وزنه ففي هذه الحالة لا يتعامل بالفرنك بل يتعامل بالسبائك وصاحب الفرنكات لا يتعامل بها في صورة النقود بل في صورة السبائك فتضيع قيمة النقود وتضطر الحكومة لاخذها من ايدي الناس فتسبكها وهذا هو السبب في انه لا يصح نقص قيمة وحدة المعاملة عن قيمة وزنها من السبائك بخلاف العكس .

فلو فرض ان مبلغ النقود قد اخذ في النقص والقلة مع بقاء البضائع والسلع على حالها مستلزما زيادة قيمة وحدة النقود مع بقاء الاشيا اللازم مشتراها على حالها لزادت قيمة وحدة المعاملة فتكون قيمة الدرهم مثلا من نوع المعاملة اكثر من قيمة وزنه سبيكة خالصة فتربح الحكومة فيما تضربه من النقود وقد ترغب الناس في ضرب السبائك وتكثر المعاملة بها من جهة اخرى

وبعض الحكام لا يرغب في ضرب النقود زيادة عن طلب الدولة والبعض يحب ان يربح ربحًا قليلاً واخر يضر بها بالخسارة فكلما كثر المضروب منها نقصت قيمتها فتؤخذ وتسبك ومن كل ذلك علم ان وحدة المعاملة لا يلزم ان تكون اقل ولا اكثر من قيمة ما يعادلها من السبائك وقد صار معلومًا لحضرتكم ان النقص الذي يعتري النقود لا يمكن ان يصل الى ان يكون اقل من قيمة وزنه سبيكة لانه في هذه الحالة يسبك ما يلزم منها حتى تقل كمية الموجود منها وترفع القيمة الى ان تعادل مع السبيكة

او تزيد عنها وهذا لا يمكن اجراؤه على ورق النقدية اذا اكثرت الحكام منها حتى يتعدى مجموعها مقدار اللازم وحينئذٍ يعتري المبالغ المقررة فيها ما يعتري المعاملة من الرواج وعدمه وانا اضرب لك مثلاً يزيد المسئلة وضوحاً وكشفاً

وهو انه في مدة الحرب التي كانت بين الانكليز وفرانسا اقترضت الحكومة الانكليزية من البنك الانكليزي مبالغ جسيمة فاول اقتراض استوفى جميع المودع عند البنك من اموال العملاء وكان اثنى عشر مليوناً من الجنيه تقريباً فلم ينشأ منه ضرر للبنك وانما نشأ الضرر لما اضطرت الحكومة الى الاقتراض مرة اخرى وطلبت مبلغاً من البنك يقرب من احد عشر مليوناً من ورق النقدية ولم تدفع في نظير ذلك شيئاً الا الاعتراف به وفرضت على نفسها فايظاً تدفعه كل سنة وصارت تصرف من الورق ماهية المستخدمين واثمان المشتريات وغيرها مما يلزم حتى زاد مقدار مبلغ النقدية فنقصت القيمة وبسبب ان نوعي الذهب والفضة حافظان لقيمتها دائماً لم يقع النقص الا في معاملة الورق

ومن ذاك العهد صار بين الناس نوعان من المعامله اسمها واحد وقيمتها مختلفة كما يقولون عندكم معاملة بالتعريفة ومعاملة بالصاغ فهرع كل من بيده اوراق في الحال الى البنك لتغيير اوراقه فاشكل الامر على البنك وطلب اربابه من الحكومة حل هذا المشكل لان البنك لا قدرة له على الوفاء بما وعد به الخلق

ولما كانت الحكومة قد تصرّفت في القيمة قدمت القضية للمجلس فصدر الاذن للبنك بان يتوقف عن استبدال الاوراق بالنقود ورخص في تسديد الديون بتلك الاوراق وحيث انه لا يصعب جعل نقود من الورق لعدم الكلفة في ذلك نشر من تلك الاوراق مبالغ جسيمة فكبرت اسما مبالغ العملة الجارية في البلد وزادت عن الحد فنزل سعر الورق بسبب ذلك نزولاً فاحشاً وسببه انا لو فرضنا ان اللازم لدولة الانكليز ثلاثون مليونًا من صنف الجنيه يقضون بها ما يلزم لهم وفرض زيادة المبلغ الى اربعين مليونا فلا تكون قيمة ذلك الا ثلاثين مليونا بمعنى ان القيمة تنقص قدر الربع ولما اكثرت الانكليز في تلك المدة من نشر ورق النقدية ترتب على ذلك ان صارت الورقة التي تقابل جنيها لا تساوي غير ثلاثة ارباعه نقدية ففي ذلك الوقت اخذت قيمة الذهب والفضة في الزيادة لفظا فاوقية الفضة التي كان ثمنها قبل توقيف صرف قيمة الورق خمسة من الشلين واثنين من البنس صارت بعد التوقيف تساوي سبعة من الشلين واربعة من البنس وغلا سعر اقوات الاهالي وضرورات معائشهم بنسبة ذلك

وحيث كان مصرف الحكومة دائمًا في ازدياد اكثرت من الاقتراضات وازدياد الكون المطلوب منها من دون ان يزيد المطالبون لها من قبل لان الفوائظ المقررة انما هي ارباح لمبالغ قديمة قيمة وحدتها عالية ولما تيقظت الحكومة لهذا الامر الفظيع

وارادت حسمه لم تجد لذلك الا احد طريقين الاول ان تجعل قيمة جنيه الذهب قدر القيمة التي صار اليها جنيه الورق

وحيث ان الجنيه الورق كان في سنة الف وثمانمائة واربعة عشر لا يشترى به الا مائة حبة وثماني حباب من الذهب الخالص والجنيه الذهب القديم كان يشرى به مائة وثمان واربعون حبة فحينئذ كان يكفي ان يجعل قيمة الجنيه الذهب مائة وثماني حبات وضرر هذا الطريق ان الذين لهم على الحكومة ديون من قبل يستولون بقيمه اقل من النقود التي دفعوها وهذا ضرر عظيم على الناس مع ان الامر المهم هو اجراء الطرق الموجبة لتخفيف اثقال الاهالي بحيث لا يدفعون لمن اقرضوا الحكومة مدة النقص دراهم قيمتها اعلى مما اخذ منهم

والطريق الثاني ان تنقص مبالغ الورق بقدر ما يلزم لرد قيمة الجنيه الذهب الحقيقية اليه بحيث ان الجنيه الورق يشترى به مائة وثمان واربعون حبة ذهباً خالصا وهذا الطريق هو الذي اتبع وجرى العمل به ثم بعد الصلح نقصت مصاريف الحكومة وصار توقيف ضرب معاملة الورق وصدرت الاوامر لبنك الانكليز بجمع كثير من الاوراق واستبداله بنقود فاخذ الجنيه الورق الزيادة حتى رجعت قيمته لاصلها ولكن بعد خسارات كبيرة على الحكومة لان دين الحكومة ازداد زيادة فاحشة بسبب قلة قيمة نقود الدين الذي عليها عن قيمـــة النقود التي دفعتها في التسديد وكذلك

المستأجرون خسروا ايضا في اجاراتهم لانهم استاجروا بالمعاملة النازلة وسددوا بالمعاملة العالية

ولما اخذت قيمة الاشياء في التنازل ثانيا بعد هذه الحركة كان المستأجرون يدفعون خراج الارض بزيادة ويبيعون باقل

وزاد الخراج ايضا بقدر الثلث لانه مقدر بالصنف ولا مدخل للقيمة فيه فخسر ارباب الزرع خسارات جسيمة

كل ذلك والشيخ مصغٍ لكلام الخواجا لما فيه من بيان علوم لم يكن يعلمها

وبينا هما كذلك اذا برجل اقبل فكلم الخواجا سرًّا فنهض قائما وقال للشيخ لا تواخذني فان هذا الرجل اخبرني بان الحكيم قد حضر بالمنزل فلزمني التوجه اليه فقال الشيخ لعله خير قال ان ولدي متغير المزاج منذ ايام ولكنه بخير ثم انصرف

فقام الشيخ وركب العربة ومعه ابنه ويعقوب فلما استقاموا في الطريق قال الشيخ لا شك ان امور اوروبا كلها عجيبة ولهم افكار واختراعات نافعة غريبة فانظر كيف اعملوا الفكر في تحسين امور الدنيا واخترعوا لها طرقا بها اتسعت دائرة التجارة بيدهم فان ما ذكره حضرة الخواجا من طرق التيسير والسهولة التي سلكوها واستعملتها ارباب البنوكة قد هوّن امر المتجر على كل انسان وتيسر لكل شخص صادق حسن الادارة فيما يتجر به من النقدية ولكن لا ادري هل هذه البنوكة من اختراع الاوروباويين ام هي

امر قديم اخذه الاوروباويون عمن سبقهم

فقال يعقوب ان معلوماتي بالنسبة لذلك غير كثيرة ومع هذا اخبر حضرتكم بما اعلمه في هذا الشان

وهو ان الكنعانيين في المدة الماضية كانوا يستعملون البنوكة في امر التجارة ولكن لم يصلنا عن ذلك خبر شافٍ يوثق بهِ والذي تحققهُ ان الاثينيين كانوا يعرفونهُ ويتعاملون به وكان عتقاهم هم الذين يتولونه وبذلك كانوا يتحصلون على اموال جسيمة ويبلغون درجات عالية بسبب كثرة النقود وكان تعاملهم بالنقد فقط فكانوا ياخذونها بربح معلوم ويقرضونها بربح غيره على رهن وضمانات كما تفعل البنوكة الان فيتحصلون على ارباح كثيرة

واما البنوكة التجارية فلم تظهر الا في القرن الثاني عشر من الميلاد ببلاد البناديك وسبب ظهورها جماعة من التجار كان لهم مبالغ عظيمة على الحكومة فاتفقوا على ان يجمعوا سندات تلك المبالغ ويتعاملون بها في تجاراتهم كما لو كانت الحكومة صرفتها

وحيث كانت الحكومة تدفع فائظاً لمبلغ الدين كان ذلك الفائظ ينتقل مع الدين من تاجر الى اخر تبعاً لاحوال التجارة ومن لا اخذ له ولا عطاء ياخذ فائظ مبلغه من البنك بدون استئذان الحكومة

ثم ان تلك الطريقه اتبعت في اغلب البنوكة التي ظهرت فيما بعد وجرى بها العمل في بعض البلاد مثل بلجيك وهولانده

ونحوها والغالب ان المعاملة كانت اولاً بالنقود ليس الا واول ظهور ورق النقد كان ببلاد الانكليز في بنكها الذي ظهر سنة الف وستمائة واربعة وتسعين ولم يتحقق استعمالها قبل ذلك

وفي تلك المدة كان المعلوم ان جميع الاختراعات ايًا كانت انما هي حق الحكومة سيما ما يتعلق بامر التجارة وسبب انشاء البنك الانكليزي هو ان الحكومة رغبت في اقتراض مليون والفي جنيه انكليزي فانشأت البنك المذكور وخصت من يدخل في الاقتراض بمزايا للترغيب منها انها جعلت لهم فائظًا في كل مائة ثمانية كل سنة ومنها انها رخصت لهم في الاستيلاء على مبالغ ممن يرغب تنمية ماله عندهم ومنها ان لها ان تقرض من شاءت وتجري الاسكنت في اوراق التجارة كالسندات وورق الحوالات ومنها ان لها ان تخرج ورق نقدية تدفع مبلغه نقدا حين عرضه عليها ومنها انها تحول عليها امورًا ميربة في مقابلة ربح معلوم وقد جعل في الاصل ميعادهـا ١٢ سنة لكن لما ظهر للحكومة من ذلك فوائد صارت كلما انتهى الميعاد تجدده حتى كانت سنة الف وسبعمائة وثمانية فثبتت على ما هي عليه الى الان وكانت البنوكة كلما تجددت المواعيد تتحصل على مزايا جديدة بورود المبالغ اليها بكثرة حتى صار البنك تقريبًا هو القائم باحوال التجارة والحكومة ووصل راس ماله قريبًا من خمسة عشر مليونًا من الجنيه الانكليزي وهذا القدر كان دائمًا دينًا على الحكومة وكان ذلك اشبه بالضمان للبنك

وزيادة قوة في اعتماد الناس وائتمانهم له وبهذا السبب كانت البنوكة كانها مشاركه للحكومة في امورها حتى كان كل اضطراب وتقلب يحصل حسناً كان او قبيحاً اذا تأثرت منه الحكومة يتأثر منه البنك ايضاً

وفي سنة الف وسبعمائة وسبعة وتسعين لما حصل توقف في دفع قيمة الورق للبنك نقوداً حصل له اضطراب عظيم وصارت البنوكة تشبه فوريقة ورق لانها كانت تنشر ورق النقدية بحسب احتياج الحكومه ولذلك حصل في قيمته نقص كما ذكر لكم حضرة الخواجا واستمر ذلك الى سنة الف وثمانمائة واثنين وعشرين والمنافع التي عادت على الحكومة في تلك المدة لا يمكن حصرها ومتوسط ما اقترضته الحكومة من البنك يقرب من خمسة وثلاثين مليونًا من الجنيه الانكليزي ومع هذا لم تقف حركة التجارة وكان الاسكنت جاريًا انما نزلت قيمة ورق النقد قريباً من خمسة وعشرين في المائة وقد حصل الاذن من الحكومة للبنك الانكليزي في اخراج اوراق نقدية بقدر اربعة عشر مليونًا من الجنيه فقط واذا زاد مبلغ الورق عن ذلك يلزم ان يكون له مقابل من النقد العين او من السبائك في صندوق البنك

وفي سنة الف وثمانمائة واربعة واربعين انقسم البنك الانكليزي بمقتضى الاوامر الملوكية الى بنكين الاول استلم الصنف الموجود في البنك والسندات التجارية المتضمنة للاربعة عشر مليونًا من الجنيه

منها ما يقرب من اثني عشر مليونًا على الحكومة وجعل لها ان يخرج ورق نقد بقدر الاربعة عشر مليونا سندات مضافا عليها قدر الصنف وللناس ان يشتروا منه ورق النقد ويبدلونه بصنف عين فالاوقية من الذهب الذي عياره اثنان وعشرون قيراطا بثلاثة جنيهات وسبعة عشر شلينا وتسعة ديناريو والاوقية من الذهب السبيكة الذي عياره كالسابق بثلاثة جنيهات وسبعة عشر شلينا وعشرة ديناريو ونصف والقسم الثاني يأخذ من الاول بمبادلة الذهب باوراق النقد اسوة الاهالي سواء بسواء

ومن ابتدا هذا التاريخ صار منع البنوكة من اخراج ورق نقدية مطلقًا واذا اجتمع بنكان صغيران فلا يتعدى ما ينشرانه من الورق قدر ما كان ينشره واحد منها قبل صدور الامر

ويمكن البنك الانكليزي ان يزيد في تكثير البنوكة التابعة له على حسب رغبته في تكثيرها في جميع الجهات بدون تغيير قدر مبلغ الورق المخصص له واذا ابطل البنك الكبير احد البنوكة الصغيرة فله باذن من الحكومة ان يضيف الى نفسه ثلثي ما كان بطل منه

وعدد البنوكة التي في المديريات التابعة للبنك المذكور سنة الف وثمانمائة وثلاثة وخمسين احد عشر بنكا عمومية غير مائة وسبعة وستين بنكا خصوصية توجد ببلاد الانكليز وبلاد الغال من ضمنها خمسة وستون بنكا لها الاذن باستعمال ورق النقد ولها بنوك بجميع

الاقطار الانكليزية متفرعة عنها عددها ثلثمائة وواحد وار بعون بنكا

واول بنك حدث ببلاد فرانسا انشاه رجل انكليزي سنة الف وسبعمائة وستة عشر وفي اول الامر حصل له رواج ولكن من تسلط الحكومة عليه وعدم انقطاع طلباتها فسد حاله وبطل وبقي الامر على ذلك نحو ستين عاماً ثم صار تنظيم صندوق الاسكنت وكان رأس ماله خمسة عشر مليونًا ليورًا تورنوا منها عشرة ملايين اخذتها الحكومة فرضةً بشرط دفعها على تقاسيط سنوية ولكن بسبب قلة الائتمان وعدم الصدق في كلام الحكومة لم يحصل نجاح هذا الامر الا بعد صرف نظرها عن اقتراض هذا المبلغ من الصندوق المذكور

وعلى مقتضى الامر الصادر سنة الف وسبعمائة وتسعة وسبعين جعل رأس المال اثنى عشر مليونا وربح في المائة اربعة في السنة في حال السلم واربعة ونصفا في حال الحرب

وفي سنة الف وسبعمائة واثنين وثمانين كسد حال التجارة فتأثر من ذلك صندوق الاسكنت ولكن دفعت الحكومة له ما كان عليها نقدًا فانصلح حاله واستمر على هذا الامر مدة ثلاث سنين حتى حصل لكل سهم في السنة خمسة عشر ونصف

وفي سنة الف وسبعمائة وسبعة وثمانين صدرت اوامر بجعل راس ماله سبعين مليونا ورخص له في شراء ورق النقد والتجارة

ومدوا لذلك ميعادًا ثلاثين عاماً واقترضت منهُ الحكومة سبعين مليونا فحصل من ذلك وقف الحال بسبب عدم امكان الصرف لارباب الورق لوقته

وفي سنة الف وسبعمائة وثمانية وثمانين صدر امر بعدم صرف نقدية في مقابلة اوراق واستبدالها باوراق تجاريه ممن عنده ولكن من كثرة طلبات الحكومة وازدياد كمية ورق النقد حصل اضطراب عظيم نشأ منه توقيف العمل والدفع واستمر ذلك الى قيام حرب الفرنساوية وبعد الهدء ظهرت بنوكة تعاملت في بعض الامور التجارية واول ماظهر صندوق الحساب الجاري سنة الف وسبعمائة وستة وتسعين وبعده سنة الف وسبعمائة وثمانية وتسعين صندوق التجار وترتب على ذلك نزول سعر النقدية من تسعة في المائة الى ستة وراج امرهم رواجاً عظيماً وربحوا من دون ان يسمع بما يخل بامانتهم وما ذاك الا لكونهم غير مرتبطين بالحكومة ولكن لما ظهر للحكومة ان من الضروري وجود بنك تستمد منهُ شرع بونابرت الاول ايام قنصليته في تشكيل بنك سماه بنك فرانسا على نسق بنك الانكليز وجمع لهُ جملة من البناكيرة المشهورين ولاجل ان يأتمنهم الناس دفعت له الحكومة خمسة ملايين فرنك قيمة خمسة الاف سهم فدارت حركة البنك وجرى فيه الاخذ والعطا وكان هناك بنك باسم صندوق الحساب الجاري وكان التجار والناس يعتمدونه فجمعت الحكومة الاثنين وجعلتهما بنكا واحدًا وكان ذلك في سنة

الف وثمانمائة تقريبا وفي اول سنة كان عدد ما اخذ من الاسهم سبعة الاف وخمسمائة ثم ازداد حتى بلغ خمسة عشر الفًا ومبلغ ما صار اسكنته مائة وواحد وعشرون مليونًا في ظرف سبعة اشهر ونصف وفي السنة الثانية بلغ مائتي مليون وخمسة وفي السنة التي بعدها بلغ اربعمائة مليون وثلاثة واربعين مليونا وكان كل بنك بنشر اوراق النقدية ولم يحصل من ذلك ما يخل بالاخذ والاعطاء انما في سنة الف وثمانمائة وثلاثة صدرت اوامر الحكومة بجعل ذلك مخصوصا بالبنك الفرنساوي فحصل الحاق بعض البنوكة به وكانت مدة الرخصة خمسة عشر عاما ومبلغ رأس المال خمسة واربعين مليونا والربح في المائة ستة في السنة وما زاد من الربح يحفظ في البنك

وحيث كانت الحكومة دائمًا تتداخل في امور البنك كان سير البنوكة غير مستقيم فكان في بعض الاوقات يحصل الكساد ويقل الامن واستمر ذلك الى سنة الف وثمانمائة وستة

ثم سَنّ بُونابرْت رئيسا للبنوكة جعل معه وكيلين وحدد لها حدًّا تسير عليه وجعل رأس مالها تسعين مليونا وحدد الميعاد الى خمس وعشرين سنة ورخص في احداث بنوكة في المدن تبعا لهذا البنك ولكن بسبب ما ظهر للحكومة من عدم الثبات مع الخوف الذي كان يعتري الناس لم يحصل رواج وتعطلت البنوكة وخسرت وبقيت اكثر مبالغها بصناديقها بدون عمل وكان هذا

الاضطراب يكثر ويقل الى سنة الف وثمانمائة وثلاثة ثم تحصلت البنوكة على حريتها واستقلالها بالنظر في امورها كما تشاء وسوعد البنك الفرنساوي من بين البنوكة بنشر اوراق النقدية فصارت اغلب المعاملات واردة على هذا البنك في المدن وفي المديريات فحصل الضرر لغيره من البنوكة واستمر ذلك الى ان حصل القيام الذي كان سنة الف وثمانمائة وثمانية واربعين فصدر الاذن للبنوكة الاخر بنشر ورق النقدية فكثر نشر الورق وحصل كساد عمومي فيه ونقصت قيمته فصدرت الاوامر ثانياً باستقلال البنك الفرنساوي به واستمر الحال على ذلك الى الان ومن ذاك الوقت انتظمت امور التجارة

وفي سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين صدرت اوامر بامتداد ميعاد الاوراق الى سنة الف وثمانمائة وسبعة وتسعين ورخص لهم في مبلغ واحد وتسعين الفا ومائتين وخمسين سهما مستجدة وبهذا زاد رأس المال عن اصله وبسبب هذه الزيادة رغبت الحكومة في اقتراض مائة مليون وبقي ما كان لها من المزايا على اصله وزيادة على ذلك صار يمكنها تشكيل بنوكه في المديريات لكل بنك مجلس ومدير يتعين بمعرفة مجلس البنك ويكون مقبولاً عند الحكومة وعدد اعضاء المجلس المذكور يختلف من ستة الى خمسة عشر ومن ثلاثة مفتشين منتخبين بمعرفة مجلس البنك الفرنساوي واما الاعضاء فتعيينهم بمعرفة الحكومة ايضاً من خمسين منتخبين

من كبراء ارباب الاسهم الذين في الجهة التي بها البنك ويقدم المجلس اسماءهم للحكومة في عريضة فتنتخب منهم من يصلح

ويوجد ايضاً بنكان شهيران غير البنك الفرنساوي وفروعه احدهما لتسهيل امر القرض على مرهونات العقار والاراضي والاخر لتسهيل الاعمال المهمة مثل انشاء ورش اومعامل او سكك حديدية وما اشبه ذلك

وبينا هم في هذا الحديث اذ وصلت بهم العربة قريباً من العين فنزلوا ومشوا الى ان وصلوا الى العين فقال ابن الشيخ اني من الامس الى هذا الوقت لم اسمع الا الالاف المولفة من الجينهات الانكليزية وكذلك لا نرى في بلادنا الا دراهم مضروبة بالبلاد الاوروباوية واغلب معاملة بلادنا بالجنيه الانكليزي والبنتو والريال ابي مدفع وابي طيره والسينكو وكلها مضروبة باوروبا

ولم يضرب ببلادنا غير الجنيه والريال المصريين والمجيديين مع عزة وجودها وقلة المعاملة بها فهل اخرجت الارض كنوزها للاوروباويين ام تحولت اليهم كنوز كسرى التي كان حازها ام عثروا على ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد

فقال يعقوب الكلام في هذه المسألة متوقف على مراجعة رسالة كنت جمعتها فاذا رجعنا اطلعتكم عليها وفيها بيان ما استخرج من المعادن في القرون الخالية وما استخرج منها في القرون التالية مما وجدته في كتب المؤرخين ودفاتر الاحصاء المحفوظة في دفترخانة الحكومة

١٣١٨

المسامرة (١٠٧)

الهوام والدواب



فاستحسن الشيخ منهُ ذلك ثم انهم وصلوا الى الغابة فدخلوها وطافوا في ارجائها وكان الجو صاحياً والوقت معتدلا وظل الاشجار قد رسم على الارض رسوما يضيء ما بينهامن نور الشمس كبساط مكلل بالجواهر وعلى حسب شكل الارض من انبساط او تكور مع تقارب الاشجار وتباعدها يظهر للظل ضوءٌ حسن وصور اشكال مختلفة تحير الواصف في وصفها وكان النسيم يحرك اغصان الاشجار فياخذ من رطوبتها ويسير على وجه الارض فتنتعش به الارواح

وينشا عنه الانبساط والانشراح وبسبب ذلك كان مشيهم على الارض هونًا هينًا وكانوا اذا تعبوا جلسوا على بساط الارض الاخضر وتوسدوا احجارًا ملساء تشبه المرمر فكان الشيخ يعجب من اتساعها وتنوع اشجارها وكان لا يعرف اكثرها ويقف عند كل شجرة تعجبه ويسأل عنها يعقوب فيذكر له ما يعلمه وكثيرًا ما كان لا يقدر على وصف اشجار لا يعرف اسماها وكان يخجل من ذلك ويعتذر للشيخ ويقول ايها الاستاذ ارجوك ان تغفر لي ذنب جهلي فان معرفة جميع النبات والاشجار واسمائها ومنافعها وخواصها علم كالبحر بلا ساحل وله رجال مضت اعمارهم في تدوين كتبه وانا لا اشك في ان للخواجا بهذا العلم معرفة تامة فان هذا الفنّ من ضمن ما يقرأ بالمدارس واما انا فلم ادرسه والذي عرفته منه انما استفدته من المطالعة فقط فكان قليلاً جدًّا والفضل في ذلك للسائح الذي عطف الله قلبه عليّ فاني بعد دخول اختي الدير رجعت الى لوندرة فاقمت عنده مدة وسافرت معه اسفارًا في جهات شتى وكان لي بمنزلة الوالد ولعله الرغبة مني في حب الاستفادة كان يعلمني من معلوماته فحسن امري وانطلق لساني وانزلته منزلة ابي بل اعظم فمضى عليّ خمس السنوات التي اقمتها معه كأنها ساعة من نهار لحسن معاشرته وكنت اود ان اكون بقية عمري في خدمته ولكن الدهر حال بيني وبينه وبعد ان كنت مؤملاً ان لا افارقه قطع املي وهدم من معيشتنا لذاتها

ففاجأه هادم اللذات ومفرق الجماعات ففارقني انسي ويا ليت غض الدهر عنا طرفه ولم يتخذ التفريق بين الاحبة حرفه ومذ حكم الله عليه بالموت وهو بايطاليا تجددت احزاني وهاجت اشجاني ولعبت بي ايدي الحادثات وعرضت لي آفات البليّات فاتخذت صنعة الملاحة وجبت من البحار كل ساحة وطفت جميع البلدان لاختبر من فيها من السكان فلم اجد بعده بدلاً اركن اليه واعول في مهماتي عليه فاسال الله ان يغمره في رحماته ويتجاوز عن سيآته ثم هطلت عيناه بالدموع فاخذ الشيخ يهوّن عليه حتى هدأت عبراته ثم قال ايها الاستاذ اني لما تذكرت من كان محسنًا اليّ لم اتمالك من البكاء عليه حيث حرمت من النظر اليه

فقال له الشيخ هذا بعض ما يجب لصاحب المعروف على الحر البر العطوف

ثم ان يعقوب خشي ان يضل عن الطريق فعاد راجعًا الى مبدئه فوجدوا ربوة مظللة بالاشجار معشوسبة فجلس الشيخ فيها ليستريح فجعل ابنه يتأمل في جميع اشجارها ويعجب من عظم كل شجرة ووقف عند شجرة من شجر البلوط قد اخذت غاية الارتفاع وبجانبها شجرة صغيرة لا ورق لغصونها وعليها دوابّ صغار لا تحصى فتاملها فوجدها تاكل من الاغصان جلدها والتفت فوجد من جنسها فوق اغصان اشجار اخرى ووجد بعض تلك الدواب يمشي على الارض الى اشجار فيصعد عليها فقال ان في

مصر بعض دواب تاكل الزرع الاخضر واخرى تاكل ورق الشجر وفي بعض السنوات تكثر على اشجار الفاكهة فتضرها ضررا عظيما ولكن لاشبه بينها وبين هذه الدواب

فقال يعقوب ان الهوام المضرة بالاشجار لا تحصى عددًا وتختلف انواعها باختلاف انواع الشجر والبقاع وفي بعض السنين تتجاوز الحد في الكثرة ببعض الجهات وتقل في جهة اخرى فمن يدخل احدى غابات المانيا يسمع لتلك الدواب صوتًا منتظما يحصل من قرضها غصون الاشجار واوراقها فيخرج غالب الناس اليها وينتشرون في ارجآ الغابة ويقسمونها بينهم ويضربونها من كل جهة ولكل فرقة من الناس رئيس ومعهم مزاريق وعصي طوال كانهم خارجون لمقاتلة الاعداء وفي نعض الجهات يشتغل كثير من الناس بحفر خنادق عميقة في محاذاة الطرق والحدود يمدونها الى مسافة بعيدة للفصل بين اجزاء الغابة او بينها وبين ما يجاورها لمنع الدواب عن الاشجار الخالية منها وبالليل يظهر نوع اخر منها يعرف بمصر بابي الدقيق او الفراش اذا رأى النار اسرع اليه حتى يحرق نفسه في النار فلاجل قتله يشعل الناس النار في الاشجار فيرى من يطوف بالغابة في كل قسم شجرة او اكثر مشتعلة بالنار لها لهب ودخان صاعد نحو السماء بحيث تضيء من كل جهة والدخان متكوّن كالسحاب العظيم فوق الغابة وبقرب الاشجار اشخاص لتقوية النار وإيقاد غيرها اذا اقتضت الحال ذلك

فيكون حال مزعج ويأسف من يراه على اتلاف هذه الاشجار العظيمة وما فيها من الخيرات ولا يسعه الا التفويض لقدرة الحكيم جلّ وعلا فان الانسان لايدرك الحكمة في تسلط هذه الهوام على اعمال الانسان واتلاف ما به منافعه من هذه الاشجار وغيرها وعلى صغر هذه الهوام واحتقارها بالنسبة للانسان لايمكنه التخلص من ضررها وفي بعض الاوقات تضطرب اهل البلاد ويخرجون جميعًا رجالاً ونساء صغارًا وكبارًا ويتفرقون في ارجاء الغابات ومعهم عصي وحراب وشماميط لقتلها وتارة يحفرون خنادق فتقع هذه الدواب حين عبورها بالخنادق فتكون طبقة عظيمة سميكة فيهيلون عليها التراب

ثم قبض على دابة صغيرة مما على شجر البلوط وقال هذه تاكل خشب الشجر وتدخل فيه وتحفره خطوطاً حتى يتلف كله وتجعل هذه الخطوط التي حفرتها بيوتًا لها بين الخشب والقشر تبيض فيها وتفقس ويقال ان الانثى تبيض من خمسين بيضة الى مائة

واغلب هذه الدويبات يكثر ظهورها في فصل الخريف وفي بعض الاوقات يتكوّن في الجوّ منها طبقات تمتد امتدادًا عظيماً في هذه البلاد بحيث تكون كالجراد في بعض الجهات والخنازير تأكل هذه الديدان وتنكبّ عليها ولذلك هم يستعينون بها على اتلافها فيأتون بالخنازير في شهر اغسطس الذي تنزل فيه الديدان

من فوق الاشجار لتسكن جوف الارض او تحت الحشايش فيوزعونها في داخل الغابات فكلما نزل دود من فوق الشجر التقطته واكلته

ومن هذه الهوام صنف صغير الجسم له جناحان عريضان بالنسبة لجثته يطير بها في بعض الاحيان ويسمى بين الاهالي بخراق الاذن ويزعمون انه يدخل في اذن الانسان ويخرقها ويسكن في المخ كذلك ولكن هذا غير صحيح وانما سبب هذه التسمية انه يوجد في محل الذيل لذلك الصنف شي كالآلة المستعملة في خرق اذن البنات وهذا الصنف يكره الضوء ويقتات من الفواكه والازهار كالورد وغيره والانثى منه تبيض وتجعل بيضها تحت ورق الشجر مجتمعاً وترقد عليه كما يفعل الدجاج واذا حصل له تفرق بعبث احد فيهِ مثلاً فانها تنقله الى محل اخر وتضم بعضهُ الى بعض وترقد عليه الى ان يفقس فيكون اولاً ديداناً صغيرة جدًّا لا تحجب ما وراءها فتحنو عليها الام بالشفقه والتربية الى ان تأخذ لوناً اسمر فتبقى على هذا اللون وتستغني عن امها ومنها صنف يكون عادة فوق غصون الاشجار ويقتات من صيد الدويبات الصغيرة ولا يضر بالشجر ويتميز عن الجراد بطول جسمه وعظم اجنحته وهو بطيء الحركة اخضر اللون مشرب بصفرة يشبه لون غصون الاشجار التي يعلوها بحيث لا يفرق الناظر بينهما وهذه الدواب كثيرة التحيل فاذا ارادت اقتناص دويبة دنت منها مع السكينة والاحتراس حتى اذا كان بينهما قدر مد ذراعيها وثبت عليها وامسكتها

فتدخل في جسمها كثيرًا من الشوك الذي بيديها ورجليها فتهلكها وتأكلها وتعرف بمصر بفرس النبي وتسمى ايضًا لمقدسة لانها ترى في غالب الاوقات رافعة نصفها الاعلى عن الارض كهيئة المبتهل وبعض الناس يقول انها تهدي المسافر للطريق

ومن الدويبات التي تأكل اوراق الشجر دوية طويلة دقيقة ذات ارجل طوال جدًا لا فرق بينها وبين اعواد الورق ولذا لا يميزها الناظر اذا كانت فوقها وهي بطيئة الحركة واذا ادركتها الشمس في سيرها وقفت ومدت ذراعيها وبسبب نحافتها تسميها الاطفال العصا الماشية او شعرة الشيطان

ومنها ما يكون له اجنحة يطير بها وتسميه الاهالي في بعض الجهات الورقة الطيّارة

واشنع جميع هذه الدويبات الدّويبات النطاطة ذات الوثوب التي منها جميع اجناس الجراد لها ايد وارجل طويلة يعظم بها وثوبها ولها صوت يسمع متى كانت الشمس فوق غصون الاشجار وتألف الشمس وجاف الاماكن وهي انواع كثيرة وفي البلاد الجبلية تجتمع بكثرة في الشقوق التي بها النبات والعشب ولها نغمات مخصوصة عند طلب الذكر للانثى او الانثى للذكر عند استغاثتها بذكرها من ذكر اجنبي يحاولها وتحدث هذه النغمات من حك ارجلها على ثوبها الذي فوق جسدها وبحسب اختلاف قوة الاحتكاك تختلف قوة النغم وكلما ارتفعت الشمس فوق الافق

قوي النغم وكلما مالت للغروب او قويت درجة البرد ضعف وكثيرًا ما تكون هذه الانغام غير مسموعة لنا وتكون مسموعة لجنسها فقط والذي يكون منهـا ذا نغم ظاهر بحيث نشعر به لا يهوى الاّ البلاد الباردة وعكسه يهوى البلاد الحارة وكل من نظر الى هذه الدّويبات العجيبة الشكل استحسنها واعجبه شكلها ولونها الاحمر والازرق وعادة تكون قليلة ولكن لاسباب لا نعلمها تملأ جوفها من الهواء في بعض الاوقات وتسافر الى البلاد الشاسعة ويحصل منها ضرر كبير وقد ملئت بذكر مضارها الصحف في الازمان الماضية والحاضرة وعرف الاقدمون منها نوعين ينسب اليها تلف اصناف المزروعات احدها وهو الاكبر يعرف بالجراد السياح ويكون غالبًا في السواحل الغربية من افريقيـة وفي سواحل الصين وثانيها وهو الاصغر يظهر باوروبا لكنه قليل وفي امريكا والاوسترالي يظهر نوع من الجراد غير كثير الاذى ولا يكثر نوعه كالبقية والذي بافريقية يتقلب من حين فقسه الى كبره في خمسة اطوار فالاول بعد خروجه من بيضه بخمسة ايام والثاني بعد الاول بستة ايام والثالث بعد الثاني بثمانيـة ايام وفي هذه الثلاثة يكون بدون اجنحة اصلاً ثم الرابعة بعد الثالثة بتسعة ايام فتبدو الاجنحة صغيرة والخامسة بعد الرابعة بسبعة عشر يومًا تكون تامة الاجنحة فتتكامل منها القوى بعد خروجها من البيضة بخمسة واربعين يومًا

المسامرة (١٠٨)

الجراد

فقال الشيخ ان الجراد آفة واذا حل بجهة اهلك الحرث والنسل وقد حل في بعض السنوات ببلادنا فاتلف اشياء كثيرة حتى ان الحكومة اخرجت الاهالي لجمعه وجعلت لهم جعلاً على ذلك فجعلت على كل اقة منه قرشاً

فقال يعقوب كتب التاريخ مشحونة بذكر الجراد وما حصل منه من المصائب وهو غالباً يظهر من صحرآ بلاد العرب والتتار فان الريح المشرقية تأتي به الى افريقية واوروبا وكثيراً ما تكون

سفن السياحين في البحر مغطاة به فيكون فوقها كالسحاب ويكون ممتدًا فوق البحر مسافة بعيدة واكبر مساعد له على السير هو الريح

وفي سنة الف وسبعمائة وثمانية واربعين وصلت جيوش الجراد بلاد الانكليز حتى تعطل جيش شارل الثاني عشر عن المسير بعد كسرته في بلتاوا من بلاد البسارابي فمن كثافته كالسحابة لم تتمكن الناس ولا الخيل من السير وقد تغير نور النهار بظلام شديد

وقد رأى الناس في بلاد الهند وبلاد مهرات سحابة من الجراد طولها ثمانون ملقة وسمكها عدة اقدام وذكر بعض السياحين انه يكثر ببعض جهات افريقية في بعض الاحيان حتى يكون سطح الارض والانهر مكسوًا به بحيث لا يتمكن الانسان من وضع قدمه على الارض من كثرة الرم

وفي سنة الف وثمانمائة وخمسة وثلاثين احتجب نور الشمس والقمر عن ارض الصين بسبب سحابة منه حتى اهلك المزروع ثم اهلك ما في المخازن وملبوسات الخلق داخل بيوتهم ولم يسع الناس الا الفرار الى روءوس الجبال

وفي سنة الف وسبعمائة وثمانين نشاء منه قحط عظيم ببلاد مراكش حتى اكل الاهالي اعواد النبات وجذوره وحب الشعير الذي في ارواث البهائم وبعر الجمال

وفي اخر سنة الف وثمانمائة واربعة وستين نزل ببلاد السينيجال فاهلك جميع محصولها وشوهد منه في الجوّ سحابة طولها خمس عشرة ملقة

وفي سنة الف وثمانمائة وخمسة واربعين حصل بسببه قحط ببلاد الجزائر وتبعه في عدة سنين قحط عظيم وفي سنة الف وثمانمائة واربعة وستين خرج من الصحرآء وهجم على البلاد والجزائر فاكل جميع المحصول حتى لم يبقِ شيئاً واستعملت جميع الطرق للتخلص منه فتفرقت العساكر مع الاهالي لجمعه ومع ذلك فلم يجد هذا شيئاً فاكل شجر العنب والتوت والزيتون وغير ذلك حتى اكل شجرة الدخان ولم تمنعه مرارتها من اكلها ولم يترك جهة من الارض الا وقد غطاها باحيائه واموانه فكانت السحابة منه تمتد نحو ثمانين ملقة وذلك في عموم جهات الولاية .

ولاجل التخلص من وباله كان الناس يجتمعون ويصيدونه بالشباك من الارض ورؤوس الاشجار ثم يحرقونه بالنار واهل السودان يطردونه بالتصويت واهل هولاندة استعملت المدافع في ازالته وفي الازمان القديمة كان اليونان يجعلون على كل شخص كيلاً مخصوصاً ياتي به منه

وفي سنة الف وثمانمائة وثلاثة عشر ببعض مديريات فرانسا جعلت الحكومة لكل من يأتي بكيلو جرام من بيضه نصف فرنك ولمن ياتي بهذا القدر من الحيوان ربع فرنك

وفي مديرية مرسيليا صرف في جمعه خمسة وعشرون الف فرنك وكذا مديرية ارل صرفت مثل ذلك وفي الجزائر جعل ربع فرنك على جمع كيلوجرام فكانت الناس تاتي باربعين او خمسين جملا محملة منه

وفي بعض البلاد يوكل الجراد بانواعه وقد جوّز موسى عليه السلام لقومه آكل اجناس اربعة منه واليونان كانت تبيعه بالاسواق وذكر استرابون الجغرافي ان الحبشة ياكلونه ويجعلونه من الاطعمة والمغاربة في الجزائر ياكلونه ويسمونه الجراد الغربي ويكتفون بقطع راسه وجناحيه وارجله الطويلة ثم يملحونه ويأكلونه والاولاد والنسا تجعله في خيوط وتبيعه في السوق وهناك بلاد تقليه بالزيت واهل هولاندة تاكله ايضًا وبعض الناس يزعم ان الذين يجعلون قوتهم منه لا تتعدى اعمارهم الاربعين وفي راس الاربعين يمتلىء جوفهم وجلدهم ديدانا صغيرة تهلكهم وكثير من الحكماء والسياحين يكذبون ذلك

فقال الشيخ في شرعنا يجوز اكله مطلقا فان الشارع نص على حرمة الميتة الا السمك والجراد وحرمة الدم الاّ الكبد والطحال فسبحان من دبر الاكوان واحسن صنعها فلله في تسليط بعض جنوده على بعض حكم واسرار لا يقف عندها علم البشر فعلى الانسان التسليم للحكيم العليم

فلله في خلقـــه حكمـة تكل البصائر عن دركها

١٢٣٠
فسلم لربّ الورى حكمه كما تفعل الطير في أيكها



المسامرة (١٠٩)

نور الغاز

وبينا هم يتجاذبون اطراف الحديث اذا بالخواجا الانكليزي اقبل فرآه ابن الشيخ على بعد فقام ليقابله فالتفت الشيخ فرآه مقبلاً فقام له فلما جلس الخواجا قال ان بُعدي عنكم هذين اليومين كغياب عامين وحقكم ما تخلصت من صاحبي الاّ بعد ان اعتذرت له بحضرتكم ووعدته بالعود اليه مع حضرتكم ولو رأيتم هذا الرجل ومسكنه لا تهون عليكم مفارقته فانه على طريق يمرّ منه خلق

كثير وحواله بستان عظيم في وسطه عين مآء نابعة من الصخر وبقربه بلدة لطيفة فيها كثير من الامراء والاعيان يجتمعون كل ليلة عند احدهم وهم اناس ظرفاء لا يستوحش انيسهم ولا يملهم جليسهم وهذا الرجل على غاية من الرقـــة واللطف والادب وزوجته خير منه

فقال الشيخ نحن ذهبنا عند حضرة الخواجا التلياني صاحبكم وتوجهنا الى البرصة معه وفهمنا ما يتعلق بهذه المصلحة من الامور العامة وغيرها وبيّن لنا الايام التي ترتبت علينا في المدرسة المشرقية وذكر لنا تشوقه لحضرتكم ورأينا منه خلقا حسنا قل ان نرى مثله فحصل لنا غاية الانس لولا غيابكم عنا فان يعقوب كان وافيًا بخدمتنا قائمًا بما فيه رغبتنا وراحتنا لكن غيابكم عنا لكونه غير معتادٍ لنا اقلقنا فاثنى عليه الخواجا وقال ما عندكم بعض ما عندي ثم قال اظن ان الترحل قد ازف فان الليل قد اقبل ونريد الرجوع قبل الظلام

فقال الشيخ نحن حضرنا هنا بعد الظهر وتنزهنا في الغابة لكن ما وصلنا الى اخرها لخوف يعقوب الضلال عن الطريق

فقال الخواجا احسن منتزه هنا هو هذا المكان فانه مرتفع يرى منه كثير من ضواحي باريز ولكن الناس لم يعتادوا التنزه فيه بل اعتادوا التنزه في غابة بولونيا

فقال الشيخ قد أتيت الى هذا المكان مرتين هذهِ ومرة قبلها

وفي كل مرة يحدث لي في هذا المكان سرور ونشاط لا اجده في غيره لاني متى كنت وسط هذه الاشجار يخيل لي انها تحدثني بحوادث الايام الماضية وحين ارى بها الاشجار المختلفة كالبلوط والصنوبر والحور وغيرها يزداد قلبي تعظيماً للخالق جلّ وعلا واجد في نفسي انشراحاً جزيلاً

ثم رأيت في اثناء سيرنا اشجاراً كثيرة الانواع جداً لا ترى ببلادنا فسالت عنها يعقوب فلم يفدني الا عن بعضها فقال الخواجا انواع الشجر والنبات لا تحصى ولكل نوع منها خواص وفوائد ومزايا ولكل نوع منها تربة من الارض تناسبه وتختلف طباعها ايضا في احتياجها الى الماء والهواء والحرارة فبعض الاشجار لا يصلح الا في جهة مخصوصة بهواء مخصوص مثلاً وبعضها يصلح في كل ارض وفي كل هواء فلذا تجد من الانواع ما هو عام في جميع البقاع وهناك انواع لا تنبت الا في الماء ولو انكشف عنها ماتت وانواع لو مسها الماء هلكت ومنها ما يبقى زمناً طويلاً وما لا يبقى الا اياماً واني وان كنت درست التاريخ الطبيعي الا اني لصغرسني اذ ذاك وعدم اقتصاري عليه لم اتحصل منه الا على بعض جمل والا فله رجال تفرغوا له وافنوا اعمارهم فيه حتى اطلعوا على اسراره فاظهروها للناس فانتفع بها الجمّ وتمتعوا التمتع الاتمّ ولم تتسع دائرة هذا العلم الا في هذا الزمان فبهمة افاضل هذا الزمان استكشفت نباتات كثيرة واستعملت فوائدها في مصالح عمومية وسهل بذلك استنبات

كثير منها في بقاع لم تكن بها من قبل وبعد ان كان نفع نبات
كل جهة مقصوراً عليها صار عاماً لها ولغيرها

وستتوجه غداً الى جنة النباتات ان لم يطرأ مانع وهناك نطلعكم
على أجناسها المختلفة فقد اهتمت الحكومة الفرنساوية بانشاء هذا
البستان العظيم وجمعت فيه كل ما يحتاج اليه في تسهيل طرق
التعليم والتعلم لمن اراد ليطبقوا العلم على العمل فاستحسن الشيخ هذا
الاهتمام من الحكومة فقال الخواجا ولم تقتصر على ذلك بل جمعت
ايضاً من كل نوع وجد على وجه الارض من الحيوان والطير
والوحش والحشرات وكذلك من جميع الاحجار والمعادن كل
ذلك ليطبق مدرس التاريخ الطبيعي العلم على العمل فاطرب
الشيخ هذا الصنع واشتدت رغبته في الخروج معه الى تلك الجهة
وفرح ولده بذلك فرحاً شديداً وسأل عن هذا المحل هل هو داخل
باريز ام خارجها فقال الخواجا هو في باريز بل قريب من دارنا
وابوابه مفتحة لمن اراد الدخول ثم دخلوا من احد ابواب المدينة
وكان دخولهم بعد الغروب فوجدوا جميع الطرق مضيئة بالمصابيح
الموقدة بها فكان لها منظر حسن يسر الناظر ويشرح الخاطر بسبب
انتظام الطرق واتساع الحارات واصطفاف المصابيح ووضعها على
ابعاد متساوية وكلما انتقلوا الى موضع رأوا صورة احسن من
الاولى على حسب تقاطع الطرق والميادين وكثرة الانوار واختلاف
الجهات كالاسواق ومحال التجارة فكان يظهر للشيخ وولده ان المدينة

مزينة لاسباب وقتية لانهم رأوا العربات واصناف الخلق تقبل وتدبر في جميع الطرقات التي مرّوا بها كما يحصل ذلك بالنهار سواء بسواء ومن كثرة الضوء واتصاله بضوء النهار تذكر الشيخ شطر بيت فتمثل به وهو

(وليل الكفر ليس له نهارُ)

فتبسم الخواجا وقال هذه الكلمة لرفاعه بك احد رجال المدارس المصرية قالها في رحلته وقد وقع لي منها نسخة فرأيته قد اكثر فيها من مدح باريز واهلها واطنب في وصف نسائها ورجالها وطاف حول الدّن الا انه لم يدندن ورتع حول ذاك الحمى وحام وما رفع عن وجه ليلى اللثام واظنه لم ياتها من ابوابها ولا كشف له عند وصفه لها عن نقابها ومع ذلك فجميع ما ذكره ورآه قد تغير الان ومضى من وقته الى الان نحو ثلاثين سنة وفي هذه المدة تقدمت العلوم والصنائع تقدمًا زائدًا وظهر في اعمال الخلق النتائج المفيدة فصلح بذلك شأنها واتسعت دائرة ثروتها ففي وقت رفاعه بك كان الغاز مثلاً مستعملاً الا ان الطرق التي كانت جارية في استعماله واستخراجه لم تكن كما هي الان، وما حصل من التحسينات والاستكشافات ازال كثيرًا من المضرات التي كانت تحصل للناس من عدم صفائه اذ ذاك وهكذا كل شيء اخذ في التقدم والتحسن

فقال ابن الشيخ كان يخطر ببالي ان هذه المصابيح من الزيت

فاعجب من شدة ضوئها واتامل في خلال النور لعلي ارى فتيلة . فلا ارى الا ضوأ يلمع ونورًا يسطع

فقال الخواجا ليس الامر كما تظن لان الغاز ليس زيتًا من الزيوت بل هو مادة اخف من الهوآء ولا لون له وهو عبارة عن ادروجين وكربون ويسميه الكيماويون بالادروجين المكربن وله معامل يدبرونه فيها ولهم طرق لتوزيعه داخل البيوت وفي الطرقات فيجعلون له وابورًا له مجارٍ تحت الارض من مواسير الرصاص ونحوه فيوزع الى الجهات بثمن معين وتلك العُمد التي تراها قائمة على الطرق مجوّفة وتجويفها متصل بالماسورة التي تحت الارض في محور الطريق وتلك الماسورة متصلة بذلك المحل الذي يدبر فيه الغاز فاذا دخل الليل مرت الخدَمة على تلك العُمد وبايديهم شعل من نار فيفتحون الحنفيات التي باعلا العمد الحابسة للغاز فيضعون الشعلة فوق الثقب الموجود في النهاية العليا لتجويف العمود المغطى بالفانوس فحالا يلتهب الغاز ويضيء فاذا جاء النهار قطعوا الوارد بقفل الحنفية فينقطع الضوء

فقال ابن الشيخ ان هذا الشيء عجاب ما كان يخطر ببال احد من اهل مصر وغاية ما يظن ان الغاز اسم لنوع من الزيوت يستعمل استعمال الزيوت وحيث انه هوآء او شبيه بالهواء فكيف عرفوا ذلك وانتفعوا به

فقال له الخواجا وكانوا قد قربوا من النزول سأبيّن لك

بعض ما يتعلق بذلك فلما وصلوا الى محل اقامتهم دخل كل مكانه وامر يعقوب الخادم باحضار الاكل فاحضره وكان بالمائدة مصابيح في الحائط مغطاة بالبلور الموشى وعليه رسوم لطيفة وفي تلك المصابيح صور كالشمع الابيض النظيف فكان ابن الشيخ يمعن النظر اليها

فقال الخواجا لعلك تتعجب من عدم احتراق الشمع الذي تراه فقال نعم لاني من حين جلست الى الان وهو على حاله لم ينقص منه شيء فقال كيف ينقص وهو حجر ابيض من انواع الرخام والمرمر ثم قال ان الناس لما استعملوا الغاز داخل بيوتهم اخترعوا هذه الهيئة تتميماً للرونق وتقليداً لما كانوا يألفونه من قبل استعمال الشمع فهذه الشموع التي تراها احجار مجوفة والغازيير في تجويفها وخدمة البيوت يوقدونها كما توقد خدمة الحارات الفوانيس التي تراها وقبل الان بنحو مائتي سنة كانت جميع مدن الديار الاوروباوية كغيرها من مدن الدنيا مظلمة ليلاً من قلة المصابيح وغاية ما هناك انه كان يوجد بعض قناديل على ابواب بعض الحارات متباعدة وكان ينقطع المرور من الطرق بعد نحو ساعتين من الليل فكانت المدن وقتئذ عرضة لامتداد ايدي اهل الخيانة اليها وكثيراً ما كان يقع بها القتل والسلب

ثم في سنة الف وخمسمائة واربعة وعشرين ميلادية كثر الشر

وأربابه وتعددت الحرائق بمدينة باريز فصدرت اوامر الحكومة بالزام الاهالي تعليق قناديل على ابواب بيوتهم وعلى الشبابيك والطاقات المطلة على الشوارع واستمر ذلك الى سنة الف وخمسمائة واربعة وتسعين فجعل بدل القناديل في الحارات والشوارع قوائم من خشب عليها فوانيس بشمع الدهن وصدر الامر بمنع المرور في الشوارع ليلاً بغير فانوس

ثم في سنة الف وسبعمائة وثمانية وثلاثين صار تنوير الطرق من الحكومة بعد ان كان على الاهالي وفي سنة الف وسبعمائة وتسعة وثمانين جعل مكان شمع الدهن زيت ولم تزل بعض جهات من اوروبا تستعمله الى الان وكان من المصابيح ما يوضع فيه فتيلة واحدة ومنها ما يوضع فيه اكثر

وقد اختبر ما تحرقه الفتيلة الواحدة من الزيت في ظرف ساعة فوجد ثمانية جرامات ونصف جرام وكان ما بين كل مصباحين مائة متر فكان النور اذ ذاك قليلاً جدًا ولم تحصل الفكرة في الغاز والتكلم في شانه الا في سنة الف وسبعمائة وست وثمانين ميلادية وسببه ان رجلاً من اهل باريز ادعى ان الغاز المتحصل من المواد النامية اذا تجمع في ظرف محكم وعرض للهب اتقد واضاء واقام على دعواه براهين ولكن لم يلتفت احد الى قوله الى ان جاء ويولنا الانكليزي وشرح كيفية استعماله في الاستصباح عوضاً عن الزيت وكان في سنة الف وسبعمائة وسبعة وسبعين من ذلك العهد

اشتغل الكيماويون وغيرهم بهذه المادة

وفي سنة ١٨٠١ ظهر عالم فرنساوي فاستخرجه من الخشب فضلاً عما يخرج من الخشب من قطران وغيره من المواد وهو الذي بيّن طريق استخراجه من الفحم الحجري ومن الزيوت والمواد الدسمة وفي سنة الف وثمانمائة وعشرة بمقتضى قرار من البرلمنتو الانكليزي اذن لجماعة نمساوية في الاستصباح في لوندرة بالغاز فاوقدوه فيها وارادت اهل هذه الشركة في سنة الف وثمانمائة وستة عشر ان تلتزم ايقاده في مدينة باريز فلم يجابوا الى ذلك ولم يظهر وجوده فيها الا من ابتداء سنة ١٨٢٩

فقال الشيخ انا الى الان لم نسمع به ببلادنا بل المستعمل بها الى الان الزيوت والشمع في البيوت ويضع ارباب البيوت الشهيرة قناديل على ابوابهم ويندر وجود قنديلين او ثلاثة بالحارة الطويلة وكثيراً ما يحصل من الضبطية التنبيه بوضع قناديل على جميع البيوت فلا يسمع امرها وبهذا يقل المارون جداً بالليل وتخرج اللصوص والاشقياء من اوكارها

فقال الخواجا يوشك ان يستعمل الاستصباح بالغاز بمصر وبغيرها من بلاد المشرق كما هو باوروبا وما ذلك بعزيز انما يتوقف على تيقظ الحكومة له خصوصاً اذا علمت انه اقل من غيره مصرفاً وثمناً واكثر منه نوراً ولعل بسببه تكثر الحركة وتتسع الثروة ويحصل الامان وتقل اللصوص واهل الفساد

وحيث اخذت مصر في التقدم الان وسهل عليها جلب ما يلزم لذلك براً وبحراً فعن قريب يحصل ذلك حتى لا يكون بينها وبين البلاد الاوروباوية فرق

فقال الشيخ هل يمكن كل انسان تحصيله لما باستخراج اوشراء كالزيوت والشمع قال الخواجا نعم كل انسان يمكنه ذلك اذا عرف طريق تحضيره وتحصل على ادواته والاته ولكن في ذلك كلفة زائدة ولذا جرت العادة بان يكون ذلك لشركاء مقتدرين يتعهدون به مدة معلومة بامر من الحكومة وتجعل الحكومة لهم قدراً معلوماً على توزيعه في الطرق العامة والخاصة والبيوت وتشترط عليهم شروطاً منها ان يكون نقياً صالحاً للاستعمال وان لا ينشاء عنه ضرر بالصحة وجميع اوروبا تستخرجه من فحم الحجر فقط وان كان يمكن استخراجه من غيره كالخشب والدهن والزيوت والمواد الراتنجية كالصمغ وغير ذلك مما يسيل على بعض الاشجار وطرق تحضيره من الفحم الحجري ان يوضع في اسطوانات من الحديد الزهر طول الواحدة نحو متر ونصف او مترين ولا تملاء الى اخرها بل يبقى منها جزء فارغ ليتجمع الغاز فيما بقي منها ثم تسد سداً محكماً ثم توضع في افران مخصوصة لها ويوقد عليها حتى تبلغ من الحرارة الدرجة المطلوبة فينفصل من الفحم بخار فيه الغاز المذكور ومعه غازات اخرى فيصعد في انابيب من الحديد مستديمة البرودة فيصفو من المواد القطرانية الموجودة معه ثم يجعل في صناديق كبيرة

مقسمة الى طبقات بالواح من الصاج وفيها خروق صغيرة وفوقها جير قد طفئ لاجل ان يمر الغاز منها ويتخلص من بعض الغازات الممتزجة بهِ وبمرورهِ في حوض الماء الذي فوقه مخزن الغاز المعد للصرف يتخلص من باقي الغازات على قدر الامكان ويكون صالحًا للاستعمال ويسمون الفحم الذي اخذ غازه بالكوك وهو الذي يستعمله الحدادون

والمخزن المذكور عبارة عن ناقوس او اصطوانة من الصاج ذات قعر سعته قدر سعة الحوض وتوضع فيه منكوسة بحيث يكون قعرها الى اعلى الحوض وفمها الى جهة قعره واذا كانت خالية من الغاز كانت مغموسة جميعها في الحوض ويكون قعرها مع سطحه مغطى بالماء وكلما دخل فيها الغاز ترتفع شيئًا فشيئًا ولكن بمقدار متوازن في الصعود والهبوط عند ازدياد الغاز ونقصه بواسطة اثقال بحيث تكون حركاته صعودًا وهبوطًا منتظمة في اتجاه رأسي لا تفارقه وعند مدخل انابيب الايراد آلة تقال لها العداد يعرف بها مقدار الحاصل من الغاز كل لحظة وآلة مثلها في مبدأ انابيب الصرف يعرف بها قدر المنصرف وبهذه الطريقة يمكن معرفة قدر الوارد والمنصرف والباقي في كل لحظة

وقد ذكرت لك فيما مر انهم في توزيعه في طرقات البلد وشوارعها كيفية حسنة وهي وضع مواسير من الحديد الزهر محكمة تحت الارض على بعد مترفا كثر من ظاهرها وتلك المواسير متصلة

ببعضها وكلها متصلة بماسورة يقال لها الام منصلة بمخزن الغاز ويجعلون في المواسير الموجودة بالحارات امام كل فانوس او فرع خروقا يخرج منها مواسير رفيقة من الرصاص لتوزيع الغاز في كل حارة وهناك حنفيات تفتح وتنلق بحيث يمكن منع الغاز عن جهة مخصوصة او ايصاله اليها متى ارادوا

ففي الحقيقة ان استخراجه يحتاج الى احتراسات وعمليات كثيرة ومصاريف واسعة ومع ذلك لا يصفو بالكلية بل يبقى فيه رائحة كريهة وكثيرًا ما يحصل في محل ارتباط المواسير المدفونة في الارض تنفس فيخرج الغاز وينتشر في الارض ويغوص فيها قدر ثلاثة امتار فيضر بحياة الاشجار والنبات ويفسد ماء العيون والابار القريبة واذا اريد احكام تلك المحلات يرى ان الارض اكتسبت من رائحته الكريهة وربما بقيت فيها مدة تقل وتكثر على حسب حال الارض رطوبة ويبوسة واحيانا يمر قريبا من مجاري المراحيض والسراديب الداخلة في البيوت فاذا تنفس ودخل فيها يستمر حتى يملأ البيوت من منافذ القصبات وغيرها ثم يصعد الى المساكن فيضر باهلها وكثيرا ما تكون احكام حنفيات توزيعه في داخل البيوت غير محكمة السد فلا يمنع منها التنفس وينتشر في الغرف فيضر باهلها وقد دلت التجربة على ان الفتيلة الواحدة منه تحرق في الساعة الواحدة مائة وثمانية وخمسين ليترًا ويلزم لذلك احتراق مائتين واربعة وثلاثين ليترًا من الاكسوجين اللازم لتقويم حياة الانفس

ويحصل من ذلك مائة وثمانية وعشرون ليترا من حمض الكربون المضر بالصحة فان كانت الفتيلة في مكان لا يصل اليه الهوآء فلا يضي الا قليل وقد وصل اليها هواء ردي يحصل منه ما يحصل من دخان الفحم من الاختناق والعلل والامراض الصدرية فلذلك كان الاحسن ان لا يستعمل في داخل البيوت الضيقة ولا باماكن الجلوس والنوم بل يستعمل في البساتين والاماكن الكثيرة الهواء

وقد استدلوا بالتجربة على انه متى اختلط الغاز بالهوآء بنسبة معلومة وكان في المكان جسم ملتهب كشمعة او غيرها فلا بد ان يحصل في الهوآء التهاب ويكون له دويّ وفرقعة شديدة يخشى منه الضرر على من كان قريبًا منه لكن محل حصول ذلك منه اذا زاد الهوآء عن الغاز اكثر من احدى عشر مرة ونصف فلو فرض ان حجمًا من الغاز اختلط بقدره خمس مرات من الهوآء او ستًا او سبعًا الى احدى عشر مرة ونصف فلا يخشى منه ولا ينشاء عنه هذا الالتهاب ومتى زاد عن ذلك ولو قليلاً التهب فالاقامة في مثل هذا المكان خطرة لان زيادة الهوآء غير مأمونة فيكون الضرر غير مأمون فيلزم الانسان اذا احس برائحته في غرفته وكان بها قنديل او شمعة ان يطفئها كذلك الاجسام المتقدة كالمنقد ونحوه وكذلك لا ينبغي الدخول في مكان احس برائحته فيه

ثم قال وكان عدد اللّنبات في مدينة باريز سنة الف وثمانمائة وثمانية واربعين ثلاثة عشر الف وسبعمائة واحدى وسبعين لنبة

صرف عليها نحو اربعة واربعين الف جنيه

وفي سنة الف وثمانمائة وخمسة وخمسين بلغ عدد الشركات المتعهدة في المدينة ثمانية ومقدار المنصرف في المعامل والالات اعني رأس مال هذه الشركات قريباً من مائة وعشرين الف جنيه وكان ثمن المتر المكعب سبعة عشر سنتيما بالنسبة لما تأخذه الحكومة وبالنسبة للاهالي ثلاثين ومدة الالتزام خمسون سنة وبلغ مقدار المحرق من الغاز في سنة ١٨٠٧ قريباً من ثلاثة وخمسين مليون متر مكعب واحترق فيها مليونان وستمائة الف وكسور هيكتوليتر من فحم الحجر وبلغت قيمة ذلك ستة ملايين ومائة الف فرنك

فقال ابن الشيخ قد خرجت مع يعقوب منذ يومين فصادف وقت دخولنا ان البواب كان يتشاجر مع زوجته بسبب ان هرّتها قلبت زجاجة ففاحت منها رائحة كريهة فشممناها فسألت يعقوب فقال هي رائحة زيت معدني فلم افهم معنى هذه العبارة لاني لم اسمع بزيت معدني الا منه والذي اعرفه هو الزيوت المستخرجة من النباتات والابزار والفواكه

فقال الخواجا استعمل بعض الناس من عهد قريب في المنازل والورَش والفوريقات ونحوها زيوتاً اتخذوها من خلط الغاز بزيوت النباتات بكيفية وتدبير مخصوص واستعملوا ايضاً زيوتاً متخذة من الغاز والنفط

وحيث كانت هذه المواد كلها خارجة من جوف الارض من

بقاع معلومة سميت زيوتًا معدنية واللنبات والمسارج المستعملة لها ليست مثل المستعمله للزيوت النباتية بل تختلف في التركيب والقصد من ذلك كله تتميم حرق الابخرة الحاصلة من تلك المواد

ويوجد ايضا زيوت مدبّرة من خلط زيت الترابنتين او النفط او الغاز بالكؤل او غيره مثل زيت الخشب او الغاز المائع ولها قناديل مخصوصة بحيث لا يستصبح به الا فيها ولكن لكون جميع هذه الزيوت سريعة التبخر والتطاير وبادنى شرارة تلتهب بسرعة كان استعمالها لا يخلو من الضرر وكثيرًا ما حصل بسببها حرائق كبيرة ولها روائح كريهة لا تزول من الارض التي تصيبها الا بعد زمن طويل فبتلك الاسباب استدلوا على ان استعمال هذه الزيوت كما هي من غير خلط اوفق واخترعوا للاستصباح بها قناديل جربوها فيها فوجدوها محصّلة للغرض المطلوب ومع ذلك فيلزم تمام التحفظ والاحتراز في نقل تلك المواد من مكان الى اخر وفي حال استعمالها

وبسبب رخص سعرها وشدة ضوئها صارت هي المستعملة الان سيما في جهة الارياف فاستعملها الغني والفقير حتى بلغ قدر المستخرج منه سنة الف وثمانمائة وثمانية وخمسين الفين وخمسة وعشرين مليونًا من الليترات وقد حفر ما عدا الآبار التي كان يستخرج منها مائتان وخمسون بئرًا واذا نجحت التجاريب في وقود الوابورات بها بدل الفحم الحجري عمّت فائدتها واتسعت دائرتها

وانتشرت في جميع البقاع

وقد اخترعوا اليوم اختراعا جديداً وهو انهم استعملوا قنديلا لطيفا مستوفيا لجميع اللوازم الا انه لا فتيلة فيه بل يكتفى عن الفتيلة بوضع جسم فيه ذي مسام كقطعة فحم او اسفنجه تغمس في الغاز المعدني وتوضع فيه فبدلا عن احتراق الزيت الذي يتصاعد منه الدخان والروائح الكريهة يكون الاحتراق للغاز الحاصل من هذه الزيوت فانه بمرور الهواء عليه تتشرب من الابخرة فتصل الى المسرجة فتلتهب الشعلة وتضيء مثل الغاز المستعمل الى ان ينتهي

والغاز الذي يكون في القنديل مركب من تسعين جزءا من الهواء وعشرة من الغاز ومع ذلك لو اريد استعماله في طبقات المنزل جميعها لا ضير فيه ويكفي لتوصيله ماسورة واحدة وبذلك امتنعت اسباب الضرر وسهل على كل انسان الحصول على الغاز بثمن قليل

فانظر كيف كانت ثمرات ابحاث العلماء والكبار يين فقد حصل منها فوائد جمة انتفعت بها الناس عموما وذلك من المادة النفطية على اني لم اذكر لحضرتك جميع الامور والصنائع التي تدخلها هذه المادة لان شرح ذلك يطول فعلى جميع النوع البشري ان يرفع اكف الضراعة بطلب زيادة عدد هولاء العلماء حيث نتج من اعمالهم الخيرية تمتع الفقير بالنور الذي كان محروما منه قبل ذلك الاختراع الذي بواسطته اتسعت دائرة المعلومات

فقال الشيخ كم لله من فواضل وفضائل وكم ادرك المتاخرون ما لم تدركه الاوائل فمن جد وجد ومن لج ولج وقد استحق الفرنج الثناء الجميل وادركوا المجد الاثيل حيث نالوا من التقدم ما نالوا وان كان يؤثر عن المتقدمين ما يقرب من ذلك فقد كانت العرب في حربهم تدبر من النفط ناراً ترسلها الى العدو بكيفيات مختلفة منها ما كان يسبح فوق الماء حتى يصل مراكب العدو فيحرقها ومنها ما كان يصعد في الجوّ ويسقط في اوقات معلومة على اماكن معلومة وغير ذلك مما هو مذكور في كتب مطولة

ومن معرفتهم لهذه الكيفيات وجهل العدو بها كان الفرنج يهابونهم في حروبهم وكثيرا ما انهزموا منهم كما حصل في حرب الصليب وغيرها

المسامرة (١١٠)

السلف والخلف في الاسلام

ولكن لا يدرى الان كيف تناسى العرب هذه المعارف بالكلية وهجروا استعمالها في بلادهم بعد ان علموا فائدتها في حروبهم حتى علمها الفرنج وتفننوا فيها وقد قالوا اذا ظهر السبب بطل العجب فليت شعري ما سبب هجرها في بلاد العرب فان قلنا ان السبب بلادتهم وقصور عقولهم فهم ليسوا كذلك فانهم فرسان الفصاحة واخوان البراعة والسماحة وان قلنا تغير طبيعة ارضهم وهوائها فهما على حالها لم يتغيرا وان قلنا تغير قوانينهم وعاداتهم فهي على ما كانت عليه لم يتغير منها شيء وايضاً فان الارض لم تبخل بشيء كانت تجود به من قبل وكذلك الشمس في غروبها وطلوعها لم تحول قط عن

مستقرها ولكنا اذا تاملنا في امر هذه الامة وما حصل لها خلفًا وسلفًا وما احدثه الخلف بعد مضي السلف وجدنا السبب انما هو ما صار عليه الائمة من خلف هذه الامة فانهم تركوا ما كان عليه السلف من النظر في مصالح الامة والسعي فيما فيه نفعها فنبذوا ذلك كله وراء ظهورهم واتبعوا الشهوات واهملوا الواجبات وحملوا الناس ما لا يطيقون وشغلوهم بتحصيل ما يشتهون فان الائمة للرعايا كالرأس للجسد او كالقلب بالنسبة للجوارح اذا صلح صلحت واذا فسد فسدت وقد كان السلف صارفين انظارهم نحو مصالح العباد العمومية فكانوا يقتدون بهم في اقوالهم وافعالهم وكذلك الفرنج لما كان روءساوءهم بتلك الصفة ظهرت فيهم العلوم والصنائع وسرت منهم الى غيرهم حتى عمّت سائر المواضع

فقال الخواجا ان من تتبع سير المتقدمين من علماء ملتكم واخبار الماضين من ائمتكم رأى ان المسلمين كانوا في صدر الاسلام لا قصد لهم الا نصرة الدين واعلاء كلمة الايمان وكان لا يتولى الحكم بين الناس الا العالم بالاحكام الشرعية

فقال الشيخ قد ورد في الحديث خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم فكل قرن شر مما قبله وخير مما بعده وفي صدر الاسلام كان تعظيم العلم واهله امرًا لازمًا اذ كانت الاحكام الشرعية بين الكافة هي المنظور اليها ولا معول فيما قل وجل الا عليها فكان العلماء في الحقيقة هم اولوا الامر الذين اوجب الله طاعتهم

واعلى في الخافقين رايتهم .

وبسبب ما كان لاهل العلم من الشرف والاحترام بين الخاص والعام رغب الناس في تحصيله وجدول السير في سبيله حتى اتسعت دوائره وعلت في جميع البقاع منابره واستنارت به بصائر العباد وانصلح به امر المعاش والمعاد اذ بكثرته لم يكن قاصراً على الاحكام الشرعية والفنون العربية بل تعدى ذلك الى جميع ما تلزم معرفته لعموم مصالح العباد وعمار الاقطار والبلاد فقد بذل العلماء الجهد في كل علم والفوا اسفار الكتب في فنون شتى ففضلاً عن المؤلفات التي لا تدخل تحت الحصر في الاحكام الشرعية تجد مؤلفات كثيرة في فن الفلاحة والملاحة والتاريخ والتجارة والعمارة والصنائع المتنوعة والطب والحكمة والفلسفة والرياضة وغير ذلك مما يستعين به العالم ويهتدي به الجاهل فكان العلماء بين الناس كالاهلة في السماء تنبعث انوارها على سائر ارجائها وبسبب ذلك تألفت الطباع في جميع البقاع فزادت قوة الامة وقويت شوكتها وكان ذلك سبباً في سعادتها واتساع دائرة ثروتها وما سبب ذلك الا بناء الحكام احكامهم على سنن الشريعة وسلامة بواطنهم من الاغراض الفاسدة فلم يكن همهم الا السعي في المصالح العمومية واجتماع الكلمة الاسلامية ولما سار الحكام في غير هذا المنهاج وسلكوا شيئاً فشيئاً طريق الاعوجاج وصار اكبر همهم تحصيل اغراضهم الفاسدة وحادوا عن احكام الشرع الى شهواتهم تصرمت اسباب

الائتلاف بين الامة وتفرقت طبقاتهم بتفرق قلوب الائمة فسار كل فريق على حدته وترك كل منهم موجبات ثروته فاوجب ذلك فقر الجميع وضعفهم وبما داخل كبراءهم من الطمع حصل بينهم التباغض والعدوان وكثر التحاسد والحرمان وظهر اذ ذاك التمدن الاسلامي الجديد واظن ان ابتداء ظهوره كان في زمن العباسيين ويمكن تعيين ابتدائه بخلافة المأمون وذلك انه اكثر من شراء المماليك ثم قلدهم المناصب العلية وامّرهم على اشراف الامة الاسلامية فكان المماليك هم اصحاب الحل والعقد وفي ذلك توسيد الامر الى غير اهله وتولية السفهاء امور الكرماء فحدث النفور والتباعد بين الناس ثم قويت شوكة المماليك حتى تعدوا على الخلافة نفسها فاستوجب ذلك ازالتها وتفرّقت الكلمة الاسلامية واحتقرت الاحكام الشرعية فاخذ العلم في التقهقر وقل اهله لفقد ما كان له من المزايا واستمر تأخير رجال الفضل من الائمة وتقديم من لا خبرة له بالشرع ولا بتدبير احوال الامة وتصور التمدن الاسلامي بغير صورته الاصلية فان اصله كان موءسساً على العلم والعدل اللذين هما اكبر دعائم الدين

واما التمدن الذي قام مقامه فاساسه البغي والظلم وقهر العباد فبالتمدن الاول كان اجتماع طوائف الامة بالرضى والاختيار لما كانت تستمد منه من الفوائد التي تعم الجميع والافراد من جليل وحقير فكانت الناس منجذبة اليه بالطبع فكان ينمو بالتدريج حتى

كثر العلم والمال وبالتمدن الثاني حصل الفشل والتباغض بينهم وصارت الامة على قسمين حاكم ومحكوم فتخصص الاول بالمزايا والرتب وتحصيل الاغراض والشهوات وانساق القسم الثاني في طريق الذل والقهر وتجرد بالتدريج عن مزايا الشرف حتى كاد يلحق بالحيوان البهيمي الذي يتصرف فيه مالكه من غير ان يكون له اختيار ولا يشك احد ان ذلك اكبر اسباب التقهقر فشتان ما بين زمان اقيمت فيه الشعائر واستنارت منه البصائر وكثرت فيه العلوم والمعارف وزمان تعطلت فيه الاحكام وتباغض اهل الاسلام واندرست فيه العلوم ولم يبقَ من الاحكام الا الرسوم والكلام في هذا المعنى طويل وفتح بابه الان لا يفيد



المسامرة (١١١)

الفار

ثم استأذن الخواجا من الشيخ في القيام فاذن له وشيعه ثم رجع وتوضا وقضى ما عليه نفلاً وفرضاً ولكنه لم ينم تلك الليلة فدخل عليه ولده فقال يابني قد سئمت الاقامة هاهنا واودّ ان نكون خارج البلد وقد تكلمت مع الخواجا في هذا الامر فاستحسنه فماذا تقول فقال له ولده الرأي ما رأيت انما اخشى ان يكون المحل بعيداً فيشق عليكم الحضور الى الدرس فقال له ان هو الاّ يوم في الاسبوع ومع ذلك لم يصرف الخواجا نظره عن هذا المكان بالكلية فان شئنا اقمنا هناك وان شئنا اتينا هنا فقال له ولده متى يكون ذلك فقال لم نتفق فيه على وقت ويغلب على ظني انه يكون غدا لانا متفقون على ان نذهب بعد ظهر هذا اليوم الى بستان النبات فرأى ابن الشيخ الوقت واسعاً فقال لوالده اتأذن لي ان اخرج مع يعقوب الى ان يجيء الوقت فقال له لا مانع ثم قاما ودخلا مكان المائدة فوجدا

الخواجا في انتظارها فاكلوا جميعاً وبعد الاكل اخذ ابن الشيخ بيد يعقوب وخرجا ثم انعطفا على غرفة يعقوب وكان في نفس ابن الشيخ كلام مما سمعه من الخواجا حين كان يتكلم على الغاز ومواد استخراجه وكيفية الاستصباح به فقال ليعقوب خطر ببالي ان اسال الخواجا عن القار الذي تطلى به السفن فاني رأيته حين كنت بمصر ولكني لا اعرف من اي شيء يستخرج ولا من اي جهة يجلب

فقال يعقوب ان القطران والترابنتين مواد راتنجية تستخرج من الشجر ما عدا القار فانه من الارض وهو ثلاثة انواع نوع صلب ونوع مائع ونوع بين ذلك فالاول يلين بالحرارة ويماع اذا وصلت الحرارة لدرجة الغليان واما الاخير فيكفي لميوعته ادنى حرارة وتلك المادة بانواعها يخرج منها زيت يقال له زيت معدني فاذا تكرر تصعيده صار نقياً وصلح للاستصباح به وما بقي بعد التصعيد تارة يكون مادة فحمية وتارة يكون مادة لزجة لينة والثقل النوعي لتلك المادة يقرب من ثقل الماء ولذلك اذا اجتمع معه طفا على ظاهره او قريبا منه وله رائحة تخصه لا تظهر الا عند العرض على النار ومن خواصه انه اذا احرق لا يتخلف له رماد بل تاكله النار جميعه والجامد منه لا يدخل الماء في مسامه ولا يفسد خواصه وهذه المواد تذوب في الكوول وزيت الترابنتينة ولا تذوب في الماء وزعم بعضهم ان هذا المعدن بركاني مكون بين طبقات الصخور التي تكوّنت قديما ويكون في الغالب قريبا من معادن الكبريت

والجبس ومنابع المياه الحارة المعدنية وزعم اخرون ان اصله حاصل من المواد الفحمية بفعل شديد أثر فيها فعزله عنها كما ان اصل الغاز من الفحم الحجري وليس للقار بانواعه جهة مخصوصة بل يوجد في جميع بقاع الارض انما منه ما يكون على السطح ومنه ما يكون قريباً منه وفي بعض الجهات موجود منه طبقة عظيمة المقدار يؤخذ منها من زمن مديد الى الان وهي لم تنفد ولعل له مدداً وان كنا لا نعرفه وبالجملة فانواعه ومواضعه كثيرة وان كان المشهور منه في التجارة ثلاثة انواع كما ذكرنا قار الموميا ويقال له قار يهوذا او اسفلت وقار مالت والزيت الحجري ويقال له باللسان الافرنجي بترول فالنوع الاول جامد بطبيعته واذا كسر كان شبيها بالزجاج ولا يذوب الا بحرارة شديدة تفوق درجة الغليان ويوجد في شواطئ بحر لوط اي البحيرة الميتة فاذا صعد من قاعها شيء على سطح الماء وتراكم قذف به الريح الى الشاطئ ويكون في اول الامر ليناً ثم يجمد بالهواء ويجمعه الناس ويتجرون به ويخرج ايضاً من جزيرة بجزائر اللانتي ولكن ما يستخرج من بحر لوط اجود منه وكان قدماء المصريين يستعملونه في حفظ اجسام موتاهم من البلى فيغمسون فيه قطعا من قماش ثم يلفون فيها موتاهم وهذا المعدن يوجد ايضاً باوروبا الا انه قليل الاستعمال فيصنعون منه شمعاً اسود تختم به ظروف المكاتيب وطلاءً اسود يسمى باسود الموميا والنوع

الثاني وهو مالت ويقال له القار الجبلي اسود اللون ولينه وصلابته على حسب حرارة الجو ولا يجمد الا في اوقات البرد واذا عرض لحرارة الشمس لان وامتد على سطح الارض ومتى بلغت الحرارة ثمانين درجة صار مائعاً وهو كثير الوجود بارض فرانسا والانكليز وغيرهما وقد يخرج في بعض الجهات نقياً من ثقوب في الصخر كالعيون فتتلقاه الناس بمجاريف وقد يوجد في بعضها مختلطا برمل او تراب فاذا ارادوا تخليصه قطعوه بارضه ووضعوه في قدور مملوءة ماء واوقدوا تحتها حتى تغلي فيرسب ما خالطه ويطفو هو فوق الماء فيوخذ بملاعق ويعمل قوالب كل قالب نحو اربع اوقات ثم يضعونه في براميل وهذا النوع يدخل في امور كثيرة كالالوان والولانيش ويطلى به الخشب والحبال التي يراد استعمالها في الماء لاجل حفظها وقد كثر استعماله الان حتى استعملوه في الطرق بجوانب الشوارع بمزجه بحصى ورمل فيتحصل عنه موءنة تستعمل في ذلك عوضا عن تحجيرها وكذا في بريقة سطوح المنازل وظهور القناطر وتبليط الحارات عوضا عن الحجر والبلاط فانهم وجدوه في كل ذلك اقل كلفة من التحجير واكبر فائدة وقد بلغ ما يستخرج منه الان بارض فرانسا في كل عام نحو ثلاثة ملايين اقة وقيمة الثمانين اقة منه تقرب من نصف فرنك واما النوع الثالث وهو الزيت الحجري او البترول وهو المسمى بالنفط فهو مائع لزج طيب الرائحة احمر اللون ومعدنه

ببلاد فارس بقرب مدينة باكو وفي ضواحي بحر الخزر وفي بلاد ايتاليا في مواضع كثيرة منها وفي جزيرة سيسليا وهي صقلية وفي فرانسا في موضع واحد بالقرب من قرية جابيو ولذا يسمونه زيت جابيو ولا يوجد الا بجوار المياه المعدنية الحارة وقد يختلط بها فيطفو على وجهها كالزيت في الحيضان الطبيعية او الصناعية فيجمعونه ويضعونه في الاواني ويتجرون به ويخرج بالقرب من قرية باكو من بلاد الفرس بخار من الارض تستعمله الاهالي في تسوية الطبخ وذلك الزيت يستعملونه عوضا عن القطران وفي الاستصباح والمشرقون واهالي ايتاليا وجنوبي روسيا ينسبون له خواص طبية فيعملون منه جباير للجروح وللامراض الروماتسمية وفي الباطن لقتل الديدان وغيرها ولكن بعد تصعيده مع الماء والناتج من هذه العملية هو المسمى عند التجار بزيت النفط ويدخل ايضا في اشيا كثيرة من الصنائع ولا يفسد بطول المكث وله حرارة شديدة وضوء عظيم ويعسر اطفاؤه ورائحته كريهة ودخانه كثيف واما كيفية الاستصباح به فقد ذكرها الخواجا فلا حاجة الى اعادتها

المسامرة (١١٣)

المستنفى

فقال له ابن الشيخ اللذة في التنقل فالى اين نذهب فقال يعقوب المنتزهات في هذه المدينة كثيرة ولم نرَ الا القليل منها وبيناهما يتشاوران فيما يذهبان اليه منها اذا بالخواجا موريس الذي كانوا بمنزله منذ ايام دخل عليهما والقى عليهما التحية فرحبا به ثم خص ابن الشيخ بالتحية وسأله عن والده ثم قال له ان حضرة الشيخ وعدني بالزيارة وقد ازداد شوقي اليه فهل يمكن الان الاجتماع به لاسلم عليه فقال له اما شوقك اليه فبعض ما عنده واما مقابلته فهو في غرفته فقال لا بد لي من زيارته لاحظى بمفاكهته ومشاهدة طلعته فاين تذهبان فقال له الى منتزه من منتزهات المدينة

فقال اذا كان مقصود كما ذلك فها انا متوجه الى اسبتالية لريبوازير لزيارة حكيمها فان شئتما اغتنمتما فرصة رؤيتها ويكون ذلك داعياً للاطلاع على المستشفيات الموجودة في مدينة باريز والمارستانات بمساعدة حضرة الحكيم صاحبنا

فقال يعقوب هذا الرأي اوفق ووافقه ابن الشيخ فساروا جميعا الى ان وصلوا الى باب الاسبتالية فشد الخواجا زراً من النحاس الاصفر مثبتا في الحائط بقرب الباب فحرّك جرسا عند مجلس البواب فجاء وفتح الباب وادخلهم واجلسهم في محل معد لمثل ذلك ثم قال الخواجا موريس للبواب اريد زيارة الحكيم واعطاه تذكرته كما هي العادة عندهم فذهب من فوره ثم رجع يقول ان حضرة الحكيم ينتظركم فقاموا جميعا الى محله فقابلهم من الباب ثم اخذ بيد الخواجا موريس وسأله عمن معه فعرفه بابن الشيخ ويعقوب فرحب بهما وحياهما ثم طلب لهم كراسي وقهوة فجلسوا وشربوا وبعد لحظة قال له موريس نريد أن نرى الاسبتالية فقال حبًا وكرامة وقام وادخلهم حوشًا متسعًا مستطيل الشكل فيه شجر قسم تقسيما حسنًا الى ثلاثة بساتين في البستان الوسط منها حوض ماء في وسطه فوّارة تقذف الماء الى ارتفاع عظيم فتسمع لها نغمات لطيفة تشبه نغمات الموسيقا ناشئة عن اختلاط صوت الماء في نزوله في الحوض مع صوت عبث الرياح بغصون الاشجار وتغريد الاطيار فقال يعقوب يخيّل لي انهم ما اختاروا هذا الموضع الجميل الحسن

الاّ لترويح المرضى وتسلية افئدتهم عمّا بهم من الالام واثار الاسقام ورأينا ان من دبت فيهم النقاهة والصحة يتمشون بين الاشجار مقبلين ومدبرين وحول الحوض مصاطب وكراس يجلسون عليها وفي دائر ذلك الحوش عنابر المرضى وعددها ستة في كل عنبر اثنان وثلاثون سريرًا وفي اخر كل عنبر ادبخانه ومحل للخدمة الذين يقومون بمصالح المرضى وبين كل عنبرين فضآ ظلل بالشجر لاجل تنزه المرضى وعدم سريان الامراض من عنبر الى اخر وفي الضلع الاصغر من الحوش حمام وكنيسة ومحل لغسل ثياب المرضى وتغسيل من يموت منهم وعند باب الدخول محال الحكما والادارة والكتبخانة وغير ذلك فكانوا كلما مروا بعنبر عرّفهم الحكيم بمن فيه وبالداء وبالدواء الذي يناسبه



المسامرة (١١٢) /

التبغ

وفي جولانهم بين العنابر شاهدوا مريضا قد اضناه المرض ونهك حسمه وكساه ثوب النحول والصفرة وهو باهت محمرّ العينين وله انين وتشنجات شديدة تكاد تفضي به الى العدم ورأوه يكثر من التثاؤب والقيء فامعن ابن الشيخ النظر اليه ورق لحاله وبعد ان طافوا بالمحل كله رجع بهم الحكيم الى محله فلما استقر بهم المجلس سال ابن الشيخ عن مرض هذا المريض الذي لم يغرب عن باله لما راى من سوء حاله فقال الحكيم ان اس مرض هذا الرجل هو استعمال الدخان فان له انكبابا زائدًا على مضغه فتولد له منه هذا الداء العضال

فقال ابن الشيخ الحمد لله الذي انعم عليّ بوالدي الذي ربانی علی عدم استعمال الدخان حتى نشاءت على كراهته فلااطيق ان اشرب منه مصة واحدة فقال الحكيم عهدي بالمشرقيين انهم يشربونه ولهم به ولع زائد فقال ابن الشيخ نعم الاّ ان شربه ليس محموداً

فقال يعقوب رايت في بعض الكتب النهي عن شربه ويقال ان به مادة سمية تضر بالصحة وربما ادّت الى الموت فقال الحكيم ان الكيماويين بعد امتحانه قالوا ان فيه مادة سمية تسمى النيكوتين وهو مائع لا لون له متى كان في انابيب مقفولة ويتلون باللون السنجابي اذا لامس الهواء ورائحته كريهة وطعمه لذّاع ويكون في الدخنة التي يبتلعها الانسان وهي من السميات الشديدة وان قال بعضهم ان هذه المادة انما طرأت له من الاعمال التي تعمل فيه بالمعامل فليس الامر كذلك بل هي من نفس النبات وتلك المادة في دخان النشوق اكثر منها في الدخان المشروب كدخان السجارة والذي اعلمه ان هذه الشجرة وان عم الارض زرعها وكثر في الممالك ريعها لم تظهر ببلادنا الاّ بعد القرن السادس عشر من الميلاد واظن انها كانت موجودة عند الامريقيين من قديم الزمان

ويؤيد ذلك ما قالوه من ان كرستوف كولنب ارسل بذرها من بلاد الامريقا وقت استكشافه لها الى بلاد البرتقال فزرعوه ومن ذلك الوقت صارت تكثر شيئا فشيئا الى الان

فقال الخواجا موريس للناس في استعمالها كيفيات منهم من يدقها ويستنشقها ومنهم من يقطع ورقها قطعا ثم يمضغها ومنهم من يفرمها ثم يشربها في شبكات ومنهم من يلفها سجارات ثم يشربها وبالجملة فلو تتبعنا اهل الارض لوجدنا من يتعاطاها اكثر ممن لا يتعاطاها ألا ترى اهل اوروبا وإكبابهم عليها مع انهم لم يعرفوها الاّ منذ قرنين اي بعد القرن السادس عشر وقيل ان بذرها اهدي الى الملك شرلكان سنة الف وخمسمائة وثمانية عشر وانه لم يزرع بارض البرتقال الا سنة الف وخمسمائة وثمانية وخمسين ولا بارض فرانسا الا سنة الف وخمسمائة وستين والذي جلبها اليها سفيرها بالبرتقال وذلك ايام الملكة كاترين دوميديسي فلما زرع واهدي منه اليها اشتهر واتبعته الخلق واخترعوا له فوائد حتى قالوا انه شفاء من كل داء

فقال ابن الشيخ قرأت في بعض التواريخ ان اول دخوله في ارض الدولة العلية كان في سنة الف وستمائة وخمس للميلاد زمن السلطان احمد القانوني جلبه الفرنج الى القسطنطينية فتعلم الناس شربه وتولعوا به فافتى المفتي بعدم جواز شربه فهاج الناس وماجوا ولم يلتفتوا الى الفتوى واستمروا على شربه فلم يشدد عليهم بعد ذلك وفشى امره حتى صار الان يشربه النساء والرجال

وكما تسمى تلك الشجرة الدخان تسمى ايضاً التبغ بمثناة فوقية

وموحدة تحتية ثم غين معجمة واحفظ لبعضهم بالنسبة لاسم التبغ شعرًا

بدت في سما الطب نزهة وامق
فدان لها طوعا شعاع الشوارق
فتاء وباء ثم غين هجاؤها
فدونكها نفّاعة للخلائق
الى ان قال
لهـا قوة تنفي قوى كل بلغم
وتذهب بالصفرا في لمح بارق
وتذهب اخلاط الدماغ بشمها
وتفتح للسوداء باب الخوانق
وفيهـا شفاء للسموم جميعها
وافعالها في الهضم فعل الخوارق
وفيها دوآء لست احصر عده
وكم حكمة فيها وكم من مرافق

فقال الحكيم بعد ان سمع ترجمة هذه الابيات قد كاد الناس يعتقدون في مبدأ امره انه علاج لامراض شتى وليس الامر الان كذلك فقال موريس ان هذه الشهرة كانت السبب في الاكثار من زرعه والان صار يزرع كثيرًا بمملكة فرانسا ومملكة البرتقال وبلاد المجر والالمانيا والنمسا وبلاد الموسكو وارض مصر والشام

والصين والامريقتين وجزائر كثيرة من جزائر المحيط وقد رأيتهم حين سياحتي بامريقا الشمالية يتخيرون لزراعته اطيب الارض واقواها واكثرها زبدًا واكثرها ربًا ويسبخونه بمقدار وافر من السباخ وفي بعض الجهات يزرع في الارض التي نزل عنها ماء النهر لانها تكون مغطاة بطبقة من الطمي تشتمل كثيرًا من البوتاس وفي اخرى يزرع بسفح الجبال في ارض مخصوصة واوان زرعه عندهم شهر مايه الفرنجي ويزرع سنويًا وزهره تارة يكون احمر ورديًا وتارة اخضر وتارة ازرق فاذا بدا صلاحه واصفر ورقه جمعوه شيئًا فشيئًا وجففوه بالقائه على الارض مدة ثم يجمع ويكمل تجفيفه تحت سقائف ثم يربط حزما ويباع بهذه الصورة ورأيت في اطرافه ابراجا وفيها بذره فاذا نضج وتم صلاحه اخذوه وحفظوه الى اوان زرعه فيبذرونه في الارض بالنقرة وكمية التقاوي لكل ثلاثة عشر مترًا ملعقة صغيرة ويصبرون عليه نحو شهرين ثم يقلعونه وينقلونه للارض التي تخيروها له ويسمى المنقول قبل نقله زريعة وبعد نقله بلغة اهل الفلاحة شتلاً ومن العادة انه قبل جمعه بستة اسابيع يقشر ورقه القريب من الارض الى ارتفاع قدم وفي بعض الجهات يصل ارتفاع النباتة منه الى مترين او قريب من ذلك

ورأيت في بعض اوراق حوادث سنة الف وثمانمائة وتسعة وخمسين أن بفرانسا اربعة عشر فوريقة باسم الدخان خاصة موزعة في مدينة باريز وغيرها وان بها من العمّال نحو خمسة عشر الف

نفس وانه يستخرج من تلك الفوريقات في كل سنة من ذلك الصنف ما ينوف على ثمانية وعشرين مليونًا من الكيلوجرامات وان ايراد الحكومة من ذلك في تلك السنة نحو مائة وثمانية وسبعين مليونًا من الفرنكات فانظر ما بين وقتنا هذا وبين زمن لويز الثالث عشر الذي منع في ايامه شرب الدخان وبيعه الاَّ للاجزاخانات وتوعد كل من باعه لغيرها او شربه بالعقاب الشديد وكان ذلك في سنة الف وستمائة وخمس وثلاثين

واما المتحصل منه ببلاد النمسا فيقرب من سبعة وثلاثين مليونًا من الكيلوجرامات وكله يرد الى الحكومة لانها هي المتصرفة فيه دون غيرها كما هو جار ببلاد فرانسا فتشتريه من الاهالي بنحو مليون ونصف من الفرنكات وتجمعه في الفوريقات وتصنع به ما يلزم له ثم تبيعه على ذمتها وقد اتسعت زراعته في ارض البروسيا حتى بلغت فوريقاته الان بها نحو سبعمائة وعشر فوريقات وفيها من الشغالة خمسة عشر الف نفس وبلغ قيمة ما يخرج منه كل سنة من بلاد الايتازوني من الامريقا ما تبلغ قيمته نحو مائة مليون وعشرة ملايين من الدولار والدولار عبارة عن خمسة فرنكات

وقد احصوا ما يخرج من جميع كرة الارض من هذا الصنف في كل سنة فوجدوه يقرب من اربعمائة وخمسة وتسعين مليونًا من الكيلوجرامات من اسيا مائة وخمسة وتسعون مليونًا ومن اوروبا مائة واربعون ومن امريقا مائة وثلاثون مليونًا ومن افريقا اثني

عشر مليونا

واما الدخان المصري فلا اعرف قدر محصله فقال ابن الشيخ هذا النوع يزرع عندنا كثيراً الا ان عوده قصير وورقه صغير ولا يشربه الا الفقراء ونحوهم من اهل القرى وقد ظهر الان عندنا نوع يشرب في النرجيلة يسمونه التنباك يقولون ان في شربه فوائد

فقال الخواجا موريس. انواع الدخان كثيرة واختلافها باختلاف البلاد التي تجلب منها فالذي يجلب من بلاد الفلمنك مقبول في التشوق لمرارته والذي يزرع ببلادنا لا حصر لانواعه فمنه ما يكون ورقه عريضا ورائحته كرائحة جوز الهند ومنه ما يكون ورقه طويلاً قليل العرض ورائحته كرائحة النوشادر وهو ما ينبت في الجهات الشمالية من المملكة ومن الوارد من الجهات الاجنبية ما يكون له رائحة طيبة مثل دخان هوانا والورجيني وغير ذلك

فقال الحكيم قد كثر كلام الحكماء قديماً وحديثا في شرب الدخان فمنهم من يقول بضرره ومنهم من يقول بعدم ضرره والذي اقول به انه لا يخلو من فائدة وانما يجيء الضرر من الافراط في تعاطيه

وكيفيات استعماله ثلاث الاولى الاستنشاق به ويحصل منه تهيج للغشا المخاطي ويكثر افراز المواد المخاطية ويكثر العطاس وربما حصل من قوة العطاس تمزيق لبعض الاغشية ويحدث رعافا ويحول قبة العين والاكثار منه ربما يذهب حاسة الشم ومن

فوائده ان من تعوّد عليه خف نومه وامن من الصداع ووجع العين والاسنان

الثانية شربه في السجاره يكثر اللعاب ويعقب ذلك التخدير وضعف الهضم وربما حصل منه استفراغ ودَوَخان فان تركه متعاطيه زال ذلك بعد زمن يسير وان رجع اليه رجع كل ذلك وهناك اشخاص لا يمكنهم تعاطيه اصلاً

ومن المشاهد ان من اكثر منه تشقق سقف حلقه وقال بعضهم ان شربه يورث لينا في الغشا اللعابي في الشفة واللسان وانتفاخا خفيفا في الحلق ترشح منه مواد مضرة تهيج طاقات الانف فتارة تسقط في الحنجرة وتارة تخرج من الانف مخاطا قذراً وقال بعض الحكماء ان شربه يوءثر في العينين ويهيجها اكثر من تهيجهامن دخنته في الخارج ولذلك يرى شارب الدخان عقب قيامه من النوم دامع العينين محمرهما ويحس فيهما بحرارة والمكثرون منه يحسون بالم في جباهم والمكثرون من البصاق تضعف عندهم قوة الهضم والتغذي وبعضهم يقول انه يحصل من مائه المختلط بالدخان المبتلع التهاب وتهييج للمعدة وقد شاهدت بعض المرضى لا يستقر الطعام في جوفه وكان ممن ابتلي بشربه فيتعاطى سجارات كثيرة بعد الاكل فنهيته عنه فبرىء

ومن آفاته عند المكثرين منه تأثيره على الحنجرة والرئتين فينشأ من ذلك غلظ الصوت والسعال ونقص ضربات القلب

وخلل انتظامها وضعف الفكر وارتعاش الايدي واصفرار اللون وسواد الاسنان وزرقة الشفتين وفتور الاعصاب

والثالثة مضغه وذلك بوضعه تحت الاسنان فيخرج من الضغط عليه مادة لذاعة تختلط باللعاب وتدمي اللثة وقال بعض الحكماء انه ينقص العقل وليس كذلك وانما يتخلف من مضغه نكهة خفيفة تزول بالمضمضة الا انه يضر باللسان وبالاسنان لاتلافه ثوبها الظاهر الحافظ لها ويضر بحاسة الذوق وربما آل الامر الى فقده وبلع عصارته اشد ضرراً وقد رايت رجلاً من الملاحين في الم شديد وتشنجات بعد بلع مضغتهِ وكان يقيء ويتثاءب كثيراً فخلصته من ذلك بعد زمن ولو تتبعنا ما قالوه في الدخان نفعا وضررًا لاتسع المجال فمن ذلك انهم يقولون انه يسرع الهضم وانه امان من داء الاسكوربوط ووجع الحلق وانه مفسد للعقل ولكن ليس ذلك في جميع احواله بل متى كان تعاطيه في الهواء الخالص من غير افراط فلا ضرر منه سواء كان شربا او مضغا او استنشاقا

ومن المعلوم أن استعماله في جميع الجهات وانكباب الناس عليه علامـة على انه مخفف للهموم والوحشة وانيس في العزلة ومساعد على تحمل مشاق الفقر والفاقة فلذا ترى اهل الصحاري الواسعة وسكان الجبال الشامخة وارباب الاعمال الشاقة والافكار العالية مشتركين في تعاطيه فحينئذٍ لا يطلق القول بمدحه او ذمه ولا عبرة بما قاله الكيماويون ونرى المشرقيين لا يفارقون الشبوق

حتى ان الدولة العثمانية وجميع اهل الثروة والرفاهية قد جعلوا له غلمانا من خواص خدمهم وسموهم التتنجية نسبة الى التتن اسم للدخان غير عربي

فقال ابن الشيخ قد يقرب من نابيدك في الدخان بيتان احفظها لبعض العلماء وقد عيب عليه شرب الدخان قوله

لقد عيرونا با لدخان وشربه
فقلت دعونا اذ له الامر احوجا
لانا رأينا الهم في قاع صدرنا
كمينًا فدخّنا عليه ليخرجا

فقال الحكيم قد اصاب القائل ورايت ان بعض من ابتلي به من الكيماويين استحسن استعماله في الشبكات الطويلة ليبقى النيكوتين في المواضع الباردة من العود بخلاف الشبكات القصيرة فان تلك المادة تكون قريبة من الفم وكذلك استحسن شربه جافًا ونهى عن استعماله مبتلاً قال لان النيكوتين في الحالة الاولى يتحلل بالحرارة بخلاف الحالة الثانية لان الرطوبة تمنع استحالته فيكون مع البخار ولذا نرى من يشربه يتأثر من المبتل اكثر من الجاف ثم قال ويجتنب تعاطيه على الريق وقبيل الاكل ويغسل الفم بعد شربه اما بالماء الخالص او الممزوج بقليل من ماء الملكة

وينبغي لمن يشرب السجارة ان لا يتجاوز نصفها لان جميع

النيكوتين ينزل الى النصف الثاني ومن اراد ان يشربها بتمامها فليتخذ له فما من كارم او عظم اوعاج ويتجنب شرب سجارة شرب بعضها وتركت زمناً وذلك لانه يقال ان مادة النيكوتين فيها حينئذ كثيرة فكذا تكون في المرة الثانية مرة عن المرة الاولى

وقد ذكرنا ان طوال الشبكات والنرجيلات احسن من قصارها واردأ الشبكات ما اتخذ من الطين لان تلك المادة اسرع فيه وصولاً الى الفم منها في غيره

فقال موريس للحكيم انا اكثرنا عليك واشغلناك عن مهماتك وقد افدت واجدت واني كنت قد وعدت اصحابنا بان اخذ لهم من حضرتكم تذاكر يدخلون بها الاسبتاليات فقام مسرعا وانجز وكتب لبعض حكماء الاسبتاليات خطابا اطنب فيه في الوصاية بهم فاخذوه وقاموا فلما استاذنوا للقيام قال لابن الشيخ اني وان لم اكن عربيا لكني محب للعرب لا سيما المصريين واود ان ارى والدك فاثنى ابن الشيخ عليه خيرا وشكره على ما استفاده منه ثم ودعوه وخرجوا فلما استقاموا في الطريق قال ابن الشيخ ليعقوب ليتنا راينا معامل الدخان فقال له ذلك امر سهل الا ان الوقت قد ازف فان ميعاد الرجوع قبل الزوال فقال له وهل سبق لك دخولها قال نعم ولكن في غير هذه البلاد والطرق كلها واحدة وقد رايت الذين يزرعونه يعتنون به اعتناء زائداً وبعد حصاده يخلصون ورقه من حطبه ويضمون بعضه الى

بعض بعد جفافه ويضغطونه ضغطا قويا ويكبسونه كبساً شديدًا ويجعلونه بالات لئلا يكون حجمه كبيرًا ثم يبيعونه كذلك او يرسلونه الى الفوريقات ولهم فيه هناك ثلاثة اعمال الاول فرزه وتنظيفه والثاني تنديته بالماء المالح لاجل تليين الورق وعدم تعفنه والثالث تنقية جدوره واضلاعه الكبيرة منه والتندية تكون في مخازن مبلطة بالحجر ومنقسمة الى اقسام فيوضع الدخان فوقها طبقات قليلة السمك ولهم في تنديته حساب على حسب ما يريدون ذلك انهم يسخنون له ماء مالحا ويجعلون تسخينه درجات بحسب اجناسه فيضعون على كل مائة من دخان النشوق واحدًا وعشرين من الماء المالح الذي تكون حرارته في الدرجة الثانية عشرة وعلى كل مائة من دخان المضغ عشرين وعلى كل مائة من دخان السجارة ثمانية وعلى كل مائة من دخان الشرب ثمانية وعشرين من الماء الذي حرارته في سادس درجة

وانواعه من حيث الاستعمال اربعة النشوق والمفروم والمضغ والسجارة فاما دخان السجارة فتستعمل فيه النسا فتلف المرأة بين اصابعها الاوراق الصغيرة وتكسيها بورقة خالية من التقطيع والجدور واما دخان الشرب فيفرم بآلة بخارية ثم يجفف بوضعه في صفائح مجوفة ثم يمر عليها بخار حار ثم اقل منه حرارة ثم يجعل ربطاً صغيرة من عشرة كيلو الى خمسة اعشاره واما دخان النشوق فعمليته اصعب لانه يحتاج

الى اختيار النوع الموافق ثم يفرم ناعما ثم يوضع في مخازن كيانًا
ارتفاع كل كوم نحو اربعة امتار وعرضه الف كيلو جرام ويترك
هكذا نحو ثلاثة اشهر الى ان يختمر وتبلغ درجة حرارتهِ من
ستين الى ثمانين درجة ويتصاعد منه ابخرة شديدة الرائحة غير
معلومة يظن انها نشادرية او نيكوتية وهي المادة السمية التي ذكرها
الحكيم واقواه تخمرًا ما كان في الزوايا وتحت السطح الاعلى
بنصف متر واقله تخمرا ما كان على بعد متر من القاعدة ويكون
معدوما في القاعدة وللجو دخل في تخميره واستوائه فيتقدم ويتاخر
على حسب درجة الجو حرارة وبرودة فاذا اشتدت الحرارة في
الكيان جعلت آكواما صغيرة لئلا تحترق وتثبت حرارته بعد خمسة
اشهر او ستة وبعد ذلك ينقلونه من مواضعه بعمال معتادين
على ذلك لانه يقوم له رائحة كريهة ودخان كثير في ذلك الوقت
وبعد تمام تخميره يسحق في طواحين مخصوصة ثم يخمر ويسحق
ثانيًا وثالثا فيصل الى الدرجة المرغوبة في النعومة ويكون قدر
الرطوبة فيه ثمانية عشر في المائة ثم يوضع في مخازن غير الاولى
ويكبس فيبقى هكذا نحو عشرة اشهر لا يصل اليه هواء فتعود له
الرائحة والدخنة والحرارة فان خيف عليه من تاثير الحرارة نقل الى
مخازن اخرى ولا يخفى ما في هذه الاعمال من الصعوبة على العمال فانه
بسبب نعومته يمتلىء منه فراغ المحل فيدخل في العين والانف
والحلق فيحصل منه لهم مضايقات شديدة وغالبا تكون تنقلاته

ثلاث مرات وتارة يكتفى بمرتين فيتكون عن ذلك نشوق على درجات مختلفة على حسب اختلاف الرغبة فيه ويقال ان تخميره وتكرار نقله مما يضعف مادته السمية فلا يحصل منه ضرر لمتعاطيه وبعد هذه الاعمال كلها ينخل وكان اولاً ينخل بالايدي واما الان فبآلةٍ بخارية وبعد نخله يخزن في المخازن ثم يعرض للبيع

واما دخان المضغ فعمليته اسهل من ذلك وهو جنسان عاديٌّ وخصوصي فالاول عبارة عن حبال تفتل من اوراقه بآلة مخصوصة والدخان المستعمل في ذلك اقل جودة من الخصوصي الذي ينقى من جميع عوارضه ويجعل طبقات هذا اجمال ما يعمل في الدخان وان كان الخبر ليس كالعيان فهل له بمصر شان كما له هنا

فقال ابن الشيخ وما شانه هنا فان غالب الناس بهذه البلاد لا يشربون الا السجارة وقل من يشرب في شبك وان وجد فقصير لا يزيد عن شبر ويا ليته من خشب بل من طين

والدخان الذي يشرب عندنا يجلب من الشام لا من هنا وهو نوعان صوري وجبلي وهو اطيب نكهة واذكى رائحة من الصوري وان كان الصوري اقوى منه نفساً فمنهم من يشرب كلاً على حدته ومنهم من يفرمها معاً وقد حدث الان نوع يقال له الكوراني يقال انه اقوى من الصوري وهناك دخان يقال له (حسن كيف) ولكن هذا لا يشربه الا حرافيش الناس واسافلهم وهناك نوع يشربونه في النرجيلة يسمونه التنباك وهو نوعان عجمي

وحجازي ويقولون ان العجمي احسن كيفًا من الحجازي والان شربه بمصر على حسب درجات الناس رفاهية ورغبة فمنهم من يشرب في نرجيلة محلاة بالذهب والفضة ومنهم من يتخذها مرصعة بالجواهر ومنهم من يجعل انبوبتها من القصب الفارسي ومنهم من يجعل لها نربيج (ليًا) قد امسك بسلك من نحاس وفي طرفه فم من خشب او عظم او كارم ومنهم من يكسوه بجوخ ومنهم من يكسوه بحرير زركش بذهب او فضة وكذلك الشبكات منهم من يتخذها من ياسمين ومنهم من يشرب في عيدان من كريز ومنهم من يشرب في عيدان من الجرمشق مكسوة بالحرير او غيره ويتخذون مباسم تسمى تراكيب منها الكارم الصِّرف ومنها الكارم المرصع بالجواهر كالماس ونحوه ومن المترفين من يكسوها بالحرير المنظوم في اللؤلؤ والمرجان كل على حسب رغبته ودرجة رفاهيته سواء في ذلك الرجال والنساء ومن اعتناء المشرقيين بشرب الدخان يجعل له بعض الاغنياء خدَمة خاصين به

فقال يعقوب اظن ان تولع المشرقيين بالدخان واعتناهم به هو السبب الاعظم عندهم في الاكثار من العبيد والخدم والجواري ولقد طفت البحار وجبت القفار فما اجتمعت بقوم الاَّ وجدتهم يشربونه او يمضغونه او ينشقونه فما قدر لي ان اتعاطى شيئاً منه خصوصاً لما رأيته من حال رفقتي الذين يتعاطونه من الفاقة وسوء الحال وربما كان بعضهم يبيع ثيابه وبعض ما يحتاج

اليه ويصرف ثمن ذلك على هذه الشجرة فالنصح نصيحة اخ مشفق ان لا تشربها ولا تقربها



المسامرة (١١٤)

البنّ

فقال ابن الشيخ اما الان فانا على يقين من كراهتها واما في المستقبل فلا ادري ما يقدر عليّ واخشى ان طالت بنا الاقامة هاهنا ان تغلب الموافقة على الطبع وتقلب المعاشرة الوضع ولقد اخبرني والدي انه لم يتعاطَ النشوق الا للاستعانة على السهر في طلب العلم ثم لما تمادى به الحال لم يمكنه تركه وكذلك القهوة فانه

ايضًا اعتاد شربها وانكبّ عليها انكبابًا زائدًا فكان من شدة حبه لها ونحن بمصر يطلبها قبل النوم ثلاث مرات فضلاً عما كان يشربه طرفي النهار ووسطه وفي كل مرة لا اقل من ثلاثة فناجين او اربعة فقال يعقوب فما له هنا ترك هذه العادة واقلل من شربها فقال سببه رداءة البن هنا وضعف نكهته بخلاف بن مصر فانه جيّد مجلوب من اليمن ولا يرد اليها من بلاد الفرنج الا القليل ومن يشتري البن الفرنجي لا يقصد به الا الغش حتى ان من يعرف به من القهوجية عندنا يقف حال بضاعته

فقال يعقوب ان شجرة البن ايضاً عمَّت بها البلوى في جميع الجهات وصارت من المكيفات التي لا يمكن الاستغناء عنها عند كثير من الناس وقد رأيت في كتب المؤرخين ان هذه الشجرة كانت معروفة عند اليونان والعبرانيين وذكروا انها تنسب الى البلاد الحارة كبلاد الحبشة والعرب وانه لم يظهر استعمالها ببلاد المشرق الا سنة ثمانمائة وخمس وسبعين من الميلاد اي سنة مائتين واثنين وستين من الهجرة وان اول ظهورها كان باليمن ثم ظهرت ببلاد الهند ثم باوروبا ثم بامريقا ولم تظهر بايتاليا الا سنة الف وستمائة وخمس واربعين ميلادية وبلوندرة الا سنة الف وستمائة واثنين وخمسين وبمرسيليا الا سنة الف وستمائة وواحد وسبعين وبباريز الا في سنة الف وسبعمائة وسبع وستين

وفي القرن الثامن عشر ايام الملك لويز الرابع عشر اهدي اليه

شجرة بن من مدينة امستردام فاستنبتها فلما طلعت وازهرت ارسل منها الى جزيرة مرتينيك ثلاث شتلات لتزرع هناك فمات اثنتان منها في الطريق وسلمت واحدة فغرسوها فلما اثمرت اخذوا منها وزرعوا فلما اثمرت اخذمنها اهل جزيرة جوادلوب وجزيرة سندومنك الى ان ملأت اشجار البن اكثر بلادهم وصارت من انفس تجاراتهم ولولا ذلك لعزت حبتها وغلت قيمتها

ولقد رأيت في بعض جرائد الحوادث ان المتحصل منه في سنة الف وثمانمائة وخمسة وخمسين مائتان وخمسة وستون مليونا كيلوجراما

وبيانه من بلاد البريزيلا مائة وثلاثون مليونا ومن بلاد جافا خمسة وخمسون مليونا

ومن جزيرة سيلان اي سرنديب سبعة عشر مليونا

ومن جزيرة هايتي ستة عشر مليونا ومن جواترا خمسة عشر مليونا ومن كوبا اربعة عشر مليونا ومن سومترا خمسة ملايين ومن كوستاريكا مليونان ونصف مليون ومن جنوب مخا مليونان ونصف مليون ومن جزائر اللانتي الانكليزية مليونان ونصف مليون ومن جزائر اللانتي الفرنساوية والهولاندية مليون ونصف ومن مانلي مليون واحد ونصف ومن بلاد افريقا وغيرها ثلاثة ملايين فترى البن اليمني وهو بن مخا قليلاً جدا وهو اطيب انواع البن والذها واكثرها مادة

وقد احصي البن المشروب سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين فبلغ ٣٤٬٥١٨٬٥٠٠ كيلوجراما في بلاد الانكليز والمشروب في تلك السنة بعينها ببلاد فرانسا ٢٧٬٩٨٥٦٠٠ فما بالك بغيرهما من بلاد الدنيا فانك لا تكاد تجد مدينة ولا قرية ولا حلة ولا كفرا ولا عزبة في الدنيا الا ولاهلها شغف بشرب القهوة الا انها لا يصلح لزرعها ولا نمو شجرتها الا الارض البعيدة عن البحر المحفوظة من هوائه المعرضة لجهة الشرق التي لا تزيد حرارة جوها على ثلاثين درجة ميثنية ولا تنقص عن عشر درجات وكيفية زرعها ان تزرع الشتلة في ارض جيدة اولاً فلا تنبت الا بعد خمسة اسابيع ثم تنقل بعد سنة او اربعة عشر شهرًا فاذا نقلت جعل بين كل شجرتين ثلاثة امتار ويخالف بين اشجار الصف الاول واشجار الصف الاخر بحيث تكون شجرة الصف الاول مسامتة للمتصف بين اشجار الصف الاخر ولا تثمر اشجاره الا بعد ثلاث سنين او اربع ويلزم لها الاستمرار على الخدمة بالسقي والتنقية فانها تحتاج الى شرب الماء كثيرًا وما دامت مخدومة فلا تزال تثمر الى ثلاثين عامًا او اربعين وزهرها وان كان لا ينقطع في اكثر السنة الا ان المعوّل عليه زهر فصلي الربيع والخريف ولا ينضج الحب الا بعد سقوط الزهر باربعة اشهر فاذا نضج جمع بالايدي وفي بلاد العرب من يفرش له تحت الشجرة ثيابا او حصراً ثم يهزها فيسقط منها على الفرش ما طاب فيجمعونه ويتممون تجفيفه في الشمس وله مدقات من

خشب او حجر فاذا جف دقوه بها فيخرج من جوزه ثم ينشرونه في الشمس ثانيًا وهناك من يستعين على فصله من جوزه بالماء فيضعه فيه يومًا وليلة او يومين وليلتين ومنهم من يدشه بالرحى وبعد ذلك كله يجففونه ثم يضعونه في طرود وزنابيل يجعلونها متباعدة غير متجاورة لئلا يتعفن البن بتجاوره فتقل جودته وتخبث نكهته وكذلك يفعلون في نقله الى الجهات والاقطار البعيدة

واما تحميصه وسحقه ووضعه في الماء او صبّ الماء عليه وغليه بالنار عند ارادة شربه فمعلوم عند كل من يتعاطاه كل على حسب رغبته فمنهم من يبالغ في تحميصه ومنهم من لا يبالغ ومنهم من يسحنه في مسحن من فخار بآلة من خشب ومنهم من يدقه بدقة من حديد ومنهم من يطحنه بيده في طاحونة ويتغير طعم القهوة ولذتها تبعًا لطرق التحميص والعلامات الدالة على جودة استواء تحميصه هي نقص الرائحة التي تظهر في مبدأ التحميص ونداوة الحب ولمعانه وميله الى لون بين السواد والحمرة وبالتجربة علم ان الحبة بعد السواء يزيد حجمها بقدر الثلث وينقص وزنها بقدر الخمس واذا بلغت استواءها وسحقت في الحال صارت القهوة جيدة وكلما تأخرت نقص ذلك منها واذا مكث البن زمنًا في المخازن ضاع كثير من مزاياه وبن مخا تضيع اكثر خواصه بعد سنتين واما غيره فينبغي ان يكون مكثه في المخازن سنة فان اقام اقل من ذلك كانت قهوته شديدة المرارة كريهة الرائحة وان بقي اكثر من ذلك كانت

اشهى واجود ومما يلزم التنبيه عليه انه ينبغي سرعة تبريد البن بعد التحميص بان يفرغ دفعة واحدة على رخامة وما اشبهها وذلك لاجل ان لا تتبخر مقدار كبير من الدهن الذي هو السبب في جودته ولذته وكذلك لا يصب الماء المغلي على المسحوق منه لئلا يتصعد كثير من بخار القهوة وتضيع اكثر مزاياها وللناس كلام في شرب القهوة فمنهم من ذمّها ومنهم من مدحها والانصاف التفصيل بحمل كلام من ذمها على الاكثار منها وكلام من مدحها على التقليل

قال ابن الشيخ واختلف فيها ايضا علماء الشريعة الاسلامية بالجواز وعدمه والحق انها يعتريها الاحكام بحسب ما يترتب عليها



المسامرة (١١٥)

الانهر

ثم انهما تذكرا الوقت المقدر لهما فكرّا راجعين فلما دخلا على الشيخ والانكليزي قال لهما الخواجا لقد تجاوزتما الوقت المقدر لكما

فما ابطاكما فاخبراه بتقابلهما مع الخواجا موريس وما صنعه معهما من توجهه معهما الى الحكيم واخذه منه خطابا لحكماء الاسبتاليات فقال لهما الخواجا قد اصبتما وفعلتما فعل العقلاء ونحن الان متوجهون الى بستان النبات ثم امر بالعربة فركبوا جميعا الى ان وصلوا الى قصر الملك فقال الخواجا للشيخ هاهنا طريقان احدهما من وسط البلد من الحارات والاخر على شاطئ النهر ولكل مزية فايهما احب اليك فقال الشيخ اظن ان الذهاب على شاطئ النهر اشرح للصدر واجلى للبصر فاشار الى السائق بتوجيه العربة اليه وكان بالطريق قنطرة فلما جاورها عدل بالعربة الى الشاطئ وقال الانكليزي ان البلدة التي سنسكنها هي بشاطئ النهر وبعدها من باريز يوم في البحر ونصف ساعة بسكة الحديد فخيّر الخواجا الشيخ بين النزول في البحر وركوب سكة الحديد فاختار طريق البحر لما فيها من الاطلاع على الفوائد الجمة بخلاف سكة الحديد فلا يطلع معها على شيء فركبوا البحر في مركب تسر الناظر وتشرح الخاطر ثم ان الشيخ كلما التفت يمينا رأى منازل مشيدة وتحتها دكاكين وخانات منظمة ملئت باصناف البضاعة وكلما التفت يسارًا نحو النهر رأى اناسا كثيرين ما بين بائع كتب واوراق حوادث وبائع لعب اطفال ودفاتر سجارة وما يشبه ذلك منهم من وضع بضاعته على الارض ومنهم من هيأ لها دكاكين من خشب واذا نظر الى البحر لا يرى الا مراكب صادرة وواردة لا يرى الماء من خلالها لكثرتها

فقال كنت وانا بمصر اذا رأيت المراكب التي على سواحلها اعجب من كثرتها والان لا اعدها شيئا بالنسبة لما اراه هنا فقال الخواجا ومع ذلك ما تراه ليس شيئا بالنسبة لما يرد ويصدر بسكة الحديد وذلك لان باريز صارت الان مخزنا عاما لكل ما يلزم لسائر الجهات

فقال الشيخ وهل بفرانسا نهر غير هذا فقال انهارها كثيرة احدها نهر السين وهو هذا وليس هو معدودًا من الانهر الكبيرة وبها نهر يسمى نهر اللوار يخرج من جبال يقال لها جربيدجون مرتفعة عن سطح المالح بقدر الف وخمسمائة واثنين وستين مترًا ويسير اولا من الجنوب الى الشمال بين جبال شامخة كانت قديما بركانية ويمر على مدن وقرى وقلاع وله فيضان عنيف حتى انه يتسبب عنه في بعض الاحيان خراب البلاد كنيل مصر اذا فاض وينصب فيه من جهتيه خلجان كثيرة كلها واردة من الجبال المحددة لواديه وله انعطافات كثيرة ويمر بثمانية عشرة مديرية ثم يصب في بحر يقال له البحر الاطلنطيقي ومن منبعه الى مصبه تسعمائة كيلومتر الصالح للملاحة منها الثلثان وارتفاع منبعه عن سطح المالح ستة وثلاثون الفا واربعمائة متر وليس عميقا وارض قاعه رملية وجزوءه المنحط جسوره عالية لوقاية اراضي الزراعة وبها ايضاً نهر يقال له نهر الرّين منبعه جبل سانجوتار ومصبه البحر الابيض المتوسط وارتفاع منبعه عن مصبه نحو الف وسبعمائة

واربعة وخمسين مترًا واولاً يكون في وادٍ ضيق عميق ويتجه بين الشمال الغربي والجنوب الغربي في وسط جبال الالب الشامخة وفي طول مائة واربعة واربعين الف متر من ابتداء مصبه يكون اللسان المتكلم به على ضفته الشرقية اللسان الالماني وفي الاخرى اللسان الفرنساوي وله انعطافات كثيرة وفي مروره يخترق ليمان العظيمة وطولها من الشرق الى الغرب اثنان وسبعون كيلومترًا وعرضها اربعة كيلومترات في اضيق محل منها وفي اوسع محل منها اثنى عشر كيلومترًا وارتفاعها فوق سطح المالح اربعمائة متر تقريبًا ويفصل ما بين فرانسا واقليم سفوا واقاليم سويسرا وينصب فيه اربعون نهرًا جميعها من الجهة الجنوبية وليس عليه في هذه المسافة مدينة كبيرة سوى مدينة يقال لها لوزان وبعد خروجه من تلك البحيرة عند مدينة جنوه يدخل ارض فرانسا ويأخذ نحو الجنوب ويسير بين الجبال وبعد مسافة كبيرة من سيره يتكوّن عنه مع نهر اخر يقال له نهر الساوون بحيث جزيرة بها مدينة ليون التي تلي باريز في الشهرة بفرانسا فيكون جانب من تلك المدينة على احد النهرين والجانب الاخر على النهر الاخر وعليهما قناطر للمرور وكانت هذه المدينة ايام الرومانيين تحت تسلط الغول وعدد اهلها الان مائة الف وخمسة وستون الف نفس وهي مدينة عظيمة ذات ورَش ومعامل خصوصًا للحرير وقد مر عليها من الحوادث الطيبة وضدها ما لم يمر على مدينة غيرها خصوصًا ايام الامم المتبربرة التي

كانت تغلبت على ارض الغول عند تضعضع دولة الرومانيين وعند تقسيم مملكة شارلماني كانت تختًا لمملكة البرغوني ولم تدخل في حكم مملكة فرانسا الا سنة الف وثلثمائة واثنى عشر ايام الملك فيليب الملقب بالجميل فلما قامت الفرنساوية ارادت الخروج عن الطاعة فحصروها حتى دخلت تحت طاعتهم وفيها معمل بارود ومدرسة وورشة للطوبجية وهذا النهر بعد خروجه من المدينة ينعطف نحو نهر الساوون على زاوية قائمة وبعد ذلك ينعطف من الشمال الى الجنوب وهو نهر كبير العرض قوي الانحدار لحبسه بين الجبال التي ترسل له تيارات قوية من السيول فيزيد بها بغتة وتكبر سرعته وجريانه فيمرّ بمدن وقرى وحصون كثيرة الى ان يصل مدينة ارل ثم ينقسم قسمين احدهما يسمى الرون الكبير يسير الى الجنوب الشرقي والاخر يسمى الرّون الصغير يسير الى الجنوب الغربي ثم ينقسم الكبير قسمين احدهما يسمى الرون العتيق والاخر يستمر على اسم الرون الكبير ثم ينقسم الرون الصغير قسمين احدهما يستمر له اسم الرون الصغير والاخر يسمى الرّون الميت وجميع هذه الاقسام تصبّ في البحر المالح وطول النهر من مبدئه الى منتهاه ٨٠٠ الف متر منها ما هو صالح لسير السفن وهو خمسمائة وعشرون الف متر ومنها ما لا يصلح وهو الباقي ولا نعلم باوروبا نهرًا اقوى منه جريا لكثرة الانهار التي تنصب فيه ويمر من ارض فرانسا على تسع عشرة مديرية ونهر الساوون المذكور عبارة

عن احد نهيراته وعليه بلاد ومدن وقلاع وحصون كثيرة كغيره من الانهار وفي ذكرها تطويل على حضرتكم

واما نهر السين فمنبعه من الكوتدور ومصبه البحر الملح وارتفاع منبعه عن مصبه اربعمائة وستة واربعون مترًا ويمر من جهة الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي مستقيما الى ان يتجاوز مدينة تروى فيأخذ من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي وهناك يصلح لسير السفن وهو يمر بمدن شهيرة وبلاد كثيرة وارض متسعة الى ان يصل باريس ويتجاوزها فيمر بمدينة سانكلو التي فيها منتزهات الملوك وعلى يساره على بعد ثمانية الاف متر مدينة ورساي التي كانت مقر الملك لويز الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر وهي المشهورة بحادثة قيام فرانسا وعلى بعد اربعة الاف متر من جهة الغرب مدينة ساسير المشهورة بمدرسة البياده المعدة لتحضير ضباط البياده الفرنساوية ويمر ايضًا بمدينة ساندنيس المعدة من قديم الزمان لدفن ملوك فرانسا الى الان ومدينة روان التي كانت في الزمن القديم مقر حكومة النورمندي وهي من المدن الشهيرة وعدد اهلها مائة الف نفس وفيها ورش ومعامل وكانت سابقًا من القلاع الحصينة وجميع السفن ترسو عندها ثم ينعطف هذا النهر انعطافات كثيرة الى ان ينصب في البحر الملح قريبًا من مدينة هافر وطوله من مبدئه الى مصبه ستمائة واربعون الف متر والقابل لسير السفن منها اربعمائة وثمانون

الف متر وينصب فيه من جانبيه انهار صغيرة فعلم مما ذكر ان نهر السين ليس اكبر انهار فرانسا وان كان اكثر منها نفعاً لكثرة المدن ذات الصنائع والمعامل والتجارة على شاطئه لا سيما مدينة باريس هذا هو سبب شهرته

فقال الشيخ في هذا الاوان يفيض نهر النيل ويروي ارض مصر عموما صعيداً وبحيرة وتبتدئ زيادته بعد النقطة القبطية ويتم ارتفاعه في شهر توت بخلاف باقي الانهر وللنيل خواص كثيرة منها انه لا يعلم مبداه ومنها ان سيره من الجنوب الى الشمال مع ان جميع الانهار تجري من الشرق الى الغرب او بالعكس ومنها انه من الخرطوم الى ان ينصب في بحر الروم لا ينصب فيه غير نهر ادبرا

وما اختص به هذا النهر مـا ياتي معه من الزبد الذي لولاه ما كانت ارض مصر ولا سكنها انسان ولا عاش بها حيوان حتى قيل انه اعظم الانهار طولاً وجريا واكثرها للارض فائدة وريًّا وخصبا وطمياً

فقال له الخواجا هناك ما هو اعظم منه طولاً واسرع جريا لان غاية ما يبلغ طول النيل من مبتدئه الى مصبه تسعمائة وسبعون الف متر واكثر اتساعه الف متر ولا تزيد سرعته عن اربعة كيلو مترات في الساعة الواحدة وغاية ما يصرف في الدقيقة الواحدة تسعة وثلاثون متراً مكعباً وربع متر مع ان

باوروبا نهر فولجا طوله ثلاثة ملايين وثلثمائة واربعون الف متر ومنافعه ببلاد الروس كثيرة لانه اعظم طريق لنقل تجارتهم الداخلة والخارجة من المديريات الى التخت فضلاً عن نقل التيل والكتان والحديد والطوب والشاي والمشروبات وكذلك نهر الدانوب (الطونة) بالمانيا فان طوله مليونان وسبعمائة وخمسون الف متر ونهر الدون بالدال المهملة ببلاد الروسيا طوله مليون وسبعمائة وثمانون الف متر ونهر الدنيبر في بلاد الروس ايضا طوله مليونان من الامتار ونهر يانج تسي كيانج باسيا طوله خمسة ملايين وثلاثمائة وثمانون الف متر ونهر الكنك وطوله مليونان واربعمائة الف متر وعرضه خمسمائة وخمسون متراً وهذا النهر اعظم طريق لسير المراكب للتجارة في هذه الجهات وقد قدروا عدد الملاحين به فوجدوهم ثلثمائة الف نفس وقيمة ما ينقل منه في السنة الواحدة من البضائع قريب من ثلاثمائة مليون من الفرنكات وقد اخذت منه الشركة الانكليزية خليجاً كبيراً لاصلاح زرعهم طوله الف واربعمائة واثنان وثلاثون كيلو متراً

وبافريقيا انهار غير نهر النيل منها السنيجال طوله الف ومائة وخمسة وعشرون فرسخاً واعظم من ذلك كله انهار امريقا واكبرها نهر مسيسيبي فان طوله سبعة ملايين متر وعرضه في أضيق طريقه ثلثمائة متر ويعظم الى ان يبلغ الفاً وخمسمائة بل ٢٥٠٠ متر وعمقه

في بعض المواضع من خمسة عشر متراً الى عشرين ويبلغ في بعض الجهات ستين مترا وثمانين ويمر بارض تقرب من مائة وثمانين الف فرسخ مربع اي مقدار سعة فرانسا سبع مرات ويقطع في الساعة الواحدة ايام تقصيره اربعة اميال انكليزية وايام زيادته يعسر ركوبه لشدة جريه وفي كل مائة متر من طوله يكون انحدار مجراه جزأ من مائة جزء من المتر واكبر فروعه نهر المصوري وعرضه من الف متر الى الفين وسرعته في الساعة الواحدة الفا متر وهناك انهار اخرى منها نهر الاورينوك طوله خمسمائة وخمسة وسبعون فرسخاً ونهر البلاتا طوله نحو ثمانية فراسخ

واعظم من جميع ذلك نهر الامزون فانه يجلب الى المالح جميع الامطار الواقعة على الوادي المتسع العظيم الذي قدر مساحته تسبعة ملايين كيلو متر مربع وهو عميق جدا لان المحس الذي طوله مائة متر لا يصل الى قاعه وعرضه كبير جدا حتى ان اكبر سفن المالح تصعد فيه الي مسافة الف فرسخ وفي جميع هذه المسافة لا ترى شواطئه لعظمه وسرعته شديدة يقطع في الساعة الواحدة ثمانية الاف متر وما يصرفه في اللحظة الواحدة من الماء قدر ما يصرفه ثلاثة الاف نهر مثل نهر السين في تلك اللحظة وفي ارض كندا بامريقا نهر سانلوران عرضه عند مصبه عشرون الف متر وبعد اربعمائة وخمسين الف متر من المصب يكون عرضه اثنى عشر الف متر ويخرج منه ثمانية خلجان اكبرها خليج

وبلاند المار من بحيرة ايرية الى بحيرة اونتاريو بعد ان يجاوز شلالات نياجارا وطول هذا الخليج خمسة واربعون الف متر وعرضه ايام زيادته مائة متر وايام نقصه تسعة وعشرون مترًا وثلثا متر وعرض فاعه ثلاثة عشر مترًا وثلثا متر وعليه سبعة وعشرون هويسًا موزع عليها الانحدار الكلي بين البحيرتين وهو سبعة وعشرون مترًا واما من خصوص عظم السرعة والجريان فليس هناك نهر اعظم من نهر دجلة والاندوس (سيحون) والدانوب (الطونة)

وفي جميع هذه الانهر تنصب انهر كثيرة فنهر الدانوب ينصب فيه مائتا نهر بين صغير وكبير ونهر وولجا ينصب فيه ثلاثة وثلاثون نهرًا وهذه الانهر كلها مع كثرتها وغزارة مائها واتساعها طولاً وعرضًا ليست شيئًا بالنسبة للبحر الملح فانه لو فرض جفاف البحر المالح ونضوب الماء عنه وسلطت عليه جميع انهر الارض فلا تملاءه كما هو الان الا في اربعين الف سنة

فقال الشيخ قد افدتني في الانهر ما لم يكن يخطر بالبال ولا كان له في النفس خيال فلله درك من حبر خبير وعارف بصير ولكن مع ذلك فالنيل اعظم الانهار بركة واكثرها فائدة وقد ورد عندنا في السنة المحمدية والشريعة الاسلامية انه افضل انهار الدنيا كما قيل في ذلك

وافضل المياه ماء قد نبع
بين اصابع النبي المتبع
يليه ماء زمزم فالكوثر
فنيل مصر ثم باقي الانهر

وللنيل مزايا انفرد بها منها انه يكتفى بسقيه فانه يزرع عليه ثم لا يسقى الزرع حتى يبلغ منتهاه ولا يعلم ذلك في نهر سواه ويزيد عند الحاجة وينقص كالعاقل المدبر الشفوق فياتي الى الارض في اوان اشتداد القيظ والحر ويبس الهوا وجفاف الارض فيسقيها ويرطب الهوا وهو موزون على ديار مصر بوزن معلوم وتقدير مرسوم لا يزيد عليه ولا يخرج عنه ولا يطغى على البلاد بالفساد والانهار تاتي من جهة المشرق الى المغرب وهو ياتي من جهة الجنوب الى الشمال فيكون فعل الشمس فيه دائما واثرها على اصلاحه متصلاً وليس في الدنيا نهر يزيد ثم يقف ثم ينقص ثم ينضب على الترتيب والتدريج غيره وليس في الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل ولا يجيء من خراج غلة زرعه ما يجيء من خراج غلة زرع النيل وهو اخف المياه واحلاها وارواها واعمها نفعا واكثرها خراجا وبالجملة فبطون الدفاتر مشحونة بمزايا النيل ومدحه نظما ونثرا قديما وحديثا فقال الخواجا نحن لا ننكر فضل النيل ولا كثرة مزايا ولكن لو تأمل الانسان لوجد ان كل نهر في الدنيا لا يخلو من خواص ومزايا منها تلطيف حرارة الجو

بالنسبة لكمية مجسم الماء الجاري في كل جهة من الدنيا فان كان نهر بعيد العمق جدًا اثر ذلك في الجو فتنقص درجة الحرارة في وقت الشتاء تدريجا ويستحكم البرد الى ان يجمد ماء النهر فان كانت الاقطار متوسطة البرودة في الشتا بان كانت لا تزيد على ثلاث درجات ونصف مئينية لم يتجمد الماء الا اذا بلغت درجة البرودة ثماني درجات او عشرًا تحت الصفر

واما البلاد الموضوعة في ثمانٍ وخمسين الى ستين درجة من العرض فان بردها يكون شديدًا وقت الخريف لتأخر ذوبان الثلج فان كانت الانهار كبيرة العرض والعمق والسرعة تأثر الجوّ بها وفي الغالب تتبع الرياح اتجاه الانهر وينبني على ذلك ان اتجاه الابخرة الرديئة يتبع اتجاه الانهر وهذا هو السبب في وجود الحمى عند سكان السواحل والدليل على ذلك المشاهدة فانه في سنة الف وثمانمائة وتسعة عشر ظهرت الحمى في الاندلس وانتشرت حتى سرت الى مدينة سويل لان نهري سان لوران وجوادبي الكبير قد نشرا في داخل المديريات ابخرة السواحل فالانهر وان كانت بمرورها تاخذ عفونة المساكن معها الا انها لفيضانها وحصول النشع منها وشدة نقصها ورسوب المواد الطينية منها ينشأ عنها مضار كما يحصل من النيل والكنج والمسيسبي والامزون فانها بعد نزولها تترك مناقع وبركًا فيتولد عنها امراض بسبب الابخرة الرديئة المتصاعدة منها

وقد دلت التجربة على ان طول الاقامة فوق الانهر التي بالبلاد الحارة مضرة ضررًا بينًا ودلت التجربة ايضًا على انه اذا مات واحد من خمسة وثلاثين من سياحي البحر الملح يموت واحد من ثلاثة من سياحي نهر السنجال بخلاف اهل البلاد المعتدلة والباردة

والحكم التي اودعت في المياه كثيرة لم تقف الا على بعضها وعلى الانسان ان يبحث عن خواصها وخواص غيرها على حسب الامكان فان الرب الخالق لم يخلق شيئًا عبثًا



المسامرة (١١٦)

الاحجـار الكريمة

وها نحن قد وصلنا فلندع الكلام في هذا الباب الى وقت غير هذا وكانت العربة قد وقفت بهم على باب عظيم مرتفع

فانزلوا واخذ الخواجا بيد الشيخ حتى وصلا حجرة المامور فلما رآهما قام لهما واجلسهما وامر لهما بقهوة ثم اخبره الخواجا عن سبب مجيهم وان القصد الزيارة فرحب بهم وقام معهم واراهم عنابر المعادن واحدًا واحدًا ثم وقف بهم على طاولة ممرّدة من قوارير وفيها من جميع الاحجار التي يتحلى بها وقال للشيخ ان هذه الاحجار هي مثال الاحجار النفيسة التي يتحلى بها وفي ترتيبنا هنا ان اولها هو حجر الفيروزج وهو نوعان نوع سماوي اللون مركب من اوكسيد الحديد والنحاس والنوع الثاني عظم قد انحجر مع فوسفات الحديد وهو يوجد عروقًا في مادة طفلية في الارض بنواحي نيسابور من بلاد العجم والجوهرية والصاغة يؤلفونه مع الماس واللوءلوء والذهب وحجر العقيق هو هذا الحجر الاحمر اللطيف وهو مركب من ألومين وبعض مواد اخرى ويتنوع لونه فمنه ما يكون احمر يوجد في بلاد البهيم والمجر في الصخور البرقانية وله معامل في بلاد المجر والبهيم والتيرول

والزمرذ المشهور ببلاد المشرق وهو مركب من سيليس وألومين وبعض مواد وانواعه كثيرة منها الاخضر الصافي وهو زمرذ مصر والبيرو ومنها الاصفر والازرق واعلاها الاخضر وهو المرغوب بمصر وغيرها

واحسن زمرذة معلومة الان هي الموجودة في خزانة الامتعة ببلاد الموسكو والزمرذة الموجودة في تاج البابا ويوجد الزمرذ عادة

مغروساً في الصخر

واما الياقوت فهو هذا الحجر الاصفر وهو حجر زجاجي صلب يوجد في اجواف الصخور وانواعه كثيرة منها الاصفر والسماوي ومنها الاحمر القاني البهرماني واعلى انواعه ما يجلب من بلاد الهند وما يرد من السكس ومكسيكو ثم اشار الى حجر ذي الوان متعددة بتعدد طبقاته فقال واما هذا فهو الحجر اليماني

والصنّاع تحتال على تعاقب طبقات الوانه فتجعلها في التحضير قائمة او منحنية او غير ذلك ويوجد ذلك بفرانسا والمانيا واحسنه من بلاد العرب

وحجر اليشم هذا يستعمل في خواتم وقلائد وبعض حلى واقداح للشرب ونحو ذلك ومحل وجوده الطبقات القديمة التكوين من طبقات الارض

ثم قال واعلى هذه الحجارة حجر الماس وهو حجر زجاجي شفاف مجرد عن اللون له لمعان الماسي وهو سهل الكسر صلب يوءثر في جميع الاحجار ولا توءثر فيه ولا يجلي الا بمسحوقه وثقله النوعي قدر ثقل الماء ثلاث مرات ونصف مرة ويتركب من كربون اعني فحماً نقيا خالصا واول من ظن فيه قابلية الاحتراق العالم نتون ومن بعده سلط عليه بعض الكيماويين تياراً كهربائيا شديداً فانحرق وصار فحما كالذي يوقد به ويوجد هذا النوع في بلاد الهند وبريزيليا والسيبيريا ويوجد بين صخر ارض الرسوب القديمة

التكوين المنقولة بالمياه ومن مدة ثلاثة قرون صار الجد في استخراجه من محاجره ويوجد ايضا في نواحي ديكان وجلوكوند وبالجبال وجزيرة بورنيو واستكشافه في بريزيليا كان في القرن السابع عشر في مديرية ميناسجيري والمستخرج منه غشيما كل سنة في جميع الجهات يقرب من ستة كيلوغرامات الا انه اذا صفي ونقي لا يبلغ الا نحو مائة وثمانين غراما

وكيفية استخراجه بالبريزيليا ان تفتت الصخرة التي يظن وجوده فيها ثم تغسل في حيضان ما عمق الماء فيها متر ويجلس الغسال على حافتها وبيده قطعة خشب مجوفة تسع اثنين او ثلاثة من الكيلوغرامات من الرمل فلا يزال يحركها في الحوض حتى يعثر بشيء منه ومن اعتياد العبيد على غسله لا يفوت الواحد منهم شيء منه ولو صغيراً جداً ومن عاداتهم ان كل من وجد شيئا منه ينادي باعلى صوته قائلاً قدس الله روح المسيح . ثم يسلم ما وجد للملاحظ فان كانت قطعة كبيرة كافاه عليها وربما اعتقه في نظير ذلك

وقال بعض المؤرخين ان حك الالماس واستعماله قديم لكن كان على غير قانون من حيث الانتظام والشكل وقال بعضهم لم يكن ذلك الا من سنة الف واربعمائة وستة وسبعين من الميلاد فان المخترع له رجل من اهل بروج مع ان هذا الحجر وجد في بركة الدوك دنجو سنة الف وثلثمائة وثمانية وستين محكوكا فلذا حكم بقدم طرق حكه

وآلة حكه عبارة عن قرص من الفولاذ افقي الوضع يتحرك بسرعة شديدة وفوق القرص تراب الماس الحاصل من حك حجرين منه طبيعيين غير قابلين للتصليح ولهم في ذلك طرق والمعلوم الان ان الماس المستعمل بين الناس على هيئتين

الاول الشكل المعروف بالروزة ومعناها الوردة

والثاني المعروف بالبرلانتا فاول وجهه الظاهر هرمي الشكل ذو اسطحة مثلثية والوجه الثاني مستو يختفي في مادة التركيب سواء كانت من الفضة او الذهب واما النوع الثاني وهو البرلانتا فكلا وجهيه مسطح الوسط وفي دائر ذلك السطح اسطحة مثلثية او معينة والمجموع عبارة عن هرمين ناقصين والعادة ان يبقى مكشوفا في تركيبه مع الفضة او الذهب ويرى من الاعلى كما يرى من الاسفل واختلاف قيمته باختلاف مائه وصفائه وكبره وشكله والحجارة التي لا تصلح للاستعمال يساوي قيراطها ثلاثين او ستة وثلاثين فرنكا وقدر القيراط مائتان وخمسة ونصف من المليغرام وقيمة القيراط المستعمل في الحلى تساوي ثمانية واربعين فرنكا اي ان قيمة الغرام منه تساوي مائتين وثلاثة وثلاثين فرنكا وذلك اذا كان وزن الحجر قيراطا فان زاد وزنه عن ذلك فتقدر القيمة بضرب مربع الوزن في ثمانية واربعين واما المصوغ فقيمته تابعة لهيأته وكبر حجمه كما ذكرنا واكبر حجر منه ما وجد بخزانة

ذخائر فرانسا وكانوا قد عثروا به علي بعد خمسة واربعين فرسخًا من جنوبي جلوكند ووزنه غشيما قبل حكه كان اربعمائة قيراط وعشرة قراريط واقاموا في حكه سنتين وبعد الحك صار مائة وسبعة وثلاثين قيراطًا وبلغت قيمة ذلك الحجر ثلاثمائة واثنى عشر الفًا وخمسمائة فرنك وصرف عليه في الحك مائة وخمسة وعشرون الفًا فاشتراه الدوك دورليان بثلاثة الاف الف وثلاثمائة وخمسة وسبعين الف فرنك وهو الان يساوي ثمانية الاف الف فرنك

ومن الحجارة المشهورة حجر يعرف بالنظام عند ملك جلوكوند غشيمه وزنه ثلاثمائة واربعون قيراطًا وقدروا قيمته خمسة ملايين فرنك وفي ذخائر الروسية حجر وزنه مائة وثلاثة وتسعون قيراطًا وكان مجعولا عينًا لصنم بمعبد براهمة فاخذه احد عسكر الفرانساوية وباعه بخمسين الف فرنك ثم صار ينتقل من يد الى اخرى حتى وقع في يد القراليجة كاترين فاخذته بالفي الف ومائتين وخمسين الف فرنك

وفي ذخائر النمسا حجر وزنه مائة وتسعة وثلاثون قيراطًا ونصف قيراط ويقال ان عند ملك البرتقال حجرًا قدر بيضة الدجاجة وزنه الف وستمائة وثمانون قيراطا ولم يره احد ممن اخبر عنه

ثم دخل بهم عنبر الطيور واراهم ما فيه ومنه الى عنبر الحشرات

والافاعي ثم الى عنبر الحيوانات الوحشية ثم محل المواد الكيماوية ومنها الى محل الالات واراهم بعض خواصها فكان كل ما انتقل بهم من مكان الى مكان يرى على الشيخ عدم رغبته في الانصراف من المكان الاول حتى يستوفي البيان عما فيه الا انه لضرورة الموافقة كان مجبورا على الموافقة وكان في جملة مــا رآه في عنبر الافاعي ثعابين (حيات) ممتدة في السقف ففزع منها فزعًا شديدًا ولكنه تجلد حين رآهم لم يكترثوا بها ومما رآه في عنبر الحيوانات الوحشية انواع السباع والضباع والنمورة والظبا والقِرَدة والفِيلة والزرافة والأيل والحُمُر والبقر الوحشية وكذلك انواع الطير والحيوانات البحرية كالدرفيل وفرس البحر والتماسيح فرأوا حولها اطفالاً ترمي لها خبزًا فتجتمع عليه ورأوا حول بيوت القردة خلقًا كثيرين يضحكون على العابها ثم طاف بهم في البستان واطلعهم على خواص ما به من نبات وشجر واخبرهم باسم نبات كل بلد ودرجة حرارتها وما يستخرج منها من الزيوت والادهان العطرية وغيرها واراهم نباتًا مغطى بسقف من زجاج وبيّن لهم الطرق التي تزيد في الحرارة وبالجملة فلم يدع شيئًا بالبستان الا اطلعهم عليه وذكر لهم ما يعلمه من خواصه ثم رجع بهم الى مكانه وطلب لهم قهوة فشربوا ثم قال المأمور اريد ان اتشرف بحضرة الشيخ في يوم غير هذا لاريه ما يجب ان يراه مما لم يرَهُ في هذا اليوم فقال الشيخ لا بد من ذلك لاحظى برؤيتكم واستفيد من معلوماتكم

فقال المأمور للشيخ الا اخبرك باصل هذا المكان قبل ان يعد لما رأيته به من انواع النبات والحيوان قال نعم فقال اصله كان فضاء من فضاآت باريز فلما جاء لويز الثالث عشر اصدر امره بانشاء جنينة في خطة من خطط باريز تكون ادارتها ونظارتها بعده لمن يقوم مقامه من عقبه فانشأ هذه الجنينة ثم ما زالت تتقدم كل سنة عن السنة التي قبلها الى ان جاءت سنة الف وستمائة واثنين وثمانين فجعلها بوفون موءلف كتاب حياة الحيوان والتاريخ الطبيعي في هيئة جديدة وقسم طرقها واحدث فيها مدرسة لتدريس العلم

ثم في سنة الف وسبعمائة واثنين وتسعين عمل لها مجلس الملة لوائح وقوانين وامر بنقل جميع الحيوانات التي كانت بويرساي اليها فازداد بذلك رونقها ومن ذلك العهد لا يمر عليها عام الا ويجلب اليها من المستغربات وانواع الطير والحشرات ما لا يحصى

المسامرة (١١٧)

الهواء والماء

ثم استأذنوا في الانصراف وقاموا فودعهم الى الباب ووقف هناك الى ان ركبوا وكانت الشمس قد أذنت بالغروب والسماء مطبقة بالسحاب وبعد ان ساروا مسافة قليلة خرجت عليهم ريح باردة من جهة الشرق فقال الانكليزي هذه علامة المطر فالاولى ان ندخل قهوة نستكن بها حتى يسكن فما دخلوا القهوة الا والمطر قد نزل كافواه القرب

فقال الشيخ ان اهل مصر الان يشكون من الحر ونحن نشكو من البرد فقال الخواجا ذلك ناشيء من اختلاف الاوضاع الجغرافية للبلاد ارتفاعا وانخفاضا ففي بعض الجهات المنخفضة قد يشتد

البرد حتى تجمد منه الانهار وتكسى الارض بالثلج وتكثر الامطار وربما تستمر اشهرًا وفي تلك المدة يضطر اهل تلك الجهات الى الاستمرار على ايقاد النار فيكون في كل مكان متقد او اكثر ويلبسون ثقيل الثياب كالفرآء والمضربات وكلما نزل الانسان الى الشمال ازداد عليه البرد والثلج وكلما صعد قل برده وادرك الحرارة

وشرح تلك المسئلة يحتاج الى مقدمة اقصها عليك اذا اوينا الى مبيتنا فلما هدأ المطر وركبوا الى محل اقامتهم قال الشيخ للخواجا انجز لي ما وعدتني فقال اعلم ان الهوآء ولو كان في غاية من الصفا لا بد ان يحمل معه ابخرة مائية متصاعدة من الانهار والبحار والريح توزعها في الجهات فزرقة الجو الممتد في السماء الى ستين الف متر ناشئة من هذا البخار المتصاعد وذلك الجو محيط بجميع كرة الارض والخلق على اختلاف انواعهم تعيش فيه ومن فوائد البخار تلطيف حرارة الجو فيكون الهواء صالحا للاستنشاق وكل حين يتصاعد من البحار مقدار من البخار لاجل تلك الفوائد الجليلة ولولا ذلك لهلك ما على وجه الارض من حيوان ونبات وقد غلط من جعل البخار والضباب والسحاب شيئا واحدا بل هما متغايران فان البخار عبارة عن غاز يرتفع من الانهار والبحار الى الجو بكمية تقل وتكثر فعلى كل مستودع ماء من نهر او بركة وكذا على الثلج ونحوه يتكون البخار فاذا تشبع الجو منه تحول بواسطة الهواء الى رطوبة محسوسة ودرجة التشبع تختلف

. قلة وكثرة باختلاف درجة الحرارة التي في الجو ففي درجة عشرين تحت الصفر لا يكون في المتر المكعب من الهوا زيادة عن غرام واحد اي ثلث درهم وفي درجة ذوبان الثلج يكون فيه خمسة غرامات ومن درجة عشرة الى ثلثين تكون غرامات البخار التي يمتصها الهواء موافقة لارقام اقسام الترمومتر فان زادت درجة الحرارة عن ثلاثين زاد قبول الهواء للبخار فاذا بلغت مائة قبل من البخار بقدر حجمه وساوت حينئذٍ قوة الهواء قوة البخار وبعد ذلك تزيد قوة البخار على قوة ضغط الماء فيحصل الغليان في الماء ثم ان كمية البخار التي في الجو ولوانها قليلة وتابعة لدرجة الحرارة لكنها مع ذلك قد تكثر كمية البخار المتصاعد من احد مائعين متساويين في الحرارة عن تصاعدها من الاخر بسبب هبوب الريح على احدهما دون الاخر او كثرته عليه اكثر من الاخر فكلما مر عليه ريح تشبع منه وترك مكانه الى غيره وهكذا بخلاف ما اذا كان واقفًا او قليلا وحينئذٍ فتصاعد الابخرة وتوزيعها في الجهات تابع ايضًا لكثرة هبوب الرياح ثم ان الهواء يكون فوق سطح البحر متشبعا من البخار او قريبا من التشبع وكلما صعد من جهة الاستواء الى جهة الاقطاب يأخذ في النقص وكذلك يكون تشبعه في السواحل اقل منه فوق البحر وفي داخل الولايات اقل منه في السواحل وذلك بحسب توزيع الانهر والخلجان والبرك والجبال والغابات واختلاف الرياح واتجاهاتها فمقدار البخار في جو كل بقعة يخالف مقداره

في الاخرى ففوق ارض بلاد الانكليز يكون الجو متشبعا بالبخار او قريبا من ذلك وفوق صحاري آسيا يكون جافا ليس له الأ خمسة عشر جزءا او عشرون جزءا من مائة ما يمكن ان تتشربه وعلى العموم فمقدار البخار في جو الارض القارة ثلاثة اخماس مقدار التشبع ومع كونه على هذه القلة فوجوده في الجو من اهم المهمات وبيان ذلك ان الارض تميل الى ضياع ما تشربته من الحرارة مدة النهار بردّه ثانيا الى الجو في الليل فاذا ردته التقطته الابخرة المائية فتزيد حرارة الجو ولاحاطته بكرة الارض احاطة الظرف بمظروفه كان لها كغطاء حافظ لها من البرد ولولا هذا البخار لهلك ما على وجه الارض كما مر وكلما جف الجو اشتدت حرارة الارض ففي النهار تؤثر اشعة الشمس في الارض فتلبسها حرارة وفي الليل ينبعث من الارض نحو الجو ما كمن فيها من تلك الحرارة فكلما اشتدت درجة الحرارة في النهار في بقعة كان ليلها شديد البرد لان كمية البخار في تلك البقاع تكون قليلة جدًّا فلا تمنع الاشعة المتصاعدة من الارض من النفوذ فيها الى جهة السماء ومما سبق يعلم ان البخار المائي ملطف لحرارة الاشعة الشمسية الساقطة على الارض ومانع لها عند انعكاسها من الارض الى الجوّ من ان تضيع في السماء ومن فوائد ذلك حفظ درجة الحرارة الكافية للحياة

فقال الشيخ لماذا لم يمنع البخار اشعة الشمس الساقطة الى

الارض ويمنعها اذا كانت منعكسة منها فهلا منعها جميعاً او لم يمنع واحداً منها

فقال الخواجا هذا لا يرد الا لو كانا على صفة واحدة اما اذا كانا على صفتين مختلفتين كما هنا فلا وذلك ان الاشعة المنبعثة من الشمس الى الارض حارة مضيئة بخلاف المنعكسة من الارض الى الجو فانها مظلمة خالية من الضوء فلذا كان تشرب البخار للاشعة المنعكسة اكثر من تشربه للاشعة المنبعثة الا ترى انا لو عرضنا لوحا من زجاج الى الشمس لنفذت اشعتها منه سريعا ولا يسخن الا بعد مدة وما ذاك الا لمنعه حرارتها دون ضوئها فكذلك بخار الماء في الجو فانه يمنع اشعة الشمس المنعكسة من الارض لظلمتها ولا يمنع اشعتها المنبعثة منها لوجود الضوء فيها

ومن الحكمة الالهية والالطاف الربانية وجود البخار في الجوّ لانه يجعل الدرجة المتوسطة للحرارة في كل بقعة اكثر من حرارة اشعة الشمس وحدها اي بدون بخار الجو لا صعوبة في تخليص الهواء من الابخرة المائية الممتزجة به فان ذلك يحصل بتبريده كما لو أخذت قلة ماء مثلاً وجعلتها في مكان حار وتركتها برهة من الزمن فانك ترى سطحها قد كسي بابخرة كالندى فكذلك يكون الجو اذا برد الهواء بعد غيبوبة الشمس فان الابخرة المائية تجمع وتصير ندى رقيقا ومن تأمل في الخارج من فمه من النفس في وقت البرد رأى بخارًا ظاهرًا للعيان وكذا اذا نظر

الى الابخرة المتصاعدة من دسوت الآلات البخارية فانه يرى البخار يرتفع ثم ينزل على الارض في هيئة مطر خفيف هذا ما تيسر ايراده من الكلام على البخار

واما السحاب والضباب فكل منهما عبارة عن تجمع كرات صغيرة حاصلة في الجوّ ولم تتفق اراء الحكماء من الطبيعيين في تلك الكرات على شيء فمنهم من يقول انها هوائية وفي جوفها ماء ومنهم من يقول انها نفسها ماء ثم ان بعض الناس يقول الضباب منافٍ للصحة ومؤذٍ للاجسام وهذا حق لان الضباب علامة على كثرة الرطوبة في الجوّ وانهــا متكونة في هواء راكد قريب من سطح الارض تجمع فيه الابخرة المتصاعدة من القرى والمدن والمستنقعات واكثر ما يكون الضباب في الليل بسبب برودة الجو وقد يكون فوق المراعي الواسعة بقرب غروب الشمس ومتى صادف تكوّنه في الجو سقوط ريح باردة من الطبقات العليا من الجو حبسته اياماً واسابيع ومن وقف على مرتفع من الارض رأى الجبال بارزة نافذة من خلاله فيرى السماء صافية لخلو الجهــة العليا منه

واما السحاب فهو ضباب كثير العلو فوق سطح الارض يتميز عن الضباب بارتفاعه عنه في الجو وكثيراً ما يتكون من ابخرة ثلجية ولا حصر للصور والاشكال التي يكون عليها وتتقطع السحابة الواحدة الى قطع عديدة تسير في جهات مختلفة وينضم لها غيرها

ثم تتمزق ثانياً وكثيرًا ما ينفصل السحاب ماآ ينزل على الارض مطرًا قليلاً او كثيرًا فذلك الماء هو البخار الذي يحمله الجو

فقال الشيخ وما الذي يفصل ذلك البخار من السحاب حتى يسقط على الارض فقال له قد عرفنا مما سبق انه لا بد لفصل الماء من الهوآ من تبريد الهواء فالبرودة هي التي تفصله عنه والحرارة تبقيه فيه وبانكماش الهواء وانضمام بعضه الى بعض تزداد حرارته وبانبساطه وتمدده يبرد وقد جربوا ذلك بان وضعوا قطعة صوفان في انبوبة مسدودة من احد طرفيها وادخل فيها من الطرف الاخر مكبس فكلما زيد في كبسه انضم الهواء وتناقص وازدادت حرارته فما انتهى الكبس الى الاخر الا وقد انتهت الحرارة فاحرقت الصوفانة فدل ذلك على ما قلنا من ان انضمام الهواء ونقص حجمه يزيد حرارته وبضدها تتميز الاشياء ففي الطبقات العليا من الجوّ تكون درجة الحرارة اقل منها في الطبقات القريبة من الارض لاتساع العليا وقلة البخار فيها فلا يكون بينهما توازن فترتفع طبقات الهواء القريبة من الارض الى الاعلى فتنبسط وتترك ما فيها من الابخرة فتسقط ثلجاً او بردًا او مطرًا على حسب شدة البرودة وضعفها فلو هبت ريح فصدمها جبل لم تقف عن سيرها بل ترتفع في الجو وحينئذٍ يقل الضغط عليها وتنبسط وتبرد وتنفصل عن ابخرتها فتصير الابخرة مطرًا ونحوه ومن المشاهد انها عند مصادمتها لنحو غابة يحصل سقوط المطر وعند مصادمتها

لجبل يسقط ثلج ونحوه بحسب زيادة الارتفاع وقلته وتصادم تيارات الهوا بعضها ببعض فوق سطح البحر المالح يحصل منه مثل ما يحصل بمصادمة الاهوية للموانع المارة فسقوط المطر حينئذٍ تابع لحركة الهواء وكل سحابة شاهدناها انما هي تاج لعمود من الابخرة صاعد من الارض الى السماء ثم ان المطر يكون اول نزوله نقطا صغيرة بحيث لو اجتمع منه ثلاثون نقطـة لا تزيد عن مليمتر وبسبب تحرك الهوا تتلاطم تلك النقط فيلتحم كل جملة منها وتصير نقطـة كبيرة وكلما قربت من الارض كبرت حتى تكون النقطة الواحدة قدر سانتيمتر فاكثر لان النقطة كلما كانت صغيرة لعب بها الريح شمالاً ويميناً فاذا نزلت انضمت الى غيرها وكبرت وزادت ثقلاً بحسب قوة الهواء ولا تنزل في خط رأسيّ بل تكون في نزولهـا مائلة قليلاً او كثيرًا وقد يشاهد عند سكون الريح سحاب مرتفع ارتفاعًا عظيما وذلك ناشىء عن تبادل حاصل بين السحابة وما تحتها من الابخرة فيقع من الطبقات العليا نقط ماآ الى اسفل منها فاذا وصلت الى طبقة حارة تبخرت وارتفعت ثانيًا وهكذا فيكون بين السحاب والابخرة ذهاب وإياب فاذا تغيرت درجة الحرارة في جو السحابة يأخذ شكلها في التغير ومن يتأمل في السما بعد الظهر يرى السحاب يتجمع ويتفرق او يأخذ في الزوال ويتكون عن ذلك صورة بهجة حسنة وارتفاع السحاب وانخفاضه يختلف باختلاف البلاد تبعًا لطقس الجو واتجاه الرياح في جميع فصول السنة

فتارة تكون الرياح قريبة من المساكن وتارة تعلو رؤوس الجبال وتارة ترتفع في الجو واكثر ما يبلغ ارتفاعها احد عشر الف متر وخمسمائة واربعين مترًا كما اعتبر بالوسائط الفلكية وذلك يفوق على ارتفاع اعلى جبل في الارض بثلاثة الاف متر وبعض السحاب يرتفع في الجو اكثر من ذلك بكثير وارتفاع السحاب في اوروبا يختلف بين ألفيَ متر وثلاثة الاف فلا يقطع من جبالها الا جبال البيريني وجبال الالب وهذا الارتفاع يكون كثيرًا في فصل الصيف قليلاً في فصل الشتاء ويختلف ايضًا سمك طبقات السحاب فتارة يعظم عظما هائلا وتارة يقل عمقه وعلى العموم فتختلف حالته الوسطى في جهات البيريني من ثلثمائة متر الى خمسمائة بحسب البقاع وكثيرًا ما تكون طبقات السحاب متراكمة بعضها فوق بعض بابعاد تقل وتكثر على حسب الاحوال وكمية الامطار الساقطة سنويًا على الارض تختلف قلة وكثرة بحسب الممالك او جهات المملكه الواحدة وبالتجربة قد وجدت مناسبة لدرجة عرض الجهة وارتفاعها عن سطح البحر المالح وانها كثيرة في جهة القطبين قليلة عند دائرة الاستواء وسبب ذلك اختلاف درجة الحرارة وظهر من التجارب العديدة ان كمية المطر بجزائر الانتي تبلغ مائتين واربعة وستين مترًا مكعبًا وبجهة بونباي تبلغ مائتين وثمانية وفي كلكتا تبلغ مائتين وخمسة وفي كاندا من بلاد الانكليز تبلغ مائة وستة وخمسين وفي نابولي من ايطاليا تبلغ خمسة

وتسعين وفي وندبك واحدا وثمانين وفي لوندرة ثلاثة وخمسين وفي
باريز مثلها وفي مرسيليا سبعة واربعين وان ما ينزل بالجبال اكثر
مما ينزل بغيرها بسبب ان الجبال لارتفاعها وشدة بردها تجذب
السحاب اليها فيساعد البرد تكوين الامطار والناس في البلاد
الجبلية يهتدون في معرفة احوال الوقت بالنظر الى شواشي الجبال
الشامخة لانها قبيل تغيير الوقت تحيط بها دخنة عظيمة رطبة
حاصلة من تراكم السحاب حولها فيعلمون بذلك حالة الجو وكمية
المطر في البقعة الواحدة تابعة للارتفاع فقد قدر اهل رصدخانة
باريز ما نزل على سطوح الدور وما نزل بساحتها فوجدوا
ما نزل بالساحة اكثر مما نزل بالسطح وذلك ان حبات
المطر كلما طالت مسافة نزولها انضم بعضها الى بعض فيكبر
حجمها كلما قربت من الارض وقد تحدث دوامات هوائية تجمع
حب المطر بعضه الى بعض وكذا في مدينة باريز وجد ارتفاع
ماء المطر فوق السطوح خمسمائة ملبمتر وعلى سطح الارض خمسمائة
وستين وفي برلين يزيد النازل في الساحات عن النازل على
الاسطحة بنحو التسع وكلما ارتفعت ارض الولايه عن سطح البحر
الملح كانت بعيدة عن الابخرة البحرية ولهذا كان ما ارتفع من الجبال
في غاية الجفاف ولا يحصل من السحاب الملاطم لسفحها والابخرة
الفاعلة في طبقاتها السفلى فعل على الثلج الدائم المتكون بها وقد
اختبروا مقدار المطر النازل بالولايات المستوية الارضية باوروبا

والولايات التي بها جبال فوجدوا النازل بالولاية المستوية باعتبار سنة واحدة خمسمائة وخمسة وسبعين مليمتر والنازل بغيرها الفًا وثلثمائة مليمتر واختبروا ما نزل في وادي نهر الران فوجدوه من خمسمائة وستين الى خمسمائة وثمانين مترًا مع ان ما ينزل في جبال الغوج يختلف من الف مليمتر ومائة جزء الى الف مليمتر ومائتين ومما يفعل في درجة الرطوبة بالقلة والكثرة القرب او البعد من الغابات الكبيرة والمياه العظيمة ومهابّ الرياح وجنس الارض التي تمر عليها ولذلك كان ما يقع من الامطار على سواحل البحار اكثر مما يقع في داخل الارض وبالتجربة وجد ان ما يقع في المديريات الواقعة بين نهر الرين ونهر الساوون في السنة الواحدة خمسة واربعون اصبعًا مع ان ما ينزل بباريز لا يزيد عن اثنين وعشرين والرياح الجنوبية والغربية تاتي بابخرة البحر الاطلنطيقي والمتوسط الى اوروبا ولكثرة الغابات واتساعها وعلو الجبال الشامخة يشاهد بجهات نورويج وسواحل افريقا الغربية ضباب مستمر وامطار كثيرة ولعلو جهة مدينة مدريد بالاندلس على سطح البحر الملح كانت في جفاف تام ثم ان الامطار تنقسم الى منتظمة وغير منتظمة تبعًا لكيفية سقوطها في الولايات المختلفة فغير المنتظمة تكون غالبًا في الاقاليم المعتدلة الحرارة بسبب تقلبات الفصول فيهـا مع مناسبة هيئة الارض فيقع منها في الاوقات الحارة اكثر مما يقع في الاوقات الباردة واما المنتظمة

فيبتدئ سقوطها في المنطقة الحارة متى سامتت الشمس الرأس، بتقدمها الى المنقلب الصيفي وتنتهي الامطار متى رجعت الشمس الى المسامتة الاولى وتكون متوسطة في شهر يوليو الافرنجي وتقوى في شهري اغسطس وستنبر وتقل في شهر اوكتوبر وعلى العموم تظهر الامطار وتقوى في فصل الخريف ففي مصر تبتدئ من شهر اوكتوبر وتستمر الى شهر دسنبر وفي الاقطار التي في عرض ثلاثين درجة الى عرض خمس واربعين كبلاد اليونان والاندلس والبروانس من فرانسا يكون اكثر نزولها في فصل الخريف واما في فصلي الربيع والصيف فتضعف حرارة تلك الجهات بسقوط الندى الغزير ويقل مطرها وفي الجهات التي من عرض خمس واربعين الى خمسين كبلاد فرانسا والمجر تنزل الامطار الغزيرة في فصل الربيع وتكون مدتها قليلة وفي البلاد التي من عرض خمسين الى خمس وخمسين كبلاد الفلمنك والمانيا ينزل المطر ويكثر الضباب في فصل الخريف والتي من عرض خمس وخمسين الى ثمان وستين كبلاد الدانمرك وسويد ونورويج اكثر مطرها في فصل الربيع مدة قليلة ايضاً والتي من عرض ثمان وستين الى عرض سبعين كبلاد لابوني وسبسبور وكمشكا اكثر نزول مطرها في فصل الصيف وما ينزل باوروبا ليلاً اكثر مما ينزل بها نهاراً والاقاليم الموازية على العكس من ذلك وغير المنظمة تقع في غير فصل الشتا وهي قليلـــة عند دائرة الاستواء كثيرة في الاقاليم المعتدلة

وتكون مدة المطر في هذه الجهات أكثر من غيرها وتكثر الرطوبة في الجو وتكون ملطفة لحرارته بخلاف الاقطار التي يكون زمن نزوله بها قليلاً ودفعة واحدة كالبلاد الحارة وقد استدلوا على ان للبقعة تأثيراً في قلة المطر وكثرته بما شاهدوه في جهة السنيجال حين وجدوا كمية المطر النازل بها في كل السنة اقل مما ينزل بغيرها من البلاد البعيدة عن الاستواء ففي جزيرة كيّن تكون مدة المطر ثمانية اشهر او تسعة وارتفاع ما يسقط منه في السنة مائة وثمانية اصابع مع ان ارتفاع الساقط في جزيرة بوربون تسعة وثلاثون اصبعاً وفي جزائر اللانتي ثمانية وسبعون ويقع أكثره في الزمن القليل وليس في الجهات أكثر مطراً من سواحل مالابار وار كان وجبال حملايا لان أكثر اسبابه موجودة بها لشدة الحرارة وارتفاع الجبال فيصعد من بحر الهند وحده من الابخرة أكثر مما يصعد من جميع الابحر وتسير به الرياح الى سواحل افريقة وسواحل اسيا فاذا مرت بجبل ارتفعت به حتى تصل الى الطبقة الباردة وعند ذلك يتحلل وينزل حتى يملأ الاودية وتفيض منه الانهار وقد قدروا ما نزل بجهة هناك مرتفعة عن المالح بقدر الف وثلثمائة وستين متراً فوجد بعد عدة تجارب عملت في اربع عشرة سنة ان متوسط ارتفاع المطر سبعة امتار وثلثان في السنة الواحدة وفي بلد اخر من هذه الجهة كان متوسطه في السنة الواحدة خمسة عشر متراً الا خمس متر وذلك مقدار ما ينزل بالاسكندرية في

مدة مائة سنة وفي تلك البلاد مما يلي حملايا كان ارتفاع ما سقط في شهر يوليو سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين ثلاثة امتار وثلاثة ارباع المتر وفي بعض تلك الجهات لا ينقص متوسطه في سبعة اشهر من السنة عن اثنى عشر مترًا ونصف متر وقد شوهد في هذه النواحي سيل عظيم استمر اربع ساعات فقط فغطى الارض بطبقة من الماء قدرها ثلاثة ارباع المتر واذا نسبت ذلك الى ما يقع على ارض فرانسا وجدته مقدار ما يقع فيها في سنة كاملة وارتفاع ما يقع في سواحل الهند متر واربعة اخماس المتر وما يقع على الجبال الداخلة فيها يكون قدره ثماني مرات ثم انهم بالتجربة وجدوا اللتر الواحد من ماء المطر يشتمل على ثلاثة وعشرين سانتي متر مكعبة من الغاز الذي في كل مائة حجم منه اثنان وثلاثون من الاكسوجين وثمانية وستون من الازوت بعد تنزيل اثنين واربعة اعشار من غاز حمض الكربون

وهذه المقادير تختلف باختلاف الارتفاع ففي الارض المساوية لسطح البحر يكون قدر الازوت والاكسوجين خمسة وثلاثين وفي الارض المرتفعة عنه بنحو الفين وستمائة واربعين مترًا يكون قدر هذين الغازين اربعة عشر فقط وفي الارض المرتفعة عنه بنحو ثلاثة الاف متر يكون قدرها احد عشر فقط وكذا حمض الكربون يختلف قدره في ماء المطر بحسب الارتفاع ايضًا وقد يكون في المطر ايضًا ملح الطعام وذلك فيما يقرب من البرك وسواحل البحر

المالح ومتى سقطت مياه المطر على ارض اثرت فيها الحرارة وتسحب معها في سيرها بواقي حيوانات وحشرات وحشائش فتكون غير صالحة للخزن بخلاف المطر المأخوذ من فوق سطح المالح فانه يصلح للخزن لخلوه من ذلك ولذلك لما حلل بعض الكيماويين ماء المطر في جهات مختلفة وجد فيه مقادير مختلفة من الاتربة ففي بلاد الانكليز وجد فيه من تراب الفحم وقد يوجد فيه مركبات نشادرية كالكربونات والنترات وذلك اكثر مما يكون منها في ماء الانهار وهذه المواد وان كانت سريعة التطاير والصعود الا انها تنزل ثانيا مع ماء المطر

فقال الشيخ سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا فان هذا من الحكم الربانية والاسرار الالهية التي لا يقف على حقيقتها عقل ولا يحيط بكنهها نقل فالانسان وان بحث ودقق واستكشف وحقق فمثله كمثل طائر نقر في البحر نقرة فهو وان روي بها ما اخذ منه مثقال ذرة ويكفي في ذلك دليلاً قول الله تعالى وما اوتيتم من العلم الا قليلاً ومن استنارت بصيرته وخلصت سريرته يرى جميع ذلك مما اندرج تحت مفهوم قوله تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون

فقال الخواجا وازيدك انك اذا تاملت في المطر حال نزوله وجريانه في مجاريه وجدت ذلك شبيهًا بتقطير المآء في الانبيق فان اشعة الشمس تكون كانها الفرن له والبحر الملح كانه الانبيق والجوّ المرتفع كانه تاجه والجهات الباردة من الجوّ وشواشي الجبال الشمالية المغطاة بالثلوج والبحور المنجمدة هي المبرد له والانهر والخلجان والبرك ونحوها هي الاوعية التي تردّ الى المالح جميع ما اخذته منه وهذا مستمر الى ما شآء الله فكلما اندفقت مياه الاوعية في الانبيق تصاعدت ثانيًا ورجعت الى الاوعية ثم منها الى الانبيق وهكذا فالمآء الحلو الزلال الذي يشربه المصريون من نيلهم والباريزيون من نهرهم بل وسائر انهار العالم اصله من البحر الملح وانما حلا بتكرير الصعود والهبوط كما ذكرنا لانه يصعد اولاً بخارًا ثم ينعقد سحابًا ثم ينقلب بخارًا ثم مآء ثم ينزل ويجري في مجاريه ثم يعود الى البحر كما كان وهكذا ولذلك شبه بعضهم البحر برجل بخيل لان جميع ما يخرج منه لا بد ان يعود اليه حتى البخار الذي يخرج من الفم فانه يرجع اليه في صورة قطرة مآء

ومن عجيب لطف الله ان الابحر الاستوائية بفعل حرارة الشمس الشديدة على مياهها تسخن وتكون لها من ذلك درجة كافية تحفظها حتى تصل معها الى البلاد الباردة لتلطيف شدة بردها وقبل ان تكون مياه الامطار في الانهر والخلجان تقع على سطح الارض فتكون في المجاري الصغيرة التي في خلالها وتدخل في

الارض الهشة وبين الاحجار وفي جدور النبات وسيقانه وفي هذه السياحة تذيب ما فيها من المواد المعدنية المختفية في جوف الارض ثم تاخذها معها وتوزعها الى انواع الحيوان والنبات وقد تحد بغيرها فتكون مواد يسميها الكيماويون الادرات اوانها تكون في المناقع فتحلل البواقي النامية او تساعد في تعفين المواد النباتية وتخميرها ويتحصل عنها مواد فحمية وليس من دابها الدوام على حالة من الحالات وبعد ما تكون في جسم الحيوان والنبات بالصورة السائلة تخرج منه في صورة بخار وترجع الى الجوّ ومنه ترجع الى سائل اوثلج او برد او جليد ثم تنتقل عن ذلك وتكون بخارا ثم تنتقل الى ان تكون سائلا وهكذا فهي السائل الذي يجري في جدور النبات وعروقه والندى الذي يرى على ورق الشجر والدم الذي يجري في جسد الحيوان والرطوبة التي نحس بها والبخار المحرّك للوابورات والضباب المرتفع من اراضي المراعي وغيرها فهي المنبع الذي ياخذ منه كل حي قوامه فتكون جامدة وسائلة وبخارًا فلا تتغير من صورة من هذه الصور الا لتاخذ ما بعدها فاذا تركت البحر كانت على الارض لنفع الخلق وان تركت الارض ترجع الى البحر فتعلو الى الطبقات العليا من الجو وتنزل الى الطبقات السفلى من الارض وتصاحب الريح وتتبع ميل الارض وتكون في جوفها فتكتسب حرارتها وتخرج منها حامية حاملة من ذخائرها فلا يعوقها الصخر حتى تصقله وفي سيرها تنقل تقاوي النباتات

وبيض الحشرات من ارض الى ارض وتقلب الرمل والتراب والزلط وتقلع الحجر والشجر وتخرق الارض وتهدم الجبل وجميع هذه الاعمال لاسباب دبرتها الارادة والقدرة لبقاء نظام هذا الكون والكلام في شرح ما وصل اليه علم الانسان من ذلك طويل وان شاء الله نجعل بقية الكلام في ذلك بكرةً فوق نهر السين ثم أوى كل الى فراشه وكانت ليلة ماطرة فناموا الى الصباح فاخذوا ملابسهم واشياءهم وتوجهوا الى النهر فركبوا السفينة وكان يعقوب قد اتخذ لهم في مقدمها خزانة فسيحة بامر الخواجا له فدخلوها وبعد برهة اخذت اطراف السفينة وشرعت تسبح فوق المآء واخذت كفات الطارة تضرب في الماء فيحدث فيه رغوة ويزبد والسفينة تسرع في سيرها فصار الشيخ وولده ينظران الى البر والى الجبال والاشجار التي على طرفي النهر ويسرحان الطرف في النهر وما حواليه وخرير المآء يسمع بين الحشائش واحجار البر وتذكر الشيخ ما ذكره الخواجا بالامس وما ابداه من الاسرار والحكم واللطائف التي ترتاح لها النفوس وتطمئن لها القلوب فالتفت لابنه وقال له يابني العلم رأس مال الانسان وتجارة لا يعتريها كساد ولا خسران وبه حياة النفوس وهو اجل ما تحلت به الطروس وبه استنارت البصائر وهو الذي تنافست فيه الاوائل والاواخر ولقد احسن من قال

العلم يغرس كل فضل فاجتهد

ان لا يفوتك فضل ذاك المغرس

واعلم بان العلم ليس ينا له

من همه في مطعم او ملبس

واحرص لتبلغ فيه حظا وافرًا

واهجر له طيب المنام وغلس

لتعز حتى لو حضرت بمجلس

اكرمت فيه وصرت صدر المجلس

ان الخليّ من العلوم مقامه

عند النعال له صموت الاخرس

فالعلماء مصابيح الازمنة كل عالم مصباح زمانه وذلك انه لا يرى شيئًا الا بحث عن اصله وسببه وما يؤول اليه امره وما يترتب عليه من خير وشرّ ونفع وضر هكذا دابه وديدنه ما دام حيًا فان مات بقي ذكره واما الجاهل فتراه لا يلتفت الى شيء الا عند احتياجه اليه فيشرب الماء ولا يعلم من امره الا عذوبته او ملوحته ويسقي به الزرع ولا يعلم سبب نموه منه وياكل الثمر ولا يدري من اين اتته الحلاوة واذا مر بنهر عجب من اتساعه وتلاطم امواجه وتغير لونه وفيضانه ولا يبحث عن سبب ذلك فكم من خلق تولد وتلد وتموت على شاطئه وهم على فطرتهم الاصلية من الجهل بخلاف اهل العلم فان احدهم متى وقع بصره على شيء لا يهدأ له سر الا ان وقف على سره وكشف حقيقة امره فمن

ذلك النهر الذي نحن فيه فان اصله كما قال حضرة الخواجا قطرات تصاعدت الى السماء ثم نزلت متفرقة فاجتمعت حتى صارت نهرًا يجري على وجه الارض يقتلع ما قابله من نبات وشجر واذا مرّ بارض تلوّن بلونها فتارة يكون اصفر او الى الصفرة اقرب وتارة يكون اخضر او الى الخضرة اقرب وكلما قرب من مصبه وهو البحر الملح تشعبت مجاريه وربما رجعت الى خلف ثم استقامت وكما تختلف الوانه بحسب الارض التي يمر بها كذلك تختلف اسماؤه على حسب ما على شواطئه من الجزائر والعمران واذا جرى رويت منه الاشجار وشربت منه الزروع فضلاً عن الاستعانة به في الاسفار وتقريبه ما بعد من الاقطار فسبحان من دبر الكون بحكمته وسخر ما شآء كما شاء بقدرته لا اله الا هو الفرد الصمد المنزه عن الشريك والمعين والولد

ثم التفت وقال للخواجا ارجو من جنابكم الاطناب في هذا الباب

فقال ان ثلاثة ارباع الدنيا مغمورة بالماء ولكن منه المغذي يرتوى به ومنه غير المغذي فالاول لا رائحة له وانما فيه جزء من الهواء ذائب فيه وان طبخ به الخضراوات نضجت وصلحت وان حلل به الصابون تحلل سريعًا وان غلي لا يتكدر وان قطر لا يرسب في اسفل انائه الا شيء قليل من مواد جيرية تلزم لتكوين الحيوان ونموه فان كان فيه جبس فلا تطبخ به الخضراوات لان

الجبس حينئذٍ يلتف عليها كالغلاف بعد تصاعد الماء فيمنع نضجها ويمنع ايضا ترغية الصابون واما الماء الذي لا يروي فليس فيه من الهوا الا شي يسير وبه مواد نامية متحللة فيه وذلك كما آ البحر المالح وما آ غالب الابار وماء البرك الراكدة واصفى المياه واتقاها ماء المطر الا انه لا يصلح للغذاء لخلوه عن القدر الكافي من الاملاح والهواء الذي يجعله سهل الهضم فبناء على ذلك تقدر ان نحكم بان جميع المياه الموجودة غير نقية فاذا كان الماء متكدرًا بالطمي والاتربة ونحوها ترك مدة حتى يروق بنفسه او بشيء يضاف عليه فان ظهر له رائحة كريهة حاصلة عن تحليل بعض المواد النامية وضع فيه قليل من فحم العظام المكلسة في افران مخصوصة داخل اوانٍ مقفولة فتشرب تلك الروائح وتلتقط ما فيه من المواد التي ينشأ عنها ذلك وتخلص الماء وتجعله نافعًا للاستعمال ويلزم تغيير الفحم متى ضاعت خاصته ومن المياه ما يشتمل على معادن متنوعة وغالبًا لا يشتمل الماء الواحد على اكثر من ثمانية او سبعة منها ولكن الحكم لاكثرها فيه ظهورًا فيسمى الماء باسمه كالمياه الكبريتية تعرف لكثرة الكبريت فيها برائحة تشبه رائحة البيض المذر واذا غمس فيه شيء من الفضة اسود والمياه الحديدية طعمها كطعم المداد ومنها ما يكون حارًا ومنها ما يكون باردًا وتختلف حرارة الحار منها بسبب بعد الطبقة الارضية النابع منها عن سطح الارض وعدم بعدها

فقال ابن الشيخ فالماء الذي تستعمله الاطباء اي نوع هو
فقال الخواجا ذلك ليس منها وان كان لا يخرج عنها الان لهم فيه قبل استعماله اعمالا وذلك بان يضعوه في معوج من زجاج ثم يوقدوا عليه نارا فيصعد منه بخار فيجمعونه في زجاجة موضوعة في اناء فيه ماء بارد فمن ترك بعضه على بعض وفعل البرودة عليه يتحل الى الماء المطلوب ويسمى بالماء المقطر وهذا اذا كان اللازم منه قليلاً فان كان كثيرًا قطروه بالانبيق وهو عبارة عن اناء من نحاس له غطاء مثقوب ركب على ثقبه ماسورة قد سلطت على كرة من زجاج موضوعة في ماء بارد وفي تلك الكرة ماسورة حلزونية تدور على نفسها داخل ذلك الماء البارد فحين يصل اليها البخار ينقلب ماء فيصب في اناء اخر وبقرب الالة ماسورة اخرى لتغيير الماء اذا ضعفت برودته فالماء المقطر خال عن الرائحة والاملاح والهواء ولذلك يكون ثقيلاً على المعدة ولو القي فيه سمك لمات وبالجملة فلا حصر لما اودع في هذا الجوهر اللطيف من الاسرار

فقال الشيخ وحسبنا في ذلك قول الله تعالى وجعلنا من الماء كل شيء حيّ حيث لم يقيد الماء بعذب ولا غيره ولا الشيء بانسان ولا غيره

فقال الخواجا ومن وصل الى شواشي الجبال الشامخة الموزعة فوق كرة الارض يطلع على الحكم العظيمة التي اودعها الباري

سبحانه في هذا الجوهر العظيم ففي شواشي تلك الجبال تكون منابع الانهر والخلجان الجارية في جميع الارض وهي عبارة عن بحائر صغيرة بين جبال فيجتمع في تلك البحائر ما ينزل من السماء وما يذوب من الثلج الدائم المكسوة به رووس الجبال الشامخة فترى للجبال حكمة تجمع المياه التي استعارتها السماء من البحر بواسطة الشمس وحكمة ردها الى البحر ثانيًا بواسطة الانهر والخلجان ونحوها فوضع الجبال على الارض تابع لقاعدة ثابتة وقانون لا يختل به نظام العالم فترى سير الانهر دائمًا تابعًا لسير الجبال فسلاسل الجبال الاصلية من الدنيا القديمة خط سيرها من الغرب الى الشرق وفروع الجبال الخارجة عنها من الشمال الى الجنوب فنهر الفرات وخليج العجم والنهر الاصفر والنهر الازرق وسائر انهار الصين اتجاه سيرها من الشرق الى الغرب وانهر اوروبا وافريقا واسيا والبرك والابحر المتوسطة كبحر الروم والبحر الاحمر تسير من المشرق الي المغرب او من المغرب الى المشرق ولم يخرج عن ذلك الا نيل مصر وبعض خلجان ببلاد المغاربة وماء المطر الذي ينزل على سطح الارض منه ما تشربه الارض ومنه ما تبتلعه فيجري في جوفها الى ان يصادف طبقة لا يقدر على النفوذ منها فينبع سطحها ويتجمع ويتكوّن منه ماآ متسع فاما ان ينصرف الى البحر او الى الانهر او يبقى في هيئة برك تفعل عليها احوال موضعية تردها الى سطح الارض وهناك انهار وخلجان تكون اولاً على سطح الارض

ثم تغوص في باطنها بعد مسافة عظيمة من سيرها ومنها ما يختفي ولا يعلم امره ومنها مـا يختفي مسافة ثم يظهر كنهر جوديانا ببلاد الاندلس يختفي في ارض مستوية مكسوة بالعشب والمرعى ثم يظهر ثانيًا بعيدًا عنهـا ونهر الموز في فرانسا يختفي بالقرب من بلدة باروى ونهر الدروم منها ايضًا في ولاية النورماندي يختفي في وسط ارض مستوية وينصرف في جوف الارض في فتحة قدرها عشرة امتار وأمثال ذلك كثيرة ومن البحائر ما يجف في بعض الازمنة ويغور ماؤه في جوف الارض ويزرع موضعه ثم في الوقت المعين ينبع الماء فيملأها ثانيا كما كان كبحيرة كيركينتز من ارض الكارينول وقدرها فرسخ عرضا وفرسخان طولاً فتكون في فصل الشتا غامرة بالماء وفيها من السمك والسفن ما لا يحصى فاذا جاء الصيف تفتحت لها عيون من اسفل الجبال المحيط بها فتبتلعهـا بعد اربعة اسابيع وتزرع ارضها فاذا تم الحصاد تفتحت تلك العيون بعينها وجرى المـاء حتى تمتلىء وتعود كما كانت وكان بالقرب من قرية سبليه في ولاية الانجو عين ماء قطرها من خمسة امتار الى ثمانية كانت تغور تارة فتظهر معها انواع شتى من السمك وسطح الارض مركب طبقات بعضها فوق بعض فيها مجارٍ للماء متنوعة على ابعاد مختلفة وقد قابل المجس بقرب ناحية دييب في قرية سنّيقولا مجاري مياه تقرب من ماء يجري مفصولاً بعضها عن بعض بطبقات الارض ووجدوا بهـا اغصانا عليها ورقها وهذا

دليل على انها لم تمكث زمنا في باطن الارض وان للماء الذي على وجه الارض اتصالاً بما في باطنها وقد يحصل في بعض العيون زيادة ونقص ولكن لا تظهر الزيادة الا بعد نزول سيل في جهات بعيدة فيعلم ان تلك الزيادة من ذلك السيل ويختلف سير الماء في جوف الارض سرعة وبطئاً وكلما بعد عن سطح الارض اشتدت حرارته فلذا تجد ماء العيون يتفاوت في الحرارة ويختلف ايضا في كثرة المواد الذائبة فيه وقلتها والان قد استعمل الاطباء كثيرا منه في معالجة علل مختلفة

وقد بلغني عن بعض السياحين انه رأى عيوناً في اسلنده تنفجر من باطن الارض فتندفق دفقات بين الدفقة والاخرى نحو نصف ساعة وكل دفقة عمود من الماء غلظه نحو ثمانية عشر قدما فيرتفع في الجو نحو مائـــة وخمسين قدماً ثم ينحني وينزل على الارض فيختفي في جوفها فتنفتح لها عيون فتبتلعها وقبل تدفقها يسمع لها دوي وقرقعة وقد ينتشر فوق تلك العيون من الابخرة سحابة حاصلة من تبخر الماء وفي زيلندة الجديدة لا حصر للعيون التي تدفق الماء والبخار وبعضها عظيم جداً تملأ الدفقة منه حوضاً محيطه نحو ثمانين متراً فمن كل ذلك يعلم ان الماء كما يجري على وجه الارض يجري في باطنها وان له اعمالاً في باطنها كما له في ظاهرها فاذا كان على وجه الارض دخل في اخليتها ومسامها فان تسلطنت عليه البرودة جمد واثر في الصخور فيفصلها عن الجبال

ويلقيها في الوديان وفي الارض اللينة يذيب المواد القابلة للذوبان ويأخذها معه في سيره وبملامسته للصخور الهشة والاحجار اللينـة يدخل بين جواهرها فيحللها ويزيل تماسكها فتتفتت وتنعدم وتنتقل اجزاوءها الى غير مواضعها والحصى والاحجار المسحوبة مع الماء تنبري بملامستها لقاع مجرى الماء واحتكاكها مع ما يوجد به من الحجارة وغيرها ودائمًا تأخذ في صغر الحجم وقلة الوزن حتى تدق وتعلق بالماء فالصوان وجميع انواع الاحجار مهما كان تماسكها وشدة صلابتها لا تقاوم قوة الماء ويقلب الماء في سيره المستقيم المواد العائمة فيـه وبملامسته للبرور يسويها وينظمها وبدخوله في اخلية الاجسام ومسامها يفتتها وكذلك اذا انتقل الماء من السيولة الى الجمودة ومن كل هذه الامور تتغير صورة الارض ولا ريب في ان الماء يأخذ معه كل ما اذابه من الاحجار لما هو مقرر من ان زنة الشيء في الماء اخف من زنته في الهواء وقد اثبت ارشميد الحكيم ان الجسم اذا وضع في الماء خف بقدر زنة الماء الذي حل الجسم محله

وحيث كان الثقل النوعي لكثير من الاحجار لا يزيد عن ضعف الثقل النوعي للماء علمنا ان كل ما يأخذه الماء معه ينقص من ثقله قدر نصفه

وقد اختبروا الانهار بالنسبة لما فيها من المواد الطينية فوجدوا في كل مائة وستين جزءا من وزن ماء نهر (البو) جزءا من الطين وفي كل مائة جزء من ماء النهر الاصفر جزءا من

الطين واما نهر الكنج الذي يصب في الملح وقت فيضانه ففي كل ثانية من الماء الفان وثمانمائة وخمسون طولوناته فيصب من الطين في كل عشرة ايام ما قدر ضلعه الف متر واما في غير وقت فيضانه فيقذف هذا القدر في ثلاثة اسابيع وقد قدروا حجم ووزن ما يلقيه هـذا النهر في كل سنة فوجدوه قدر الهرم المصري الكبير باثنتين واربعين مرة وما يلقيه في اربعة اشهر فيضانه قدر اربعين هرماً وهذه المقادير التي يلقيها هذا النهر في البحر ولا يشاهدها الانسان تحتاج في نقلها الى مائة سفينة كل سفينة تحمل مليونا واربعمائة الف طولوناته وذلك بالنسبة لما يقذف به هذا النهر في وقت الفيضان فما بالك لو اضيف الى ذلك ما يقذفه في السنة وكذا ما يقذفه كل نهر وخليج من الانهر والخلجان الموزعة على سطح الارض فان ذلك يوقع الفكر في الحيرة ويحقق ان الماء من آيات الله القوية الموكول اليها تغيير احوال الارض واوضاع الخلق

وحيث كانت مياه جميع الانهار مجمعة من جهات مختلفة بعضها على سطح الارض وبعضها خفي يجري تحت الارض فيلزم ان تشتمل المياه على مواد كذلك ذائبة فيها كالجير والجبس وانواع الاملاح كالمنيزيا والسلجم وتراكيب حديدية وغيرها وبانصباب تلك المياه في البحر تتغير ملوحته وتضر بحياة ما فيه من الحيوانات ان لم يكن هناك من حكم الله تعالى ما يمنع ذلك ويبقي له حالته

الطبيعية وتلك الحكم اودعت فيما ينبت في قاعه وشواطئه من النباتات فانها تاخذ الاملاح المعدنية وتقصرها على نفسها فيتخلص منها الماء ويكون على حالته الاولى موافقًا لطبيعة ما فيه من الحيوانات

وحيوانات المحار والشعوب لا تتغذى الا من المواد الجيرية فبعد ان تاخذها في جوفها وتسد بها جرعتها تقذفها في البحر محارًا وشعوبًا فانظر الى نقط المطر الصغيرة الواقعة فوق قمم الجبال في سيرها كيف تحمل المواد الجيرية وغيرها لتكون طعمة للحيوانات الاخطبوطية الصغيرة ثم تقذفها تلك الحيوانات من اجوافها فتجعلها مسكنًا لها ثم تتراكم شيئًا فشيئًا فتصير حجرًا ثم شعبًا الى ان تصير جزيرة وتكسى بالنبات ويستحوذ عليها الانسان فيكون منه مسكنه وقوته

ثم ان اندفاع مياه الامطار يختلف قوة وضعفا باختلاف عظم الانحدار وقلته وفي اندفاعها قد تقلقل الصخور الكبيرة وكثيرًا ما تسحب معها احجارًا قدر الحجر منها متر مكعب فاكثر فمن الحجارة ما يتراكم بعضه على بعض ومنها ما ينحدر مع الماء حتى يستقر في اودية بعيدة ومنها ما يجره السيل حتى يلقيه في البحر فيفتته حتى يصير رملاً فيدفعه الموج الى الشاطئ او الى الجزائر فيكون في وسطها او في سواحلها وكثبان الرمل التي نشاهدها في السواحل انما هي حاصلة من الصخور التي جلبها السيل من الجبال البعيدة .

وفي الدنيا الجديدة انهر عظيمة العرض تجري في ارض غير

مستوية وتنحدر من المحلات الشامخة بسرعة شديدة واهل تلك البلاد لا يخشون الملاحة فيها وفي كثير من الجهات يفعل تيار الماء على الارض فياخذ معه الطين منها وفي سيره يتلف الشواطىء والبرور وياخذ فيه الطين بالتدريج حتى يصير نهرًا من طين

وفي سنة ١٨٥٣ شوهد تيار من الطين في جهة جبال الالب فكان اسود اللون قليل الماء وانصب في نهر الرون فاوجب فيضانه

وكثيرا ما شاهد السياحون من ذلك تيارات في بلاد البيرو وجاوى حتى صارت طبقة جديدة على وجه الارض وقد تجمد انهار البلاد الباردة فينحبس فيها كثير من الاحجار وغيرها وينتقل معها حيث سارت

وفي كثير من الانهر توجد شلالات مختلفة ينشأ عنها نقل المواد الترابية وغيرها وتغير شكل الاراضي فمن ذلك انهم رأوا قطعة الثلج طولها سبعة امتار فكسروها فوجدوا في جوفها حجرا ضلعه نحو متر

ومن ذلك نهر النياجارا بامريقة الخارج من بحيرة ايريه فانه بعد اثنى عشر فرسخًا منها ينصب من علوّ في منخفض عظيم الانخفاض وينحدر ويسيل حتى يختلط ببحيرة اونتاريو وهناك ينقسم بجزيرة الى هدارين عظيمين يسمع لدويهما صوت كصوت الرعد فياخذان ما قابلهما من حجر ومدر فبعضه يرسب في مجراهما

وبعضه يلقيه الماء على الشاطئ فيتراكم كالبناء فانظر كيف تسلطن الماء على ما انخفض وما ارتفع وفرق ما كان مجتمعًا وجمع ما كان متفرقًا فسبحان من خص ما شاء بما شاء وعمّ باحسانه من احسن ومن اساء ثم لا يخفى ان جريان الماء بهذه الكيفية يوجب غور مجراه وتاخر المصب عن موضعه

وقد شوهد سنة الف وثمانمائة وعشرين ان مصب نهر نياجارا المذكور تأخر عن موضعه الذي كان فيه منذ خمسين سنة نحو اربعين مترًا فلو فرض ان التاخر في الماضي كان على هذا النسق كانت مدة حفره للعشرة الاف متر التي حفرها نحو عشرة الاف عام وإن كان لا يقال ذلك الا بعد علم ما كان عليه الوادي في مبداء امره نعم ان استمر التقهقر على هذا النسق امكن معرفة الزمن الذي كان يصب فيه ببحيرة ايريه وإن استمر الحال على ذلك فعمّا قريب تجف البحيرة المذكورة لان غاية عمقها لا يزيد عن ارتفاع الشلال ومن هذا القبيل نهر زنبيز بافريقه لان به شلالات مرتفعة جدًا يسمع لمائها دوي من بعيد ويرى على النهر بخار ورغاوي ترتفع وتنخفض وعرضه الف وستمائة متر فاذا وصل الى محل الشلالات تقطع وخرج من بين الصخر وهبط الى مكان عميق حوله جبال فيكون للماء حينئذٍ دوامات وتتلاطم امواجه فيسمع لها صوت مزعج ويصعد منها عُمُد من الماء بيضاء القواعد سوداء الرؤوس فاذا وصلت تلك العُمد الى اعلي الصخور المحيطة به

ا انحدرت في مضيق هناك مع السرعة الشديدة والمزاحمة فمن تلاطم المياه ترى فوق الصخور سحابة من الزبد والرغوة وبسبب تراكم الصخور في ذلك المجرى الضيق جدًا ترى المزاحمة والملاطمة تكثر وتزداد فيرتفع الماء عن قاعه ويفيض على الشواطئ وتارة ينحبس في تلك الفوهة ويفعل في قاعها مع الشدة فيحفرها ويقلقل صخورها وبمادي ذلك يتسع المجرى

وفي ارض السينجال شلال نهر فيلو فان ماءه ياخذ معه حجارة حمرآء من حجارة شواطئه ومن كثرة تقلبها فيه وشدته واستمراره يؤثر فيها ويصنعها على صور مختلفة فقد راوا على شواطئه في وقت التحاريق احجارًا مثقوبة واحجارًا تشبه الصور والتماثيل واحجارًا عليها رسوم تشبه المعابد وصور حيوانات واشجار حتى اغتر بذلك العبيد القاطنون هناك وغلبت عليهم الاوهام الفاسدة فعبدوها ويوجد ببلاد سويجرة وجبال البيرينى مصاب عجيبة الطفها شلال نهر الران القريب من شافوز والطف من ذلك الاثنا عشر مصبا النازلة من جبل باستدارة تعرف باستدارة جوارني وهي عبارة عن حائط في شكل قوس ارتفاع دائره نحو الف ومائتي قدم وفي اعلاه الثلج دائما وفي خلاله اثنتا عشر فتحة كالطاقات تسيل منها المياه بالملامسة للحائط فلا يسمع لها الا صوت لطيف مع انها نازلة من مسافة اربعمائة واثنين وعشرين مترًا فاذا هب عليها النسيم لعب بها فيكون لها عند ذلك رؤية تسر الناظر

وتشرح الخاطر ومن اعمال الماء ايضاً مـا يعمله في بعض السنين وهو انه اذا فاض من الثلوج او الامطار والسيول يعلو البرور والشواطئ ويهجم على اراضي الوديان ويكسوها بطبقة منه ولا يرحل عنها الا وقد ترك فيها طبقة من الزبد او ما كان اتى به من الطين ونحوه وبتوالي ذلك ترتفع الارض او قاع البحيرات وبجوار المالح تحدث ارض جديدة تزيد بالتدريج بما يلقيه البحر من جوفه فيها فتسكنها الناس وتكون مديرية في ولاية او ولاية كاملة جديدة يستحوذ عليها الناس وتكسى رونق العمارة بالمزارع والمباني والمنشآت الفخيمة وما يحدث من المواد الراسبة من المياه ثلاثة انواع من الاراضي الاول في قاع البرك والثاني في الابحر المتوسطة والثالث في افواه الابحر عند مصبها في المالح وقدر الطين الراسب من نهر الرون عند مصبه كبير جدًا حتى ان مدينة برتوس بعد ان كانت على شاطئ بحيرة جنوه قبل الان بثمانية عشر قرناً صار بينها وبينه نحو الفي متر وكل حين تاخذ في الزيادة بما يلقيه النهر في البحيرة وفي الامريقا الشمالية في ارض كندا يرسب من البحيرة العليا التي هي اكبر بحائر الدنيا وهي قدر سعة اوربا بتمامها كمية عظيمة كل سنة من المواد فطمت ارضها واتسعت واستمرت آخذة في الزيادة والاراضي التي تتكوّن في مصاب الانهر تختلف بحسب الانهر فنهر الرون كوّن من رسوبه ارضا متسعة عند مصبه في البحر الرومي ويمكن قياس تلك الاراضي ومعرفة مساحتها من الاثار الموجودة الى يومنا

هذا وذكرها المؤرخون فمن ذلك برج تنيومين الذي كان بناؤه سنة ١٧٣٧ من الميلاد فانه كان فوق البحر فصار بينه وبين البحر الان الف وستمائة متر وكذلك نهر البرو ونهر الاريج اللذان يصبان في البحر الادرياتيكي فقد حصل عن مصابهما اراضي متسعة حتى ان بعض المين التي كانت تقف عندها السفن زمن اغسطس رُدمت بالطين وصارت مدينة بعيدة عن البحر عدة فراسخ وكذلك مدينة سبينا وكانت قبل الميلاد على شاطئه فصار الان بينه وبينها نحو اربعة فراسخ وخليج ايزوتروا فانه تحوّل عن مجراه الاصلي وسلك طريقًا في غربي مجراه الاصلي بنحو فرسخ وامثال ذلك كثيرة

وهناك انهار لا تحول عن مجراها ولكنها برسوب الطين في نفس المجرى تأخذ في العلو والارتفاع وترتفع شواطئها فيكون النهر دائمًا منحبسًا فيها كنيل مصر ونهر المسيسيبي ففي وقت الفيضان يكون سطح مياه النهر اعلى من سطح الارض بحيث لو انكسر جوفه لغرقت الارض وبسبب كثرة ما به من الطمي يرسب على سطح الاراضي طبقة منه فتعلو بها كل سنة وذلك هو السبب في ضياع كثير من الاثار القديمة والمباني فلو كان انصباب الانهر واقعًا في البحر المحيط عوضًا عن انصبابها في الانهر المتوسطة لدخل البحر الملح في الانهار بالمد والجزر الى بعد عظيم من النهر فلا يتمكن النهر من احداث اراضي بقرب مصبه لان البحر ياخذ حينئذٍ جميع ما تأتي به الانهر من المواد ومن تمادي هذا الفعل يأ كل مصب

النهر شيئًا فشيئًا ويدخل المالح في الاراضي ويتكون عنه خليج كبير ومينا عظيمة وقد يكون النهر قوي السرعة والحجم ويدافع عن مواده الراسبة في مصبه الا انها تتكون على التدريج ارضًا وتدخل في البحر كما شوهد ذلك في مصب نهر الكنج فانه تولد منه في البحر المالح لسان من الارض طوله نحو ثمانين فرسخا في عرض اثنين وسبعين وفي خلاله خلجان مالحة كبيرة وصغيرة وصار ارضا تأوي اليها الوحوش وكما ان الانهر تكسب الارض خصوبة وعمارا واهلها ثروة كذلك قد يحصل منها القحط وغلاء الاسعار وخراب البلاد وهلاك العباد وذلك اذا زاد فيضانها عن حده المعتاد وسبب الفيضان اما كثرة السيول واما الزلازل التي تنقلها عن مواضعها واما ذوبان الثلج الحابس لمستودع عظيم من المياه وكثيرا ما شوهد ان السيول تكسو الارض الخصبة بالاحجـــار والزلط والحصى وجذوع الشجر ونحوه فتصبح قحلة بعد خصوبتها ومثل ذلك يحصل من ذوبان الثلوج وتيارها واهل كل بقعة تعلم اسباب فيضان نهرها ولهم طرق ووسائل لوقاية بلادهم من مضاره وتحصيل منافعهم من فيضانه

ومن عجيب فعل الماء ان منه ما يقلب كل ما القي فيه سواء كان حجرًا او نباتًا او حيوانًا او غير ذلك

فقال الشيخ واين يوجد ذلك وهل تخرج تلك الاشيا عن حقيقتها الاصلية عند صيرورتها حجرًا فقال له الخواجا اما وجود

هذا الماء فكثير واما انقلاب الحيوانات وغيرها فقد كثر فيه كلام المتقدمين والمتأخرين فمنهم من زعم انها تمسخ وتنقلب حقيقتها ومنهم من قال ان تغيرها ليس الا في ظاهرها فقط وهي باقية على حقائقها وهذا هو الموافق للعقل لان في تلك المياه مواد جيرية مكيفة بحيث لو لمست شيئا لصقت به والبسته ثوبا غير ثوبه وعلى طول الايام تستحجر تلك المواد ومن هذا القبيل ما وجد بعيون نابعة جهة كليرمون وساناتالبر وساننكتير من فرانسا متى ألقي فيها شيء كسي بمادة جيرية على قدر صورته ثم يستحجر

وفي اسيا الصغرى بمدينة هير وبوليس عين بسفح الجبل من هذا القبيل يتكون عنها شلالات بسفح الجبل وكذلك بعض مياه الامطار التي تبتلعها الارض متى قابلت فجوةً في الارض او مغارات دخلت فيها وحدثت عنها اشكال عجيبة وسبب ذلك ان الماء يكون محملاً بحمض الكربون فيصادف في طريقه مواد جيرية فتحللها وتاخذها معها فمتى انصبت في مغارة او فجوة صادمت الهوا الجوي فيتصاعد حمض الكربون وترسب المواد الجيرية في هيئات كثيرة وفي بعض المغارات الطبيعية يشاهد في سقوفها اشكال على هيئة الابر نازلة الى اسفل وهي حادثة من ماء معدني نفذ في خلال احجارها فيميل الى السقوط نحو ارضها لكن يبقى معلقا زمنا قبل السقوط وفي زمن تعلقه يفعل عليه الهوا الموجود في المغارة فيتبخر ويتخلص حمض الكربون وتبقى المادة

الجيرية وكلما نزلت نقطة حصل لها مثل ما حصل لما قبلها فيزداد بذلك الحجم والارتفاع وبعد زمن تكون تلك النقط في هيئة ساق ريشة طائر قاعدتها وهي ما غلظ منها بسقف المغارة وراسها نحو ارضها وبانضمام هذه الصور الى بعضها يكون لها هيآت واشكال لطيفة وبعد مدة ينسد الثقب ويسيل الماء عليها من ظاهرها بعد ان كان يسيل من باطنها وتصير مخروطية بعد ان كانت اسطوانية وما نزل منها الى الارض يتشكل باشكال تعلو فوقها وتكون مقابلة للاولى منها ما يكون طويلاً ومنها ما يكون قصيرًا غليظا او رقيقا وبعضها يتصل بالاولى او يقرب منها حتى ان من لا خبرة عنده بذلك اذا دخل تلك المغارات ورأى تلك العمد على هذه الهيئات ظن ان ذلك من اعمال القدماآ الذين محيت اثارهم وغابت عنا اخبارهم وامثال ذلك كثيرة منها ما هو في مغارات جبال البيريني قرب بيزنسون من فرانسا ومنها ما هو بجزائر اليونان بمغارة انتباروس ومغارة حان ببلاد الفلمنك ومغارة ارسي في بلاد سفول ومغارة كردال ببلاد الانكليز وبالمديرية التي بها مغارة حان نهير صغير يجري الى ان يصل جبلاً شاهقا هناك فيسير تحته الفا ومائتي متر ثم يظهر صافيا لا كدورة فيه بعد ان كان مخملاً بالطين والمواد الارضية فالمواد التي كانت فيه شربتها الصخور التي مر عليها فكانه في سيره يمشي فوق تلك المغارة وهي مركبة من اثنين وعشرين عنبرًا

عبارة عن مغارات واولها تحت الارض بنحو خمسمائة قدم وطولها مائتان وعرضها ثلاثمائة وخمسون يقولون ان سبب تلك العنابر زلازل حصلت من قديم الزمن وفي قاع بعض البرك المعدنية حجارة عجيبة اصلها رمل يرتفع عند طغيان الماء فتلتف عليه المواد المعدنية فيثقل ويقع في القاع وياخذ في الكبر بما يرسب فوقه منها وبعد مدة يصير صخورًا ضخمة عبارة عن تجمع حجارة كروية كما رأوا ذلك في بركة ويشي وكرلسباد وفي تيفولي قرب رومة



المسامرة (١١٨)

فسحة خارج باريس

وبينما هم في الحديث وقفت بهم السفينة فنزلوا واحضر يعقوب لهم عربة فركبوا وسارت بهم وسط غابة واسعة ارضها غير منتظمة

الى ان وصلوا مدينة عالية البنا واسعة الارجآء تشبه باريز في طرقها وحوانيتها واسواقها فسال الشيخ عنها فقيل له انها تسمى باللغة الافرنجية فنتين بلُو اي العين الزرقاء ولها شهرة عند الامة الفرنساوية وذكر في تاريخهم لما فيها من الاثار الغريبة ثم وصف الخواجا لسائق العربة المحل الذي يقصدونه فسار حتى وقف ببابه وكان صاحب المنزل غائبًا فخرجت لهم زوجته وقابلتهم بالبشر وحيّتهم وادخلتهم الى محل الجلوس فاجلستهم وامرت لهم بالقهوة ثم ارسلت الى زوجها فحضر فسلم عليهم ورحب بهم وزاد في اكرامهم وقال للخواجا لقد طوقتني مننًا لا اقوم بشكرها حيث شرفت منزلي بحضرة الشيخ وولده فاجابه الخواجا بكلمات تستجلب المحبة وتجري في العادة بين الاحبة وكان ذلك كله باللغة الفرنساوية فلم يفهم الشيخ منه شيئًا فلما رأى صاحب المنزل عدم فهمه لكلامه حول الكلام الى اللغة العربية الا انها بلسان اهل المغرب لانه اقام بالجزائر عشر سنين فلما سمعها الشيخ قال للانكليزي لقد قلدتني قلائد الامتنان اذ عرفتني بمن يعرف هذا اللسان فقال له الخواجا هذا بعض ما يجب علينا وسنرى منك في بلدك ما تراه منا هنا فتبسم الشيخ وقال لانت اعلم مني باحوال بلدي

ثم التفت الى ابنه فرأى سيدة البيت تتكلم معه ايضاً باللغة العربية فقال لزوجها اظن ان الست كانت معك حين كنت بالجزائر فقال لا ولكنها ولدت بمصر ولم اتزوجها الا بعد

خروجي من العسكرية ورجوعي الى بلدي مرسيليا وهي اعلم باللغة العربية مني فقال لها هل كانت اقامتك بالقاهرة نفسها او بقرية من قراها فقالت كانت ولادتي باسكندرية وكانت بها اقامتي الاّ ان والدي كان في فصل الشتاء يتوجه الى مصر وياخذنا معه فنقيم بها مدة الشتاء بسبب متجر كان له وكثيرًا ما سافرت معه الى دمياط والمنصورة وطندتا والمولد الاحمدي وسافرت معه مرة الى الوجه القبلي ورأيت الاثار القديمة التي باسنا وادفو والكرنك فقال لها الشيخ لانت بارض مصر اعلم مني فاني لم اسافر الى الجهات القبلية بل يظهر ان علمك بتلك البلاد اكثر من علم اهلها بها فقال زوجها وكذلك كان لها عليّ حق التعليم فاني ما تعلمت الخط العربي ولا المطالعة في الكتب العربية الا منها لاني حين خرجت من العسكرية ببلاد الجزائر كنت لا اعرف الا الكلام المتعارف دون القرآءة فقال الشيخ وحينئذٍ تعرف الست القرآءة والكتابة فقالت نعم كان والدي حال صغري يرغب في تعليمي اللغة العربية فاحضر لي معلمًا فكان ياتيني كل يوم فعلمني القراءة والمطالعة وقرات عليه القران والاجرومية وشرح الشيخ خالد في علم النحو وعندي بعض من كتب العربية بخط اليد ساطلعك عليها وكان معلمي عليه الرحمة بارعًا في فن الخط فتعلمت منه الثلث والرقعة والنسخ ولكن الان ضاعت مني القاعدة ومع ذلك اكتب خطا مناسبا واغلب ما اكتبه هنا الخط

الفرنساوي فقال الشيخ هذا من اعجب المصادفات وانسر لذلك واكثر من شكر الخواجا على تعريفه بهم فقال صاحب البيت ان فرحنا بك اشد من فرحك بنا فاني مولع بحب مصر واهلها وكثيرًا ما تحدثني زوجتي باخبارها فتزداد رغبتي في التوجه اليها ولا بد ان شاء الله ان نسافر اليها ونجتمع هناك فان الست مشتاقة الى زيارة قبر اخ لها مدفون هناك بل كلما جاء الشتاء واشتد البرد وتجرّدت الاشجار من زينتها وكسيت غصونها بالثلج تحنّ الى مصر وطيب هوائها وتذكر كثرة خيرها وقناعة اهلها وما زالوا يتحادثون في هذا المعرض حتى حضرت المائدة فاكلوا ثم دخلوا البستان وطافوا في نواحيه فكانت الست تتكلم مع ابن الشيخ فتارة تصف له ما يستغربه من الشجر والنبات وتارة تحادثه في مصر واحوالها الى ان رجعوا فقال صاحب المنزل للشيخ لا بأس ان تستريح هنا من وعثاء السفر واخذ بيده وادخله غرفة مهيأة وقال له كن عندنا كما تكون في بيتك وها هو انطوان الخادم تحت امرك وطوع يدك ونادى انطوان وامره بطاعة الشيخ في كل ما يريد وكان يعرف اللسان العربي تعلمه بالجزائر فشكر الشيخ هذا الصنيع ودخل الغرفة ونزع ثيابه وطلب ماء فتوضأ وقام فصلى ثم نام فلما اصبح دخل عليه ولده وقبّل يده كعادته فقال له والده ماذا رأيت في هذا المكان وكيف صحتك فقال احمد الله على كمال الصحة ووالدي كيف كان نومه الليلة فقال من احسن ما يكون وشتان

ما بين هوآ هذه الدار وهواء مدينة باريز وان شاء الله نقيم هنا مدة فقال لابيه وماذا تصنع في الدرس الذي وظفته على نفسك فقال ان ما الا يومان في الجمعة وقد اخبرني حضرة الخواجا ان بين ما هنا والمدرسة بباريز بعض دقائق في السكة الحديدية فنتوجه للدرس ونعود مع الخواجا ففرح ابنه بذلك لانه كان يحب الاقامة بباريز لكثرة ما بها من المستغربات

ثم حضر الخواجا الانكليزي وبعد ان سأله عن صحته قال يلزم ان نقسم الايام التي نقيمها هنا على الاشياء التي تحب ان تراها فهل نجعل وقت التفرج قبل الظهر ام بعده فقال الشيخ الامر لك فانك بذلك ادرى ولكن اظن ان جعلها بعد الظهر اولى لنجعل ما قبل الظهر للمراجعة والتصحيح ووافقهم صاحب البيت على ذلك ايضاً وقال ان اكثر التفرج يكون في الغابة فتارة نمشي علي الاقدام وتارة في العربة بحسب قرب الاماكن وبعدها وتارة نستعمل الاثنين معاً وقد اخذت من الان في ترتيب الفرج وكيفيتها حتى تطلعوا على جميع ما يلزم فكانوا كل يوم يخرجون على هذا النسق وكانت تخرج صاحبة المنزل مع ابن الشيخ ويخرج زوجها والخواجا مع والده واقاموا نحو شهرين على هذه الحال حتى نسوا ألم الغربة وفراق الاهل والاحبة لان ابن الشيخ كان عند صاحبة المنزل بمنزلة اولادها خصوصاً وقد كانت تعلمه اللسان الفرنساوي وتشرح له جميع ما يقع عليه

نظره مع الفصاحة والمعرفة ولكن ما انساه حب باريز واهلهــا زيادة الا ابنة لم تسمى مريم كانت تدخل وتخرج معه وكانت ذات حسن وجمال وقدٍ واعتدال تخجل البدر بطلعتها تعلق قلبها به وتعلق بها فكانت تهواه ويهواها ويرى خيالها اذا غابت عن عينيه حتى كان اذا جاء يوم التوجه الى باريز للدرس يتعلل بتعللات موجبة للتخلف بعد ان كان لا يؤثر شيئاً على التوجه الى باريس فكان يترك والده مع يعقوب عند الست ويذهب الى الدرس فيكون تارة مع الست وتارة مع البنت ويقضي الاوقات في انواع المسرات وازداد افتتانه بالبنت وتمكنت بينهما الالفة وكان كما قال القائل

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقر به لم يطق
رأى لجة ظنها موجــــة فلمّا تمكن منهـــا غرق

وفي ذات يوم توجه والده الى باريز للدرس واخذ معه يعقوب وترك ابنه في البيت فامرت الست خادمها انطوان ان يخرج به وباولادها الى التنزه فاركبهم جميعاً عربة وسار بهم واخذ برهان الدين ومريم باطراف الاحاديث والمفاكهة ثم نزلوا ومشوا وهي تحادثه وتساله عما اعجبه في فرانسا ويجيبها وهو غريق في بحار جمالها الى ان وصلوا هضبة كسيت بالاشجار ونبع ماؤها من بين الاحجار فصعدوا عليها فكانت مريم تري برهان الدين نهر السين والبلاد التي عليه والطرق الموصلة لباريز فكان نظره في خلال وصفها لا يفارق وجهها وكذلك هي

لا تفتر عن النظر اليه كما قال الشاعر

نظر العيون الى العيون هو الذي
جعل الهلاك الى الفؤاد سبيلا

ثم وصلوا الى مخدع سقفه غصون الاشجار وفرشه انواع العشب والازهار فاطمأنوا فيه برهة ثم نزلوا من فوق الاكمة وداروا في ارجاء الغابة الى ان وصلوا فضاء بين ثلاث اكمات فصعدوا احداها فراى برهان الدين حول الغابة ارضاً منزرعة ليس فيها شيء مما في الغابة فسال الخادم عنها فقال هذه الارض كانت قبل الان مغطاة بالاشجار المرتفعة وفي كتب التاريخ ان اشجارها كانت متواصلة وكلما تنعطف الى الشمال تزداد التحاماً والتفافاً وارتفاعاً والارض الخالية من الاشجار كانت بركاً ومناقع كما قاله استرابون فكان البرد يزداد بسببها حتى يبلغ درجة يعسر معها نبت شجر الزيتون والتين والعنب ولم تكثر بها الزراعة الا بعد استيلاء الدولة الرومانية عليها فزرع بعضها وبقي بعضها غابات يأوي اليها الفارّون من ظلم الرومانيين فلما اتت دولة القوم المتبربرة وهم الالمانيون وذلك سنة ٢٥١ للميلاد واستولوا على ارض الجول قسم روءساوهم تلك الغابة بينهم وابقوها على ما هي عليه وجعلوها محلاً للصيد ومنعوا غيرهم من الصيد منها وجعلوا قصاصات شديدة على من يخالف ذلك فكان كل من قتل حيواناً يقتل فيه فكثرت بها السباع والوحوش والضباع حتى كانت تفترس الناس وتفسد

عليهم زرعهم وتهلك ضرعهم من غيران يكون في قدرتهم منعها فكان نصف الارض للوحوش ونصفها الاخر تشارك فيه الاهالي لانها كانت تسطو عليهم فتهلك الاطفال والزرع وتقطع السبيل ومن شغف الملوك والامراء بها كانوا يتهادون بها فيما بينهم فمن كان في قسمه وحش ليس في قسم الاخر هاداه به فيرسله في غابته ويخلي سبيله لينتج فيها ويكثر واستمر الامر على هذه الحال الى القرن الرابع عشر من الميلاد ثم اخذت الغابة في النقص وارض الزراعة في الزيادة وبعد ان كانت هذه الغابة وغابة وانسين وبولونيا متصلة ببناء باريز صار بينها وبينها ما ترى هذا حاصل ما قيل في هذا المكان وما كان عليه من اول الامر الى ما هو عليه الان

فقال ابن الشيخ هكذا الدهر كله عبر ولكن لمن تامل واعتبر الدهر لا يبقى على حالة فطوراً يضر وطوراً يسر



المسامرة (١١٩)

القطن

ثم رجعوا وكان برهان الدين متغيرًا مشغول الخاطر با لغرام ولما وصلوا وجد والده مع الخواجا موريس يتمشيان في طرف البستان قريب شجرة ارتفاعها نحو خمسة امتار وهي كثيرة الاغصان والورق وعليها ما يشبه القطن الهندي وكان بيد والده شيء من ثمرها فناوله لابنه وساله عنه فقال هذا يشبه ثمر القطن فقال الخواجا موريس هذه هي شجرة القطن التي تنبت في الهند والصين

فقال الشيخ ان القطن يزرع بمصر ولكن لا يكبر لهذا الحد فان غاية ارتفاعه متر ونصف او متران ومع ذلك ثمره اكبر من ثمر هذا

فقال الخواجا موريس انواع القطن ثلاثة احدها يكون شجراً كهذه ولوزه قليل ولكنه اجود الانواع والثاني النوع الهندي وهو الذي يزرع بارض مصر والثالث نوع اقصر من الهندي واغصانه تمتد على الارض ويعطي محصولاً كثيراً ثم تأمل في الحوض الذي فيه شجرة القطن فوجد النوعين الاخرين وبقربها النيل والكتان فقال هذه النباتات المباركة وردت لنا من الشرق فالنيل ورد لنا من جهات العجم ومن زمن قديم يزرع باوروبا واول من زرع الكتان المصريون كما قال مرسيانوس وفي زمن موسى بن عمران كانت اقمشة الكتان معروفة وفي زمن الرومانيين كان الممدوح اقمشة الكتان المصرية وفي جميع الجهات قبل اشتهار زراعة القطن كان لباس الناس الكتان او الصوف ولكن الان صار القطن هو المستعمل غالباً لكثرة زرعه في الجهات فبعد ان كان لا يوجد باوروبا اصلاً كثر الان حتى صار يزرع في الجهات الجنوبية من ايتاليا وفي بلاد الاندلس وجزيرة صقلية وجزائر اليونان فقال الشيخ ان اول من ادخل في مصر القطن الذي هو بها الان المرحوم محمد علي باشا وقبل ذلك كان يزرع نوع منه يعرف بالقطن البلدي كانت الاهالي تزرعه حول اراضيها وفي قطع ارض قليلة فتاخذ الاغنياء منه لكبس المساند والوسائد والطوالات وكان بعض الاهالي يغزلونه ويصنعون منه اقمشة غليظة للملابس ومما يتعجب منه ان الاهالي لم تزرع القطن الهندي الاّ

برغم انهما بعد ان عين المرحوم محمد علي باشا لذلك مفتشين وحكامًا وعين مقادير تزرع كل سنة في كل جهة وتوعد كل من تاخر في شيء من ذلك بالعقاب الشديد فكانوا يعدون ذلك اذ ذاك ظلما فلما علموا فوائده رغبوا فيه بانفسهم ولولاه ما امكنهم التحصل على ما يسددون به ما يطلب منهم للميري وغيره

فقال الخواجا هكذا كان حالنا مع اهل الجزائر وحصل مثل ذلك ايضا في جهات كثيرة وفي الازمان القديمة كانت هذه النباتة النافعة معلومة في بلاد الهند وكانت تنبت وحدها بارض مصر والشام وبلاد العجم وهي التي تكلم عليها استرابون الجغرافي وبلين المؤرخ وسمياها صوفًا حيث قالا انه يوجد في هذه البلاد الصوف على الاشجار بكثرة وكان قسيسوا مصر في زمن الفراعنة والبطلموسيين يجعلون منه الملابس الرسمية وثيابه معروفة في الهند وقد تكلم عليه المؤرخون كثيرًا وكانت العرب تتجر به الا ان اليونان والرومانيين الى اخر القرن الاول من الميلاد كانوا لا يعتنون به في الملابس بل كانوا يلبسون حسب درجتهم فبعضهم يلبس الكتان وبعضهم الصوف وبعضهم الحرير وبقيت اوروبا ثلاثة عشر قرنًا ميلاديًا لا تعرف القطن ولا اقمشته وانما كانوا يستعملونه فتائل للقناديل

وفي سنة ١٢٥٢ ميلادية ظهر ببلاد القريم والمسكوف وكان يجلب اليهم من بلاد التركستان وكان له في تلك الازمان ورش ببلاد

الارمن والعجم ولم يعرفه الصينيون الى اخر القرن الثالث عشر مع
انهم بجوار الهند ومن ذلك الوقت اشتغلوا بزراعته اشتغالاً كلياً
حتى تركوا من اجله جميع المزروعات وتسبب عن ذلك قحط لم
يسمع بمثله فصدرت اوامر سلطانية بتحديد قدر ما يزرع منه ومنع
الزيادة عليه وعقاب من تعدى بالموت فقل الاحتفال به
شيئاً فشيئاً حتى صار يزرع ما يلزم لاهالي تلك المملكة منه
وفي وقتنا هذا يشترونه من خارج مملكتهم وقد حصروا ما يتحصل
لهم من زرعه كل سنة فوجدوه خمسمائة الف بالة وذلك عبارة
عن خمسة وسبعين مليوناً كيلوجراما وهذا قليل جداً بالنسبة
لما يكفي لوازمهم فحصروا ما يرد اليهم محلوجاً من جهة الاينازوني
فوجدوه خمسة واربعين مليونا كيلوجراما غير ما يرد منها ومن
الهند مشغولاً وذلك نحو عشرة ملايين كيلوجرام فجميع محصول
زراعتهم وما يرد لهم من الخارج مشغولاً وغير مشغول نحو مائة
وثلاثين مليونا ولا شك ان هذا القدر قليل بالنسبة لهم لان
عدد اهالي بلادهم يبلغ نحو اربعمائة مليون ويؤخذ من سير
السياحين ان تسعة اعشار الاهالي من نساء ورجال يلبسون
القطن وكلهم يجعلون منه بنطلونات واسعة فاذا اعتبرنا ذلك
مع ما يستهلكه كل شخص من جهات الدنيا غيرهم يمكن
ان نحكم بان قدر القطن المصنوع في ورش الصين والوارد
من الخارج يقرب من سبعمائة وخمسين مليونا كيلوجراما اي

قدر ما يستهلكه اهل اوروبا بتمامها والايازوني من الامريكا

والى الان لا يعلم قدر ما تستهلكه اهل الهند بالضبط بل اختلف فيه المؤلفون وقدر لكل شخص من المائة والخمسين مليونا من الاهالي عشر ليورات انكليزية وبناء على ذلك جعل اللازم لهم من القطن الفا وخمسمائة مليون ليوره في خصوص الكسوة ونحوها. خلاف الاشياء التي تصنع منه

ثم ان وجود القطن في الازمان القديمة بجهات امريكا لا شك فيه والدليل على ذلك ان اكفان الموتى الذين اخرجوا من قبورهم كانت من القطن

ولما استكشف كرستوف كلومب الامريكا وجد اهلها لابسين من اقمشة القطن ولما استكشف الشهير فيرناندكورتيز ارض المكسيك وجده مزروعا بها وارسل الى الملك شرلكان هدية من اقمشتهم منه وكانت مناديل وثيابا ملونة باجمل الالوان متقنة الصنعة والصباغة وقد قيل انه كان يصنع بهذه البقعة ورق الكتابة من القطن في سالف الازمان وكذلك كان القطن معروفا عند اهالي بريزيليا كما اشار الى ذلك ماجيلان الملاح عند استكشافه البغاز المسمى باسمه ووجد السياحون شجرة القطن نابتة بنفسها بشواطي نهر المسيسيبي

فقال الشيخ وقد وقع لي بعض رسائل في هذا المعنى فرايت

فيها ان هذه الشجرة كانت معروفة ببلاد الاندلس ايام كانت في يد المسلمين وانها كانت تزرع في جهات كثيرة منها وكان لنسجه معامل في مدن عديدة منها كغرناطة وكوردو وغيرهما وكانت الاقمشة الاندلسية تساوي الشامية وربما فاقتها في الجودة وحيث كانت الاندلس من اوروبا فلا بد أن الاوروباويين انما اخذوا منافع هذه الشجرة عن الاندلسيين وقد سمعنا ممن ساحوا بافريقيـــة الداخلية وبلاد الحبشة ان القطن ينبت في ارضهم بنفسه

فقال الخواجا ان ذلك حق فان السياحين كتبوه وذكروا انه يوجد بالسواحل القريبة من افريقه مثل ارض السينيجال وغنام وغيرها

واما وجوده في اوروبا فكان في اواخر القرن العاشر وكانوا قد اخذوه عن العرب ولكن كان غير مستعمل بسبب اوهام دنيئة كانت تدخلها النصارى على الناس لكراهتهم في دين من نشر زراعته

واول ظهور معامل نسجه كان في اواخر القرن الرابع عشر من الميلاد ببلاد ايتاليا واول من نقل منه الى بلاد الانكليز تجار البندقانيين

وفي سنة الف واربعمائة وثلاثين ابتدا ظهور اقمشته ببلاد الانكليز ورغبت فيه الناس وكثرت معامله من حينئذ والى سنة

الف وستمائة واثنين وخمسين كان لا يلبسه غير الخدم والرعاع والى سنة الف وسبعمائة وثلاثة وسبعين كانوا يجعلون منسوجاتهم قيامها من الكتان واللحمة من القطن ومع ذلك لم يكثر كثرة عظيمة الا من وقت ورود محصول امريكا الى بلاد الانكليز

ومما يستغرب من امر القطن ان اول من زرعه بكثرة بامريكا للتجارة قوم مهاجرون من اوروبا استوطنوا راس فيار من ارض الغلوريد ولما رأت الاهالي نجاحه اخذوا يزرعونه واكثروا منه شيئًا فشيئًا الى ان صار اساس الزراعة بامريكا الجنوبية والشمالية واولا كانوا يزرعونه خطوطا متباعدة ثم راوا ان التقارب يفيد محصولاً اكثر فصاروا يقربون الخطوط من بعضها ويمدونه فزاد المحصول وحسن الزرع ومكثوا زمنا يفضلون في تقاويه البذر المجرد عن الوبر ثم اتضح لهم من تجاريب عديدة ان البذر المكسو بالوبر اكثر محصولا واجود لانه اكثر شعرًا واصغر بذرًا فمن ذلك العهد صاروا لا يستعملون الاّ البذر المكسو بالوبر ثم تحصلوا على نوع منه طويل الشعر ذي صلابة ونعومة فوجدوه اجود انواعه لان شعره يتصل بعضه ببعض في النسج بسهولة ويتيسر تدقيق غزله الى الغاية المطلوبة وقد تحصلوا من نصف كيلوجرام من قطن السيلان على فتلة رقيقة جدًا بلغ طولها قريبا من ثمانين فرسخا وقطن مصر من هذا الجنس الطويل الشعر والذي جلب

لهم بذره رجل فرنساوي اسمه جوميل سنة ١٨٢٠ بامر المرحوم محمد علي باشا فاتى به من دنقلا ببلاد النوبة ثم جلب بذرًا من الجويرجي من امريكا من قطن يسمى بقطن سيا اسلند اي قطن الجزائر (وقد حرفتم الكلمة وقلتم سيلان) وهو احسن الموجود المرغوب فيه كثيرًا بالفَوريقات ولذلك تزيد قيمته على غيره بنحو الربع بل اكثر

فقال الشيخ انواع القطن بمصر كثيرة مختلفة لونًا وحجمًا فمنه الاسمر والابيض والاصفر والاهالي لا تفرق بينها بل كل يبذر بارضه ما تيسر له من غير تحرٍّ ولكن الان ابتداؤا ان يميزوا بين الانواع وتنبهوا لزرع السيلان وكثير منهم لا يزرع الا ما لبذره وبَرٌ لما راوا من فائدته وتركوا البذر الاسود لانه قليل المحصول وسمعت من بعض الناس ان القنطار من ذي البذر الاسود اذا حلج يخرج منه تسع كيلات بذرًا ومن ذي الوبر خمس ووزن البذر الثلثان والشعر الثلث

فقال الخواجا ان الوان الاقطان النابتة بسواحل الكارولين الجنوبية والجويرجي تميل الى الصفرة بخلاف النابت داخل ارض تلك الجهات فانه ابيض ناصع واقل من الاول جودة لقلة صلابته فلا يتحصل منه على الغزل الدقيق ولون اقطان الهند يقرب من لون الزبدة الطرية واما اقطان الجهات المشرقية كقطن بنغال ومدراس وازمير ورودس وسالونيك فضعيفة اللون باهتة وقد

حللوا ببلاد الانكليز تراب عود القطن وبعد حرقه وجدوا في المائة جزء اربعة وستين جزءا من المواد القابلة للذوبان في الماء وهي ٨٨و٤٤ كربونات البوتاسة وعشرة اجزاء موريات البوتاسة وتسعة اجزاء سلفات البوتاسة ووجدوا الباقي وهو ستة وثلاثون جزءا لا تذوب في الماء وهي تسعة من فوسفات الجير واحد عشر كربونات الجير وثمانية عشر فوسيفات المغنزيا وثلاثة اجزاء بروتو آكسيد الحديد والباقي من الشب وبناء على هذا التحليل يظهر سبب جودة خواصه في سواحل الجزائر المحاطة بالبحر الملح وفي بعض الجزائر يسمدونه بالطين المخرج من قاع البرك المالحة كالطين الذي يخرج من قاع بركة المنزلة مثلاً وفي جهة الكارولين يستعملون في السباخ الجير او الطين الذي يرسب في قرار البرك والخلجان بعد نضوب مائها

فقال الشيخ الاهالي عندنا كانوا لا يعرفون امر تسبيخه والان عرفوه واستعملوا لذلك اتربة التلال القديمة وما يخرج من تحت البهائم وحقيقة وجدوا لتسبيخه فائدة عظيمة

ثم قال الخواجا وشجرة القطن تعيش في الهند اربع سنين او خمسا وفي الاتازوني سنة واحدة وابتداء جنيه اول شهر سبتمبر ويستمر الى اخر السنة فاذا جاء الثلج مات لوزه وكلما قلت صعوبة الشتاء وقصر زمنه كان محصول القطن كثيرًا واذا فتح اللوز رايت كأن الارض مستورة بثوب ابيض والعبيد هم الذين يجمعونه من

روؤس اشجاره فيشتغلون من الصباح الى المسا ويرخص لهم في ترك الشغل ساعة وقت الزوال للاستراحة والاكل وذلك في غير وقت الصيف ففيه يرخص بساعتين ويرخص لهم ايضاً بالذهاب الى منازلهم لياكلوا فيها ويعطى لكل عبد مقدار من الذرة او من الارز ومقدار من العسل والسمك ولحم الخنزير ويوءذن لهم في اخذ بعض فواكه من الاشجار ومدة بذره تستمر من اول شهر مايو الى نصفه وبعد تمام زرعه يشتغل العبيد ايضاً بتنقيته من الحشائش الغريبة والشغل عندهم بالمقطوعية ويعطى لكل عبد قطعة ارض يزرعها ما شاء وينتفع بما يخرج منها اما ببيعه لسيده او انه يرعى فيه ماشيته وفراخه وما اشبه ذلك ومن ذا يتحصل العبد على بعض دراهم يشتري منها ملابسه وما يلزم له فجميع اشغال القطن على العبيد فلذا يقتنون العبيد بكثرة فقد يجتمع عند بعضهم نحو الفي عبد فتراهم عند توجههم الى الشغل يكونون فرقاً الفرقة عشرون عبداً او عشرة وعلى كل فرقة رئيس منهم او من غيرهم فان كان منهم كان شديد القسوة ويخافونه والمفروض على الرجل منهم في كل يوم ان يجمع مائتي ليورا وعلى كل صبي من ثلاثين ليورا الى اربعين وكل ما جمع يوضع بالمخزن عند غروب الشمس

وكان الناس في مبداء الامر يفصلون الشعر من البذر بايديهم فكان الشخص الواحد يفصل في اليوم ليورا واحدة من الشعر ووزن البذر ثلثا وزن الاصل

ولما رأوا صعوبة ذلك اخترعوا دواليب الحلاجة وبها تمكن الرجل ان يحلج في اليوم الواحد ثلاثين كيلوجرام ثم اخترعت الات تدور بالحيوان او بالماء فصار يحصل بواسطة ثلاثة أشخاص اربعمائة وخمسون كيلوجرام في اليوم الواحد ثم في سنة ١٧٦٣ اخترعت الآت احسن من تلك واستعملت الى الان في جميع امريكا الجنوبيـة

وبعد انفصال الحب من الشعر ينقون الشعر مما خالطه من الاجسام الغريبة بنتفه في دواليب اسطوانية تدور بسرعة ثم يكبسونه بمكابس في اكياس تجعل بالات وينقلونه في مراكب بنهر المسيسبي الى اورليان الجديدة وهناك كل من لهُ شيء يضع عليه اسمه ونمرته وهكذا فمن يرى المدينة من بعد يراها كأنها مدينـة من القطن مقسومة حارات ممتدة مسافة عظيمة

وقد علم من دفاتر الاحصاء ان قدر العبوّات المتحصلة من زراعة جهات الجنوب كل سنة خمسة ملايين بالة

فقال الشيخ هل يمكن معرفة مقدار القطن المتحصل من كل بقاع الارض

فقال الخواجا يوخذ من دفاتر الاحصاء سنة ١٨٥٨ ميلادية أنه تحصل ١١٤٠٠٠٠٠ بالة ووزن البالة يختلف من مائة وثمانية وستين كيلوجرام الى مائة وسبعين اي وزن محصول سنة ١٨٥٨ كان ١٩٣٦ مليونًا و٦٧٥ الف كيلوجرام وبيانه

كيلـــوجرام	محصول
٥٨٨٬٠٠٠٬٠٠٠	الاينازوني
٣٣٬٠٠٠٬٠٠٠	البريزل
٩٬٠٠٠٬٠٠٠	جهات من اميريكا الجنوبية
٤٤١٬٠٠٠٬٠٠٠	الهند الشرقي
٧٥٠٬٠٠٠٬٠٠٠	بلاد الصين وبلاد سيام
٣٩٬٤٥٠٬٠٠٠	بلاد مصر
١٨٠٠٠٠	بلاد الجزائر
٤٥٠٠٠	سياراليونا من افريقا
٥٠٬٠٠٠٬٠٠٠	بلاد التركستان والقرني
٣٠٬٠٠٠٬٠٠٠	جهات من افريقا
٦٬٠٠٠٬٠٠٠	اوروبا الجنوبية
١٩٣٦٦٧٥٠٠٠	كيلوجرام

واول ظهور قطن امريكا ببلاد الانكليز كان في سنة ١٥٦٩ واكثر من اشتغل به اهل مدينة منشستر فهي المركز العمومي لصناعة القطن وتجارته في جميع بلاد الانكليز وبعد ان كان عدد اهلها في القرن السابع عشرين الف نفس اتسعت حتى بلغ اهلها الان زيادة عن اربعمائة الف نفس وابتداء صنعة القطن بها سنة ١٧٨٩ ايام ثورة الفرنسيس الاولى ومن ذاك العهد اخذ يظهر في المدن المجاورة وفي مدة قليلة كثرت ورشه وصارت تلك البلاد مدنا

عظيمة بعد ان كانت قرى صغيرة لا يلتفت اليها وبلغ اهلها من الثروة اعلى درجة وفي مبداء الامر كانت انواله متفرقة في جهات كثيرة وكان كل صاحب نول يشتري لنفسه ويتجر بمصنوعه فكان يحصل لهم تعطيل وضياع اوقات فتيقظت اهالي منشستر الى ذلك وتحيلت حتى احتكرته وصار فيها الان نحو مائتي ورشة تدور كلها بالبخار وعدد الشغالة يبلغ الفا وخمسمائة نفس في الورشة الواحدة ويوجد غير ذلك مائتا ورشة للغزل فقط وهذا غير ورش كثيرة بالضواحي ولو حصرنا الورش الموجودة في المدينة وضواحيها مع جميع الورش المختصة بالغزل والحياكة في جميع بلاد الانكليز لوجدنا الثلاثة الاخماس لهذه المدينة ويتحصل من اثمان ما يصنع فيها ويوزع على جميع الجهات والاقاليم نحو الف مليون من الفرنكات كل سنة ومقدار ما يدخل في ورشها من القطن الشعر كل سنة مائتا الف طن اي اربعة ملايين واربعمائة الف قنطار مصري وجميع ذلك وارد من مدينة ليوربول لانها المينا العمومية لهذا الصنف وكانت الورش في بادئ الامر تدور بالحيوان ثم كثرت الاختراعات لتسهيل صنعته ولم توجد الوابورات الا سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٢٣ فناب الوابور مناب الآلات القديمة جميعها وقبل كثرة زراعته بامريكا كان يرد لمعامل اوروبا من الهند التابع للانكليز ومن الاندلس ومن نابولي من ايتاليا ومن المرتينيك وغواديلوب التابعين لفرنسا وقبل قليل كان يجلب من جزيرة صقلية

وبعد اشتهاره بامريكا تركت اكثر هذه البلاد زرعه لكثرة تكاليفه ورخص الوارد من امريكا لقلة المصرف عندهم لان عبيدهم تشتغل تقريبًا بلا اجرة والجهات التي تزرعه الان الهند الانكليزي ومصر والدول المجنمعة من امريكا وجهات من بلاد المشرق

فقال الشيخ على حسب ما نسمع ببلادنا ان اكثر الاقمشة الواردة الينا ولسائر جهات الدنيا هو من ورَش الانكليز وجزء قليل من ورَش الدول الاوروباوية وذلك يقتضي ان يكون عدد الورَش بتلك المملكة والشغالة بها شيئاً كثيرًا جدًا

فقال الخواجا قد استحوذ الانكليز على جميع انواع التجارة لا سيما تجارة القطن ففي سنة ١٨٠٠ حرّر كشف بامر البرلامنتو اتضح منه ان الورَش بالمملكة كانت الفاً وتسعمائة والشغالة ٣٣١ الف شخص وان ما يرد لهذه الورَش من قطن الشعر ٢٧٧ مليون كيلوجرام ويخرج منها اقمشة وغزل ٢٤٧ مليون كيلوجرام يباع منه على البلاد الاجنبيـة ١٧٤ مليون كيلوجرام ويستهلك في داخل البلد على الاهالي ٧٣ مليونًا باعتبار ان كل شخص يستهلك كيلوغرامين ونصفا وفي تلك الازمنة كان جميع ما يخرج من بلاد اوروبا لا يعدل عشر ما يخرج من بلاد الانكليز فكان ما يخرج من بلاد فرانسا ستة ملايين كيلو ومن بلاد السويس سبعة ملايين ومن باقي اوروبا مليونين فقط ومع ذلك فلم تقف الانكليز عنده بل اجتهدت كل الاجتهاد حتى صار عدد الورَش سنة ١٨٥٦

الفين ومائتين وعشرة وكانت القوة المستعملة في اداراتها ٩٧ الفا و١٣٣ حصانا منهـا بالبخار ٨٨ الفا وبالماء ٩١٣٣ وهذه القوة تعادل مليونا ونصفا من الرجال وقد بلغ عدد الشغالة بالورَش في تلك المدة ٣٨٠ الف نفس نساء ورجالاً صغارًا وكبارًا والمشتغلون بتجارته بانواعها ببلاد الانكليز يقربون من مليونين اي جزء من اربعة عشر جزءًا من الامة الانكليزية وما من يوم الا وتظهر ورَش جديدة ويزيد ما يصنع بها ومن ثم ترى الاجتهاد متزايدًا في جلب القطن الشعر الى الورَش ففي سنة ١٨٥٧ بلغ الوارد لها اربعمائة مليون كيلوغرام صنع منه ٣٦١ مليونا اقمشة وخرج منه غزل ٨٥ مليونا والباقي وهو ١٨٤ مليونا صنع شيئا وغيره وخرج للتجارة واستهلك في البلد ٩٢ مليونا وتحصل من ذلك ١٤٣٨ مليون فرنك وقدّر بعض العارفين قيمة جميع ما صنع من القطن ببلاد الانكليز سنة ١٨٥٦ بنحو ٦٥ مليون جنيه يخرج منها قيمة القطن الخام المشترى اربعة وعشرون مليونا فيبقى للربح والمصاريف نحو اربعين مليونا وقد قارن بعض المهندسين بين عمل الآلات والادمي فوجد انه لو بقي الامر في صناعة القطن على عمل الرجال للزم لذلك واحد وتسعون مليونا من الرجال وذلك قدر اهالي فرانسا والبروسيا والنمسا واحصى بعض المؤرخين جميع ما يصنع من القطن بجهات اوروبا فوجد ما يصنع منه ببلاد الانكليز مليون ونصف مليون بالة وفي فرنسا ٣٣٦ الف بالة

وفي بلاد الفلمنك وبلجيك ٥٩ الف بالة وفي باقي بلاد اوروبا ١٤٧ الف بالة وفي المانيا ٣٤٩ الفا وفي الروسية ١٢٠ الف بالة فجميع بلاد اوروبا لم تصنع الا ثلاثة اخماس ما تصنع بلاد الانكليز

وفي سنة ٥٧ كان مصنوع بلاد الانكليز ضعفي مصنوع جميع بلاد اوروبا تقريبا لانه كان الوارد في هذه السنة الى جميع بلاد اوروبا من جميع الجهات قريبا من ثلاثة ملايين من بالات قطن الشعر وفي السنة المذكورة كان محصول الايتازوني وحدها ثلاثة ملايين من البالات نصفه يسافر الى الانكليز والربع يبقى في البلد يصنع في فوريقاتها والربع يوزع على سائر جهات الدنيا وقد امعن بعض المؤرخين النظر فيما يرد للانكليز من بلاد الايتازوني فوجده آخذاً في النقص عندهم وفي الزيادة في باقي الجهات مثلاً وجد متوسط الداخل الى بلاد الانكليز في مسافة سنتين من ابتداء سنة سبعة وعشرين ٥٩٦ جزءا من الف من محصول الايتازوني والموزع على الدنيا جميعها اربعمائة واربعة اجزاء من الف وفي السنين الخمس التالية الى سنة ٣٨ كان وارد الانكليز ٥٦٥ والموزع على الدنيا ٤٣٥ وفي السنين الخمس كان وارد الانكليز ٥٣٨ والموزع على الدنيا ٤٦٢ ومن سنة ٤٥ الى سنة ١٨٥٠ كان وارد الانكليز ٥٠٦ والموزع على الدنيا ٤٩٤ ثم من سنة ٤٨ الى سنة ٥٠ كان داخل الانكليز ٤٨٧ والموزع على الدنيا ٥١٣ فيعلم من ذلك ان صناعة القطن اخذت في التقدم في

جميع جهات الدنيا وقد نسبوا الوارد من القطن لفرانسا الى الوارد منه الى الانكليز فوجدوا النسبة بينهما كنسبة مائة الى ٤٧٩ ونسبوا ما تصنعه الايتازوني في ورشها الى ما يصنع في ورش فرانسا فوجدوه كنسبة ١٧٢ الى ١٠٠ ونسبة المستهلك في ورَش الانكليز الى المصنوع في ورَش الايتازوني من محصول تلك البلاد كنسبة ٢٧٣ الى ١٠٠ ونسبة المصنوع في الايتازوني الى المصنوع في اوروبا كنسبة ١٠٠ الى ٤٥٣ ومن سنة ٥٠ الى ٥٧ ورد ثلثا محصول الايتازوني الى الانكليز والثلث لجميع جهات اوروبا منه الى فرانسا ثلثه وثلثاه لباقي اوروبا ومن تامل حركة الورش وقوتها ببلاد الانكليز حكم بان في قدرتها ان تكفي جميع اهل الدنيا وليس في طوق دولة من الدول مشاركتها في تجارة هذا الصنف وصناعته لانها باستعداد ورَشها وكثرة مراكبها وقوة الاتها يمكن لها ان تنقص السعر حتى لا تتجاسر دولة على مجاراتها مع ان مدة الشغل عندهم عشر ساعات ونصف بخلافها في الدول الاخر فانها اثنتا عشرة ساعة بل ثلاثة عشر وفي سنة ١٨٥١ كان قدر المصنوع من القطن باوروبا والايتازوني ٤٨٥ مليون كيلو وقيمة ذلك بلغت ثلاثة الاف مليون فرنك فزاد قدر المشغول سنة ٥٧ حتى بلغ سبعمائة وخمسين مليونا وبلغت قيمته اربعة الاف مليون من الفرنكات من ذلك قيمة القطن الخام ثمانمائة مليون من الفرنك وقدر

ربا المال المنصرف ثلثمائة مليون فيبقى للارباح والاجر المتنوعة ٢٩٥٠ مليونًا من الفرنك

ومقدار الشغالة بورش اوروبا والايتازوني ١٣٥٠٠٠٠ نفس وباعتبار اجرة الشخص في السنة الواحدة خمسمائة فرنك يكون المدفوع للشغالة كل سنة ٦٢٥ مليونًا من الفرنك

ومن حين انتشار هذه النباتة والتفات الناس اليها قل زرع الكتان والتيل وصار اغلب الملابس والفرش منها بواسطة الالات المخترعة للغزل والنسج حتى وصل سعرها الى قيمة واهية ولذلك تمكن الفقير من شرا مايقيه البرد بادنى القيمة وانتفع بذلك عموم الناس لانا نعلم في التاريخ انه في سنة ١٨١٦ كانت قيمة الكيلو ١٢ فرنكًا وفي سنة ١٨٣٤ نزلت الى ستة فرنكات ثم في سنة ١٨٥١ نزلت الى ثلاثة فرحم الله من عرّف الناس بشجرة القطن ومن علمهم زرعها وصناعتها وعلى الاوروباويين ان يشكروا فضل العرب اناء الليل واطراف النهار فانهم هم الذين نقلوهم من خشونتهم الى السعادة التي هم فيها الان



المسامرة (١٣٠)

الثمار

ومن حقق النظر في الاشجار والنباتات المغروسة في هذا البستان وجد اكثرها انما وصل الى هنا من بلاد العرب او من بلاد المشرق بواسطة السياحين مثلاً شجرة البرقوق هذه اصلها من الشام من ارض دمشق وقد تكلم عليها بلين المؤرخ فذكر ان اول دخولها في ايتاليا كان زمن قاطون وانها باوروبا انواع منها الاصفر والاخضر وما بعضه اصفر وبعضه احمر وتارة تكون كروية وتارة مستطيلة وتوكل طرية وناشفة ويسمونها القراصية وهي تجارة عظيمة لجهات كثيرة من ارض فرانسا وكذلك شجرة الكريز المعتدلة القد الملساء الجلد واردة من جهة سيرازونه

من الشام الى رومه ايام القيصر لوكولوس قبل المسيح بثمان وستين سنة وإنتشرت في ظرف خمس وعشرين سنة بجميع جهات اوروبا وإنتقلت من ايتاليا حتى وصلت جزيرة الانكليز الباردة والان يوجد منها انواع كثيرة وعند اثمارها تجد عناقيدهــا مدلاة نحو الارض نابتة من جدور الاوراق تجذب اعين الناظرين بلطيف لونها ومنها نوع عظيم الساق يبلغ في الطول عشرة امتار عنا قيده سود ويستخرج منه شراب الكرز وشجرة اللوز الموجودة في جميع جهات اوروبا اصلها من بلاد افريقا ومنها الحلو والمر ويستخرج منهــا دهن اللوز وهي مغذية ومبردة وتدخل في الطب ويوجد دهن اللوز بجميع الاجزاخانات

واما شجرة الخوخ فاصلها من بلاد الفرس ويوجد منها ثلاثة انواع نوعان على ثمرها وبرة خفيفة والثالث لا وبر على ثمره واخذنا من الارمن شجر المشمش

واما شجر التفاح والكمثرى والسفرجل والمشملا فهي تنبت بطبيعتها في بلادنا وليست مجتلبة من الجهات ومن التفاح نوع حريف الطعم يستعمل في بعض جهات فرانسا بدل العنب ويستخرج منه شراب يسد مسد النبيذ ومن الكمثرى انواع كثيرة منها نوع يستخرج منه الشراب والسفرجل اصله من جزيرة بريد وهذه الشجرة الصغيرة المسماة بالقشطة واردة من امريكا الجنوبية والتين من البلاد المشرقية وكان ابتداء وروده في الجهات الجنوبية من فرانسا قبل

المسيح بستمائة سنة والذي غرسه هم الفينيقيون حين توطنوا مرسيليا ثم تنوع انواعاً كثيرة ويؤكل اخضر وناشفاً والتجار يرسلونه الى جميع جهات الدنيا واصل شجرة البرتقال هذه من الصين والهند وهو انواع كثيرة ومنها اليوسف افندي ويزرع في الاندلس من زمن مديد وغالب هذه الخضراوات وهذه الرياحين الزكية نقلها السياحون الى اوروبا الا انهم تفننوا هنا في زرعها حتى كثرت انواعها

المسامرة (١٣١)

العنب

واعظم الشجر عندنا نفعاً والذه طعماً شجرة العنب هذه ومنبتها الحقيقي بلاد الجرجستان نبتت فيها بالطبيعة في صخور الجبال

الشامخة مثل جبال القوقاز وجبال ارارات وجبال توروس، وهو الان يزرع في غالب اقطار الدنيا ولكن منه ما يزرع للتفكه رطباً ومنه ما يجفّف واغلب جهات اوروبا وامريكا وبعض الجزائر يستخرجون منه النبيذ والمشروبات الروحية وليست خواص النبيذ واحدة بل متفاوتة طعماً ورائحة وتأثيراً على حسب الارض والهواء وكيفية زرعه وعصره وقدر الارض المشغولة بزرعه في فرانسا مليونان هيكتارًا وهو عبارة عن خمسة ملايين فدان مصري وبحسب الرغبة في النبيذ الفرنساوي رغب الاهالي في زيادة زرع العنب واتسعت متاجره حتى سار الى جميع بقاع الأرض وقدر ما يتحصل من عصير المزروع منه بفرانسا يبلغ ستة واربعين مليونا هيكتولتر (مائة لترا) من النبيذ الاحمر والابيض ومليون و ربع من العرقي وكل ذلك قيمته تبلغ اربعمائة وستة وسبعين مليونا من الفرنك وبهذا السبب تعد مملكة فرانسا اول مملكة بالنسبة لزرعه ويوجد منه ببلاد الاندلس والبرتغال وايطاليا انواع مقبولة عالية الاثمان ولكن نبيذها العادي لا يفوق النبيذ العادي الفرنساوي وفي بلاد النمسا والمانيا والموسكو والفلمنك وامريكا يزرع العنب ويستخرج منه النبيذ غير ان الزائد عن لزوم الاهالي قليل جداً وفي هذه الايام الاخيرة صار تجربة زرعه في جهات الجزائر فنجح نجاحا تامـا فاتّسعت زراعته وحصل لزراعه ارباح عظيمة خصوصا لما ظهر لهم في نبيذه من الخواص الجيدة فلذا ترى اهل اوروبا وغيرهم يرغبون فيه

وعمليات استخراجه اربع الاولى تقطيع العنب قطعا صغيرة ثم يعصر بين اسطوانتين من حديد تدور كل منها على الاخرى والعملية الثانية تصفية المائع الخارج وذلك بعد تركه ثمانية ايام حتى يتخمر ثم يصفى في براميل ولا يملأ البرميل بل يوضع فيه الى نحو اربعة اخماسه ويترك حتى يصفو ويرسب تفله وهـذه العملية تكون في شهري مايو وابريل وربما استعانوا على كمال صفائه بقليل من الهلام او بياض البيض هذا هو النبيذ الجاري بيعه بين الناس سواء كان ابيض اواحمر والنبيذ الابيض يتحصل من الاحمر ولا تختلف طرق عمله الا بفصل المائع عن التفل في اول الامر وقت الدوس ولا يترك ليتخمر معه بل يجري تخميره وحده فيكون ابيض لان المادة الملونة ليست حينئذٍ في العصارة وكذلك النبيذ المعروف بالشمبانية وانبذة اخرى يحصل عند فتح قارورتها فرقعة فطرق استخراجها كما وصفنا مع اختلاف قليل وانما عند ملء القارورات يضعون في كل قارورة قطعة من السكر النباتي ثم يحكمون سدادها فيتخمر بالسكر بعد عدة اشهر ويزيد النبيذ جودة ويحدث منه في القارورة جزء كبير من غاز الكربون فهذا هو سبب الفرقعة التي تسمع واعلى انواعه واغلاها مـا عصر بعد التذبيب والجفاف لانه بذلك يقل ماؤه وتكثر مادته السكرية

المسامرة (١٣٣)

شراب التفاح والكمثري

وطريقة استخراج شراب التفاح تقرب من طريق استخراج نبيذ العنب واكثر استعماله في البلاد التي لا ينبت بارضها العنب ويغلو فيها سعر النبيذ وكان العرب مدة اقامتهم بالاندلس يستخرجونه فتعلمه منهم سكان المديريات المجاورة لهم من فرانسا مثل اهالي توار وغيرهم وقال بعضهم انه كان معروفا من زمن قديم وفي بعض الكتب ان الملكة رادغوند ملكة فرانسا كانت تشربه دائما وكانت في القرن السادس من الميلاد والمحقق انه لم يظهر بجهات النورماندي في فرانسا إلا في القرن الرابع عشر وكان مشروبهم قبل ذلك البيرا

فلما قام مقامها شربه غالب اهل فرانسا ومنها وصل الى الالمانيين والانكليز والروس وامريكا حتى بلغ مقدار المستخرج منه في السنة الواحدة ثمانية ملايين هيكتولتر وقيمة ذلك ستون مليونا من الفرنك

وانواع التفاح المستعمل في ذلك ثلاثة الحلو السكري والحامض والغض وهو الذي يستخرج منه احسن الاشربة ويبقى زمنًا بخلاف المستخرج من النوعين الاخرين فانه لذيذ الطعم ولكنه قليل البقا

وليس في عمل هذا الشراب صعوبة فانه بعد جمع التفاح يترك نحو ستة اسابيع حتى يتم نضجه وتكثر مادته السكرية ثم يهرس في معاريس كبيرة ثم يوضع في الهواء كيانا اربعا وعشرين ساعة فيكسبه الهواء اللون الكهربائي ثم يعصر ويوضع في براميل قائمة يخمّر فيها ويخلص من المواد الباقية فيه فبعضها يرسب في القاع لثقله وبعضها يعوم على السطح لخفته فاذا خلص من ثقله صبّوه من حنفيات في براميل ليتم تخميره فيها ثم يستعمل

ومن الشراب ما يستخرج من الكمثرى واستخراجه كالذي قبله الا انه يبقى لهُ لون البياض الحاصل من عصر المواد بعد هرسها من دون تعريضها للهواء وهذا الشراب كلما عتق كان اشد اسكارًا من جميع الانبذة

واما المشروبات الالكولية مثل العرقي والكونياك والكرش والجن فتستخرج من النبيذ والسكر والبنجر (اي الشمندور) ونحو ذلك ويستخرج منها انواع اخر من المشروبات ولا حاجة لنا الى

شيء من ذلك لانها تمنعنا عن الاطلاع على باقي ما هو في هذا البستان من انواع النباتات الغريبة وايضا فمعرفة عمل المشروبات الروحية لا تخصكم في شيء

فقال الشيخ لا يلزم من العلم بالشيء استعماله ولا يخفى عليكم قولهم العلم بالشي ولا الجهل به فحيث تكلمتم على كيفية استخراج النبيذ فلا باس بشرح عمل الالكول ونحوه

المسامرة (١٣٣)

الكوءل

فقال الخواجا الالكول مائع يوجد في تركيب السكر ويخلص منه بالتخمير مثلاً لو اذبنا قطعة سكر في قدح واضفنا اليها بعض

شيء من خميرة البوزة ثم تركناه في مكان درجة حرارته ٣٠ او ٣٥ او في الشمس مدة قليلة رأينا المائع قد اضطرب وتصاعد منه غاز يكون قليلاً في اول الامر ثم يزداد شيئاً فشيئاً ثم ينقطع بعد عدة ايام فاذا صفي وركز حتى يهدأ وذقناه فانا نجد الطعم طعم الشراب والرائحة رائحة النبيذ ولا نجد للسكر اثراً فلو قطرناه بالانبيق لتحصلنا منه على مائع طيار ولا لون لهُ يقبل الالتهاب فهذا هو الالكول وهو يستخرج من كل ما فيه مادة سكرية كعصارة العنب والتفاح والكمثرى والكريز ونحو ذلك وهذه لا تحتاج لوضع خميرة فيها لان في ضمن تركيبها مادة ازوتية متى مسها الهواء انقلبت الى خميرة وتحللت المادة السكرية التي في العصارة الى الالكول واذا تقطر النبيذ او البوزة او نحوها من الانبذة يتحصل مائع تختلف فيه كمية الالكول بكثرة الماء وقلته فان قطرناه مرة ثانية قلت كمية الماء وزادت كمية الالكول وهكذا

وللمشروبات الروحية اسماء مختلفة في التجارة بحسب مقدار الالكول الموجود فيها فما كان الكوله النصف او اقل قيل لهُ عرقي وما كان الكوله اكثر قيل لهُ روح فالعرقي عبارة عن ماء ممزوج بالالكول والالكول الخالص هو المجرّد عن الماء بالكلية ولا يتحصل عليه الا بعد تقاطير عديدة وهو عديم اللون اكثر ميوعة من الماء يلتهب منه الفم رائحته لطيفة ولهبه باهت ضعيف الضوء

وانواع العرقي وخواصه تختلف باختلاف المادة المستخرج من عصارتها واحسنه المستخرج من عسل القصب او العنب او الكريز واقل منه جودة المستخرج من التفاح او الكمثرى او الحبوب وقيمة العرقي تختلف باختلاف درجة الالكول وتميز هذه الدرجات في التجارة باستعمال آلة بسيطة عبارة عن قضيب من الزجاج عليه علامات وارقام اولها الصفر واخرها مائة وفي اسفله كرة من الزجاج فيها زئبق فاذا اريد معرفة مقدار ما في المائع الروحي من الالكول فتغمس الالة في المائع وتترك فتقف عند درجة من الدرجات التي في القضيب فان وقفت عند رقم من هذه الارقام علم ان المائة جزء من المائع تشتمل على اجزاء من الالكول بقدر ذلك العدد وهذا في الحجم لا في الوزن وان الباقي ماء عادي وتلك الالة تسمى مقياس الالكول وعند الفرنج تسمى الكولومتر ولاجل تقسيمه غمسوه اولاً في الالكول الخالص من الماء ورقموا عليه عدد مائة ثم غمسوه في مائعات درجتها اقل بخمسة ثم بعشرة ثم بخمسة عشر وهكذا فعرفوا درجة ٩٥ و ٩٠ و ٨٥ و ٨٠ و ٧٥ و ٧٠ وهكذا

ويقال ان اختراع المشروبات الروحية كان من الملك لويز الرابع عشر عند هرمه لاجل انتعاشه وعود قوته وجميعها عبارة عن عرقي سكري مختلط بمواد عطرية مثلاً الماء الذي تسميه الفرنج ابزيت هو عبارة عن الكوئل وماء وسكر ينقع فيه من غصون هذه النباتة الصغيرة التي اصلها على ما يقال من مصر وتخرج في ايتاليا

وتزرع الآن في جهة من فرانسا وما يسمونه كاسيس هو عرقي وسكر وفاكهة ويصنع ايضاً شراب يدخله نوى المشمش او الخوخ او البرقوق والشراب المعروف بشراب الكوراثا يوخذ من عرقي قديم ويوضع فيه قشر برتقان مع اضافة مقدار من السكر اليه وشراب الابسنت حاصل من جعل زهر الشيبة او ورقها في الالكول ثمانية ايام ويضاف الى ذلك لاجل التقطير حب الانيسون او غيره وهو من السميات يقتل عند الاكثار منه



المسامرة (١٣٤)

البوزة او (البيرا)

واما البوزة (البيرا) فقد اتفق المؤرخون على ان المخترع لها في الزمن القديم المصريون وقيل ان اول استعمالها كان بمدينة

بيلون المعروفة عندكم بالطينة وهي من زمن مديد شراب اهل الجهات الشمالية من فرانسا والانكليز وجميع الممالك الشمالية يستعملونها كثيرًا ومقدار ما يستهلك بلوندرة من هذا الصنف كل عام مائتان وخمسون مليونا من الليتر وبباريز مقدار ذلك اربع عشر مرة وهي من بين الخمور تشتمل على خاصتين التغذية والتنبيه وقد امتحنها بعض مشاهير الكيماويين فوجد في كل مائة جزء منها ثمانية واربعين جزءًا من مادة جامدة مركبة من مواد ليست ازوتية كالنشا ومن مواد اخرى ازوتية كالتي في الحبّ المستعمل فيها فلذلك يحصل لمن يشرب من جيدها غذاء بقدر ما يحصل له من اكل ثمانية واربعين جراما من الخبز اي ستة عشر درهما

وطريقة عملها ان يوضع حب الشعير في حياض مبنية ويوضع عليه من الماء قدر حجمه اربع مرات ويترك الى ان ينتفخ فينقل من الماء ويوضع في اماكن فيها هواء درجة حرارتها من خمسة عشر الى ستة عشر حتى تنبت واحسن الفصول لصنعها فصلا الخريف والربيع فما صنع منها فيهما فهو المقبول عند الناس اكثر مما صنع في غيرهما فاذا نبت اخذ وجفف سريعا كي لا يذهب نشاؤه ويكون تجفيفه اما بوضعه في الهواء او في محل يمرّ عليه هواء حار لطيف ثم اذا تم التجفيف يفرك وينخل نخلا يفصل به الحب من النبات ثم يدش دشا خفيفا وبعد ذلك يوضع في حياض من الخشب بعضها فوق بعض في كل حوض خرق يصب في الاخر ثم يصب عليه

في الماء فبواسطة تلك الخروق يسهل مرور الماء في المادة وينفصل عنها ولكن في ابتداء العملية تكون الخروق مسدودة ويصب على المادة ماء حرارته ستون درجة مثينية وتقلب وتدلك وتترك حتى تهدا ثم بعد ذلك يصب عليها ماء حرارته تبلغ تسعين درجة ويصنع بها كما سبق حتى يسخن الجميع وتكون درجة حرارته سبعين او خمسا وسبعين ثم يقلب ويدلك ونغطى الحياض وتترك ثلاث ساعات تقريبا ففيها يكتسب الماء جميع ما يلزم ان يكتسبه من المادة السكرية التي في الشعير فيوءخذ حينئذ ويغلى مع عروق النباتة المعروفة بحشيشة الدينار واوراقها لتكتسب المرارة والخاصة التي تبقي بها زمنا بدون تغير شيء من صفاتها ثم بعد تلك العملية ينقل المائع الى حياض اخرى ليبرد فيها ولا يبقى في محله لئلا يتلف ثم توضع عليه الخميرة ويترك زمنا يختلف من اربع وعشرين ساعة الى ثمان واربعين وهذه هي التخميرة الاولى وفي تلك الساعات يظهر على الماء رغوة كثيرة ثم يوءخذ المائع ويوضع في براميل يستمر فيها التخمير ويظهر على الماء رغوة ايضا فاذا اخذت وعصرت يضعونها في كيس وتكون هي الخميرة للبوزة التي تستعملها الفطاطرية والخبازون ويستعملونها في البوزة للتخمير وفي المشروبات المحتاجة للتخمير ولا تكون البوزة نقية رائقة ذات لون لطيف كما يشاهد فيها الا بعملية اخرى وهي ان يضاف من غراء السمك على

المائع فبذلك يحصل بعد مدة رسوب جميع المواد وتصفو المادة
المائعة الصفاء الذي ترى به عند التجار



المسامرة (١٣٥)

الاشجار والزهور

وعند هذا حضرت الست وابنها فقالت للخواجا أيجوز لك
حرمان الشيخ من الاطلاع على ما في هذا البستان من الاشجار

والازهار التي قل ان يجتمع مثلها في بستان وحرماننا من الانس
به ويا ليتك شغلت وقته بالاطلاع على النباتات العطرية والرياحين
الزكية فانها في جميع حياض البستان من خلفك وامامك وعن
يمينك وشمالك وكان بيدها صحبة فاهدتها الى الشيخ فقبلها وبعد
ان تامل فيها قال حقيق انه لم يكن لنظام هذا البستان نظير
فاني لم ارَ فيه شيئين متجاورين من نوع واحد وارى وضع
النبات على اصول الهندسة حتى انها حوت من اختلاف الوان
الازهار المجتمعة صحبًا مختلفة الشكل والحجم وبتوزيعها وسط
الحياض بين الاشجار وبجافات الطرق كان لها صور ومناظر
مختلفة باختلاف المواضع التي يقف فيها الناظر وما من صورة
الا تسر الناظر وينشرح لها الخاطر ثم قال للست واني لاشكر
فضلك ومعروف حضرة الخواجا لانه حصل لي من مجلسه
فوائد ما كنت اعلمها قبل وقال لها الخواجا حيث اشرقت هنا
طلعتك فينبغي لنا ان نتكلم في النبات العطري فقالت ان
اكثر الورد والنبات الغريب والرياحين في الجهة المقابلة لنا من
البستان وهناك كشك صغير قريب من مجرى الماء يسمع منه
تغريد الطير فاظن ان لو رآه الشيخ لتمنى الاقامة فيه لانه فوق
ربوة صغيرة ويرى من شبابيكه الطريق السلطاني والزراعين
بالاراضي المجاورة له فاجابوها لدعوتها واخذ الخواجا بيدها واخذ
الشيخ بيد ابنه وساروا حتى وصلوا مكانًا مستدير الشكل في وسط

حوض ماء فيه نوفرة عظيمة مركبة من صور حيوانات وطيور والماء يخرج من افواهها في اتجاهات مختلفة واشكال عجيبة فكان تارة ينزل في دوائر الحوض وتارة يخرج عموديا او منحنيا قليلاً بحيث لا يتجاوز سقوطه روءوس الصور القاذفة له فيكون لصوت الماء عند سقوطه على المعدن الحامل لتلك الصور في الحوض رنات لطيفة وينشا عن امتزاجها بالاصوات الحاصلة من اهتزاز الاشجار ومن تغريد الطيور نغمات مطربة فمروا من جانبها فراءوا طريقا فسلكوه الى علوية محفوفة بالشجر وعليها قبة من انضمام اغصان الاشجار وراءوا اغصان الشجر منتظمة انتظاما تاما وبجانبي الطريق صفين من اشجار الورد وانواع الرياحين كالفل والياسمين وكل ما له رائحة طيبة مرتبة ترتيبا حسنا بحيث لا يحجب نوع ما وراءه بل كل نوع خلف ما هو دونه وراءوا اغصان الفل والياسمين ملتفة على اغصان الاشجار ممتدة معها في دوائر القبة كانها مصنوعة بيد مصور ومن نفوذ الاشعة الشمسية في خلالها رسمت صورتها على ارض الطريق ثم جاءت صاحبة البيت فسلمت على الشيخ وابنه وقالت للشيخ باللغة الفرنساوية على ما ترجمه له الخواجا ما معناه ارجوك الا تواخذني في عدم مصاحبتي لك فان اكبر عذري جهلي باللغة العربية فقبل الشيخ عذرها واطنب في الثناء على زوجها ثم قال وضع هذا البستان على هذه الصورة الفائقة في حسن الرونق والبهجة يقتضي

شدة الاعتناء به وزيادة الالتفات اليه وصرف اموالٍ جسيمة فترجموا لها ما قاله فقالت ان زوجي لا يكتفي بخدمة الخدَمة بل يتولى الخدمة فيه بنفسه وكلما يسمع بنباتة ليست فيه بادر الى جلبها اليه بدون التفات الى كثرة ما يصرفه عليها واكثر اوقاته مصروفة في ذلك خصوصاً معرفة خواصها وكثيرًا ما سافر الى بلاد بعيدة وقطع جبالاً واودية وبحارًا للاطلاع على ما فيها من النبات والاشجار وامتحانها لمعرفة خواصها وليعرف طرق ترتيبها وحفظها وهو الذي رتب هذا البستان وزرع ما فيه من انواع النباتات وليس هنا نباتة الا وعليها نمرة ولها قيد بدفتر النبات عنده وفي دروسه التي يلقيها للتلامذة في كل اسبوع يبين لهم ما يتعلق بالنبات وان كان لبعضه خواص يبينها لهم كالنباتات الطيبة والعطرية وغير ذلك وخلف هذا المكان محل التجربة والامتحان واماكن معدة للتدريس وخزانة كتب

فقال الشيخ قد اودع الله في النبات من العجائب والاسرار ما يبهر اولي الابصار ولا يبعد ان المعلوم منها الان اقل من المجهول ثم ان كثيرًا من النبات بعد زمن يزول وينبت غيره من غير جنسه فلو لم يقيّض الخالق لهذه النباتات من يشتغل بالكشف عن اسرارها ويبين فوائدها وينشرها لحرمت الخلق من تلك الفوائد ولبقيت اسرارها مجهولة مع انها هي المعينة لنا على اعمالنا برًّا وبحرًا اذ منها اقواتنا وبها يعالج ما اختل من ابداننا وفيها ما تنتعش بشمه ارواحنا

فجزى الله عنا المشتغلين خيرًا اذ لولاهم ما عرف النافع من الضار ولا البارد من الحار . فقال الخواجا من تأمل رأى انه ما من شيء الا وتعتريه احوال غير متناهية ففي السماء تحدث سحابات وتظهر نجوم مختلفة وفي الارض تظهر نباتات وحيوانات كذلك ولا شيء مما نراه اولاً نراه الاَّ وفيه شيء من سر الحياة ففي البعض تكون ظاهرة تدل عليها حركة الاعضاء وتنقل الجسم ونحوه وفي البعض تكون كامنة خفية فلا ندركها فالحياة في الحيوان امر وقف عنده علم الانسان وكذلك في النباتات وكما ان بعض الحيوانات يظهر في بعض الفصول ثم يزول ولا يظهر الا في ميعاده وبعضها يظهر في الظلمة ولا يهوى النور وبعضها على عكس ذلك فكذلك النباتات بعضها يخرج زهره في وقت معين دون غيره وكثير منها في هذا الوقت نفسه اما ان يتجرد من ورقه او ييبس عوده ولا يعود لحالته الاولى الا في السنة القابلة مع الانتظام

ومن هنا رأى بلين الروماني ان يرتب الاشهر والفصول على حسب تزهير النبات ولكن لم يتم هذا المشروع الا في زماننا هذا بواسطة بعض العلماء وبملاحظته اتضح لهُ ايضًا ان لكل اربعة انواع من الازهار ساعة معينة تنفتح فيها ولا تتعداها وبعض المتوحشين القاطنين بالبراري الشاسعة لا يعلمون الوقت الا من الزهور فيوزعون اعمالهم على حسب ذلك وبعض النبات لا ينفتح زهره الا بحادث من الحوادث مثلاً القوقحان اذا احس بنزول

المطر انضمت اكمام الزهر عليه انضماماً جيداً ليحفظ نفسه منه وبعض
النبات لا يهوى الشمس مثل النباتة المعروفة بالبقلة اليهوديه
وتسميها الفرنج لترُن وتنبت بارض السيبريا فانهـا اذا احست
بالشمس انضمت اكمامها ضماً جيداً حفظاً للزهر من الشمس ولا
ينفتح الا اذا اظلم الجو وتغطت السماء بالسحاب ومما يزداد تعجبه
الانسان منه ان هذه النباتات بانواعها وهذه الاشجار مع غلظها
وارتفاعها اصلها خلايا صغيرة نامية وفي داخلها حويصلات صغيرة
بحيث لا ترى الا بالنظارة المعظمة وهذه الحويصلات عبارة عن
فقاقيع دقيقة كروية الشكل ثم من تأثير بعضها على بعض تكبر
وتنمو فتصير اجساماً ذات اسطحة متعددة بعد ان كانت كروية
ولا ترى بالبصر لصغرها لكن قوة الحياة فيها عظيمة بحيث انها تزداد
في اقرب وقت زيادة عظيمة فينشأ عنهـا الياف النبات والجزع
والغصون والاوراق وبواسطة النظارة المعظمة وجدوا داخل الخلية
الواحدة مع دقتها جدور اجسام من مواد مختلفة وشاهدوا في
الورق حباً كثيراً ومن الوانه اخذت الاوراق الوانها وبعض
الطبيعيين رأى في بعض النبات المائي حيوانات كالذرو في المنسوج
الخلوي يشاهد غالبا دقيق كالذي يستخرج من الحنطة وهذا الدقيق
يكون في جميع اجزاء النبات سواء كانت جدوراً اوغصوناً اوفاكهة
وسكان جزيرة تايتي يصنعون الخبز من فاكهـــة تخرج في
جزيرتهم فياخذونها ويحمصونها على النـــار ثم ياكلونهـــا

فيجدون طعما كطعم الخبز ولذا تسمي السياحون هذه الشجرة شجرة الخبز ويصل وزن الواحدة منها الى اقة مصرية بل اقتين وثلاث وكثير من جزائر المحيط كجزيرة جافا وجزائر الملوك وجزيرة بندا وغيرها من الجزائر اكثر غذاء اهلهـا من جزع شجر يزرعونه في جزائرهم فمتى بلغ عمره خمسة عشر عاما قطعوه واخذوا مخه بواسطة مغارف يغرفونه بها ثم يضعونه في حياض منحوتة من هذه الاشجار ثم يسدون اطرافها بمادة ليفية فاذا امتلأ الحوض من المادة المستخرجة من المخ اضافوا عليه ماء وقلبوه حتى يمتزج الماء بالدقيق الموجود مع المخ ويمر من المادة الليفية فينزل في حوض اخر فيفعل به ما فعل بالاول ويلقي في حوض غيره فاذا عرف ان مادة المخ تخلصت من جميع دقيقها واجتمعت في الحوض الاخير مع الماء تركت فيه لترسب ثم يصفى الماء من فوقها ويوخذ الدقيق طريا ويحفظ في اوعية تصنع في الحال من اوراق هذه الشجرة يسع الوعاء الواحد منها من احد عشر كيلوغرام الى اربعة عشر ولا يتركون الاوعية الى ان تجف خوفا من تلف ما فيها ومع ذلك فيغمسونها في الماء مرة بعد مرة واهل جهات الاوسترالي يعرفون جدور نباتات يتعاطونها فتقوم عندهم مقام الخبز ويخزنونها للقوت

فقالت صاحبة البيت ما من يوم الا ويذكر لي زوجي في بعض مسامراته احوالاً جديدة للنبات مستفادة من استكشافات اهل هذا العصر من العلماء والسياحين الذين جابوا الارض

وان رأيتم الفرجة على المدرسة ومحل التجربة فها انا مستعدة لخدمتكم وان رأيتم ان تنظروا باقي البستان الى ان يحضر الخواجا ويريكم بنفسه فلا باس

فقال الشيخ الرأي ما ترينه وايها تختارين فهو الموافق واني لاحب الاطلاع على الجهتين وفي وجودي بين جهابذة الفن مثلكم فرصة لا بد من ان انتهزهـا واغترف من بحور علمكم الغزيرة ما تنتعش به روحي من الفوائد الكثيرة التي منها معرفة الحكم التي اودعها سبحانه في عالم النبات فان هذه المعلومات من نتائج هـذا العصر السعيد الذي هو في اتساع دائرة المعارف البشرية فريد وما ذكر من ذلك في كتب الاقدمين يوجد منتشرًا في الكتب العربية فضلاً عن كونه قليل الجدوى لقلته على انه لم تثبت صحة نقله خصوصا وان يد الجهل اضافت اليه خرافات كثيرة

فقال الخواجا الرأي المناسب ان نطوف في ارجاء البستان ونختار منه الجهة التي بها المشمومات فان في ذلك مناسبة للستات فتبسمت ثم قالت هذا هو الراي الحسن ولكن من الواجب اتباع رأي الشيخ فقال الراي ما رآه الخواجا فان النفس الى الروائح الزكية اميل فساروا قليلاً ثم وقف الخواجا حذاء خطوط الورد وقال قـد جمع المعلم هنا كثيرًا من مالوف النباتات ثم مد يده وقطف وردة وناولها اياها فطلبا منه ان يتكلم على بعض الازهار ليجمعا بين اللذة والفائدة فقال لا باس بذلك والاحسن ان نبداء بالورد لانه

هو الذي بايدينا فنقول الورد انواع منه ما يزرع بالبلاد الحارة كالبلاد التي بساحل البحر الابيض من اوروبا وافريقا وهذا النوع هو الذي يستخرج منه ماء الورد وعطره الذي تالفه الغيد والستات في جميع بقاع الارض ومنه هذه الوردة التي تراها بيضاء وزهرتها قليلة الورق وفي نهاية كل ورقة جزء اصفر فقد منحها الله كثرة العطر بدل ما نقص من ورقها وجعل نوعها افضل الانواع ولذا تختار في استخراج عطر الورد واما اصلها فمن بلاد المشرق وقد اهدت الينا جبال القوقاز هذه الشجرة العظيمة المسماة بالورد المثيني لكثرة ورق زهرته واما هذا الورد السبعاوي الذي لا ينقطع زهره صيفًا ولا شتاء فاصله من دمشق الشام ومنذ ثلثمائة عام اخذنا من بلاد المشرق هذا الورد المسكي وادخلناه في ضمن الازهار التي تحلى بها بساتيننا وهذا النوع يكبر كبرًا زائدًا في جهة تونس حتى يبلغ عشرة امتار وبالتفنن في زرع الورد ظهر نوع يعرف بالورد المجوز ويلي هــذا النوع شجر البنفسج وهو اوروباوي الاصل ويوجد في الغابات تحت ظل الاشجار وزهره وان كان عزيزًا الا انه لا يتجرد من عطره وقد تعسر عليهم هنا استخراج عطره كما استخرجوا عطر الورد والياسمين وتبتدئ للسائر روائح ازهاره الزكية ويعطر البساتين والحدائق من اول شهر فبراير ويستمر يهدي الينا من طيبات انفاسه الزكية مدة شهر مرس وابريل ثم اشار الى شجر الياسمين وقال

واما هذا النوع فلم يوجد باوروبا الاَّ في القرن السادس واصله من الجهات الحارة الواقعة فيما بين المدارين وهو نوعان بحري وطبري فكبر زهره ولطف لونه الابيض الوردي واستطالة شكله السنبلي وتجمع ازهاره وحمله حمله فوق ساق وحيد وذبوله التدريجي المتعاقب الذي يبقي لنا التمتع باستنشاق ريحه الطيب عدة اسابيع كل ذلك جعل هذا النوع الطبري فائقا على ما حوله من الازهار واختارته ايدي الحسان على غيره ثم اشار الى نوع اخر منه وقال

واما هذه الشجرة ذات الوريقات البيضاء المخمسة التي يعطر الجو شذاها فقد نقلها الاوروباويون من اسيا الكثيرة العطريات فزرعوها باراضيهم واستخرجوا دهنها واكثر الموجود منها في التجارة يستخرج من الياسمين الزنبقي او العربي وهو كثير بالهند ثم ان احدى السيدات مدت يدها الى شجرة قصيرة ذات وبر شوكي ولها زهر مجتمع اجتماعا لطيفا ورائحة تشبه رائحة الفانبليا وقطفت منها زهرة وناولتها للشيخ فراى لها رائحة زكية وكان لم يسبق له روٴيتها فسال الخواجا عنها فقال لهُ هذه النباتة غريبة واصلها من البيرو من بلاد الامريقا واسمها في بلادنا الهليوطروب وفسرها في القاموس بدوار الشمس والصغيرة من هذا النوع تسمى عندنا تنوم بمثناة فوقية فنونٍ ثم واو فميم والكبيرة منه تسمى صامر يوما وعلى ورقها من الجهتين وبرّ والوبر الذي على الجهة العليا اقصر واحد

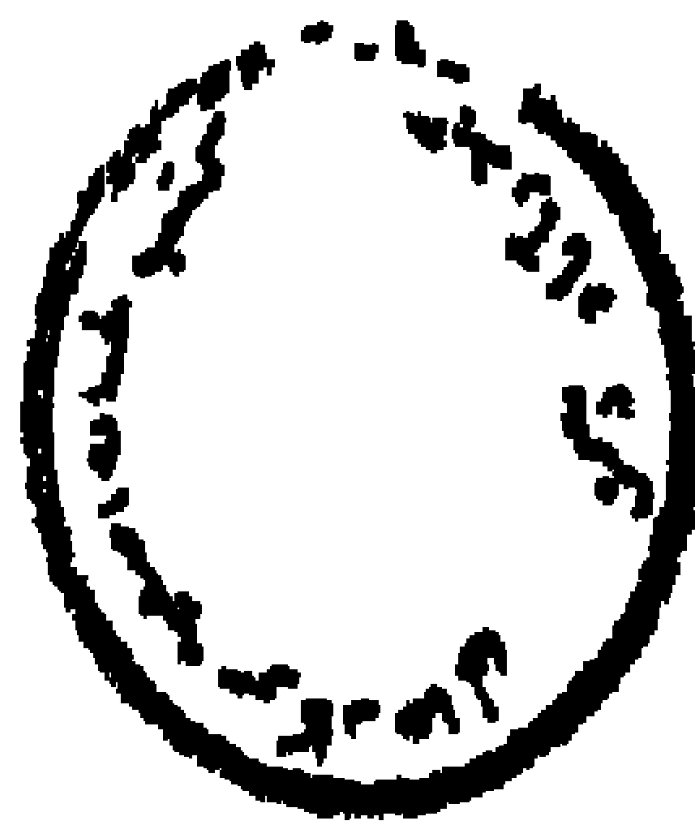
وازهاره الصغيرة متجمعة فوق الساق في هيئة صحبة ولونها ازرق سنجابي وكل زهرة على حدتها فوق ساق بمفردها ويتكون عن المجموع فوق الساق الاصلي شكل كالمظلة بهج المنظر تتميز به هذه النباتة عن غيرها وباوروبا من هذا النوع ما ينبت بنفسه الا ان زهره ابيض قليل الرائحة

ثم التفت الخواجا الى نبات اخر وقال ومن هذا النوع الذي تسمونه في بلادكم بالتفاح يستخرج بالتقطير من ازهاره البنفسجية اللون المشكلة في شكل السنبلة في اخر الغصون ماء شديد زكاء الرائحة في مبداء امره ويقل ذلك تدريجًا بالمكث وطعمه حريف ولكن اذا اضيف اليه ماء وشرب فانه يترك في الفم رطوبة خاصة به والمشهور ان التفاح الفلفلي هذا ورد الينا من بلاد الانكليز وهو كثير بالبساتين

ثم قال وهذا النوع الذي تسمونه في مصر بالسنبل والخزامى ونحن نسميه ثوند اصله موجود من قديم الزمن في الجهة الجنوبية من ارض فرانسا ويقال ان له ميلاً الى الحر وهو نبات عطري طيب الرائحة الى الغاية وفيه حدة ومرارة قليلة وفروعه مستطيلة مخيفة مربعة بيضاء مزينة في اسفلها بالاوراق وفي اعلاها بالازهار الصغيرة البنفسجية اللون ويكون في اعلا تلك الازهار اوراق خضراء

ثم نظر الى نبت فروعه كانها ذر عليها من تراب الافران

وقال هذه النباتة هي التي تسمونها السعتر ونحن نسميها الثن ولها
فروع دقيقة مستديرة مجملة باوراق صغيرة منضمة اطرافها الى جهة
اسفل وفي اعلاها نقط ولون اسفلها ابيض وزهرها في اخر السيقان
على هيئة سنبلة دقيقة ومنه البنفسجي والابيض ويستخرج منه ماء
السعتر وينبت بكثرة في سفح الجبال فيعطر سماها ويطيب هواها



(انتهى الجزء الرابع)

فهرس

الجزء الرابع
من كتاب
علم الدين

4840

SH